

سيمون دوفوفوار

تذكرات

لنساء وصبيات



دار العلم للملايين



مذكرات فتاة رصينة ..

سيمون دوبوفوار

مذكرات فتاة رصينة ..

نقلته إلى العربية
دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
بيروت

**MEMOIRES D'UNE JEUNE
FILLE RANGÉE**

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى
تموز (يوليو) ١٩٥٩

القِسْمُ الْأَوَّلُ

وُلدتُ في الساعة الرابعة من فجر اليوم التاسع من شهر كانون الثاني ١٩٠٨ ، في غرفة ذات أثاث أبيض اللون تشرف على جادة «راسباي» . ويرى من ينظر صور الاسرة التي أخذت في الصيف التالي سيدات صبيات يلبسن أثواباً طويلة ، وقبعات مزدانة بريش النعام ، ورجالاً يتسمون لطفل : انهم أبي وأمي وجدّي وأعمامي وعماتي وأنا . وكان أبي في الثلاثين ، وأمي في الواحدة والعشرين ، وكنت ولدهما الأول : وأقلب صفحة من المجموعة ، فأرى أمي حاملةً بين ذراعيها طفلاً لست إياه ، واراني ارتدي تنورة مكسرة وقبعة (بيريه) ، وكان عمري عامين ونصفاً حين وُلدت أختي : ويبدو اني كنت غيورة ، ولكن لفترة من الزمن . وقد كنت ، على ما أذكره فخورة بأني البنت الكبرى :

وليس لديّ من سنواتي الأولى إلاّ انطباع مبهم : شيء ما أحمر وأسود وحارّ . كان المنزل أحمر ، وغرفة الطعام ، والحرير الذي يقنّع الابواب الزجاجية والستائر المخملية في مكتب أبي :

وأنا مدينة لـ «لويز» باطمئنانني اليومي : فقد كانت تلبسني في الصباح ، وتنزع ثيابي في المساء وتنام في الغرفة نفسها التي أنام فيها وكانت صبيّة لا جمال فيها ، ولا يحيط بها سرّ ما دامت غير موجودة ، على ما كنت أعتقد ، إلاّ لتسهر على أختي وعليّ ، فلم تكن ترفع

صوتها قط ، وما كانت لتوخي بغير حق : وكانت عينها الهادئة تحرسني إذ كنت ألعب في حديقة « اللوكسمبورغ » ، أو اهدد لعبتي « بلوندين » التي هبطت عليّ من السماء ذات ليلة ميلاد مع الحقيبة التي كانت تضمّ جهازها . وكانت تجلس إلى قربي مساءً لتريني صوراً وتقصّ عليّ حكايات . لقد كان حضورها ضرورياً لي ضرورة الأرض تحت قدمي .

أما أمي فقد كانت توحى إليّ بعواطف الحب والتعلق ، بالرغم من أنها كانت أبعد عني من « لويز » . وكنت أجلس على ركبتها ، وانغمر في عذوبة ذراعها المعطرتين ، وأغطي بالقبلات بشرتها البضة : وكانت تتجلى أحياناً في الليل عند سريري ، جميلة كالصورة . وكانت إذا غضبت تحمق فيّ ، فأخاف هذا الشعاع العاصف الذي كان يذهب بجبال وجهها ، وأشعر اني بحاجة إلى بسمتها :

وأما أبي ، فكنت قلماً أراه . وكان يذهب كل صباح إلى « قصر العدل » حاملاً تحت ذراعه محفظة ملأى بأشياء لا تُمسّ كانوا يسمونها « اضبارات » : ولم تكن له لحية ولا شاربان ، وكانت عيناه زرقاوين مرحتين . وكان إذا عاد في المساء يحمل لأمي بنفسجاً ، فيتعانقان ويضحكان . وكان أبي يسلمني أنا أيضاً ويطلب مني ان أغني ، وكنت مسرورة حين كان يهتمّ بي ، ولكن لم يكن له في حياتي دورٌ محدد .

كانت مهمة لويز وأمي الرئيسية ان تغذياني ، ولم يكن ذلك سهلاً دائماً . لقد كان العالم يدخل فيّ ، عن طريق فمي ، بأعمق مما كان يدخل عن طريق عينيّ ويديّ : فلم أكن أقبله كلّهُ : لقد كان طعم المآكل يثرنني وينترع من عيني الدموع ، ومن حلقي الغصص والصراخ والقيء ه على اني كنت أفيد من امتيازات الطفولة ، فأنقضّ علمه ، الحلويات والساكر على اختلاف أنواعها :

ومع ذلك فقد كنت آكل وانمو وانظر إلى صورتني في المرآة . وكانوا قد قالوا لي إن السمراوات ذوات العيون الزرقاء لسن شيئاً عادياً ، وهذا ما كان يروقني فيّ ، وكنت أسعى إلى أن اروق الآخرين . وكنت احترم الرجال أكثر مما أحترم النساء واعجب بشواربهم ورائحة تبغهم وأصواتهم الخشنة وأذرعهم التي كانت ترفعني عن الأرض .

وكانوا يستمعون في البيت إلى حكاياتي ويرددون كلماتي فاستشعر من ذلك أهميتي في الدنيا . وقد كنت فتاة صغيرة مرحة جداً ، على انه كان يحدث لي أن تأخذني سوراة غضب أرتمي معها على الأرض متشنجة مزرقّة الوجه . وكنت غالباً ما أتساءل عن سبب ذلك ، وأظن انه راجع إلى حيوية متدفقة وتطرف لم أراجع عنه يوماً . وكان يكفي ان يعاملني أحد كطفل حتى يجرّح شعوري . فبالرغم من أن معلوماتي محدودة ، وكذلك امكانياتي ، فاني كنت أقدر نفسي كشخص حقيقي . وكان عنفي يخيف الآخرين ، فكانوا يوبخوني دائماً ، ولكنهم نادراً ما كانوا يصفعونني ، وكانت أمي تقول :

– إذا مسّ أحد سيمون ، فأن لونها يزرّق .

وكان أبي يتسلى بأن يردد :

– إن هذه الطفلة غير اجتماعية .

كما كانوا يقولون :

– سيمون عنيدة كأنها بغلة !

فأركب ساعتذاك رأسي ، وألجأ إلى العصيان لمجرد رغبتي بالآطبيع . وأراني في صورة الاسرة امدّ لساني سخرية ، وأولي ظهري الناس فيضحكون خلفي . وقد شجعتني هذه الانتصارات على ان اعتبر القواعد والمراسم والعادات أشياء يمكن تجاوزها . ولم تكن الهزائم تخلف في نفسي مذلة أو كرهاً . وحين كانت دموعي وصرخاتي تنتهي بي إلى الاستسلام ، فأن قواي تكون قد نفذت بحيث لا تمكّني من

اجترار الندم والأسف ، بل اني كثيراً ما أكون قد نسيت سبب ثورتي .

وكانت المقولتان اللتان ينتظم بهما عالمي هما « الخير » و « الشر » .
وكنت اسكن منطقة « الخير » حيث تتحد السعادة والفضيلة اتحاداً لا انفصام له ، وكنت أومن بأن افراح الناس وأتراحهم تساوي ما يستحقون :

٢

وكان عمري خمس سنوات ونصفاً - تشرين الأول عام ١٩١٣ - حين قرر أهلي إدخالني إلى معهد « دزير » . وكانت تسكرني فكرة ان أمتلك حياة تخصني وحدي . فحتى ذلك الحين ، كنت قد نموت على هامش الصبية الآخرين . أما الآن ، فستكون لي كتبي ومحفظتي ومهامتي ، وسأقطع أيامي وفقاً لتوقيتي الخاص . واستشرفت مستقبلاً يركز في ذاكرتي بدلاً من أن يفصل عني . لسوف أغتني سنةً بعد سنة ، على أن أظل أمينة لتلك التلميذة التي أصبحتها والتي كنت أحتفل تلك اللحظة بمولدها .

ولم يحب ظني . لقد كانت حياتي غنيةً بالأفراح والأحداث في صف « الصفر » الذي كنت بطلته الأولى . وعند اقتراب عيد الميلاد ، ألبسوني ثوباً أبيض مثلت به الطفل يسوع . وكانت البنات الأخريات يركعن أمامي .

وكانت أمي تراقب فروضي وتستمع إلى دروسي . وكنت أحب التعلم . على ان كل شيء كان يتغير في نفسي حين كنت أغادر المدينة وانتقل بين الحيوان والنبات ، في الطبيعة ذات الثنايا التي لا تحصى • وكنا نقضي الصيف في مقاطعة « ليموزين » بين أفراد أسرة أبي . وكان

جدتي يروي لي أساء جميع النباتات ، وكنا نغادره في منتصف العطلة لتقضي بعض الوقت في منزل خالتي « هيلين » في مقاطعة « غريار » . وكانت تروق لي رفقة روبير ومادلين ، ابني خالتي ، اللذين كانا أولهما يكبرني بخمس سنوات والأخرى بثلاث . وكنت اجد معهما من الحرية ما لم أكن أجده في أي مكان آخر .

وقد لاحظت ان أبي ، منذ أن دخلت المدرسة ، أصبح يهتم بتقدمي ونجاحي اهتماماً كبيراً . وكان يبدو لي من جنس اندر من سائر البشر . ولم يكن في الجوار من هو في مثل أهميته وإشراقه ومرحه ، ولم يكن هناك من يحفظ مثله الاشعار ، ولا من يقرأ مثله الكتب ، ولا من يناقش مثله بجرارة . وكان أطرف ما عنده انه يمثل المسرحيات في أوقات فراغه .

وكنا في مقاطعة « ميرنيك » ضيوفاً على عمي « غاستون » حين أعلنت الحرب عام ١٩١٤ . ولم نلبث طويلاً حتى رأينا « البوش » (أي الالمان) يتجولون في الطرقات . وقد تهامس الناس طويلاً حين سمعوا ان احدي الفتيات قدمت لجريح ألماني قدحاً من الخمر ، وانها قالت :

– واي بأس ؟ إنهم هم أيضاً من البشر !

وكنت أسمع ان « البوش » كانوا مجرمين بالولادة ، وكانوا يثرون في النفوس البغض والحقد .. ولهذا نظرت شزراً حين رأيت ذات يوم تلك التي أصبحت اسمها « الألمانية » والتي غدت تجسد لي « الشر » . ومن ذلك اليوم بدأت أشعر بحب وطني ، وأحسّ العطف على اللاجئيين البلجيكين والنفور من الجنود الألمان . واستولى عليّ شعور الفضيلة فزالت هواياتي وانتضى غضبي . وكانوا قد شرحوا لي ان الرب سوف ينقذ فرنسا إذا كنت عاقلة وتقية ، فاذا بي أتعلق بالدين وأتعبد الصليب .

وقد توجه أبي إلى الجبهة في شهر تشرين الأول ، وما زلت

أذكرني ماشية إلى جانب أمي ، في طريق العودة ، وعيناها مبللتان بالدموع . غير اني كنت واثقة من أن الله سيحفظ أبي ، وكنت عاجزة عن تصور المصائب . وقد حدث بالفعل ان أبي عاد إلى احد المستشفيات بعد نوبة قلبية اعترته ، ثم ألحق بوزارة الحربية ، فعادت حياتنا إلى سابق عهدها .

وأحسست اني قد تطورت فأصبحت فتاة عاقلة ، وأصبح دمي أقل غلياناً مما كان ، وغدا ذوقى ينسجم مع الحياة التي كنت أعيشها بحيث ان أحداً لم يعد يعاكسني . واقتنعت بان أهلي لا يريدون لي إلا الخير ، وان ارادة الله هي التي تعبر عنها أفواههم .. وهكذا بدأت أتنازل عن الاستقلال الذي حاولت طفولتي ان تحتفظ به . وغدوت طوال سنواتٍ انعكاساً أميناً لأهلي ..

٣

قضى أبي طفولته في منزل جميل كان يملكه جدتي في شارع سان جرمان بباريس ، وعرف سعة العيش ورغده . وكان شغوفاً بالدرس والمطالعة ، وكان يعيش في ظلّ جدتي ويسعى ابدأ إلى إرضائها . وكان مغرمًا بالمرح والأدب ، يشاهد جميع المسرحيات ويقرأ جميع المؤلفين ، حتى بلغ مرحلة الدراسة الجامعية ودرس الحقوق ، وظل بورجوازي التفكير والمعيشة ، واشتهر في الاوساط بأنه محدث بارع وشخصية جذابة ، وكان يختلف إلى المسارح ويودّ لو يمتهن التمثيل ، ويشارك في كثير من الحفلات الخاصة .

وكان أبي يطمح لإعادة الملكية ، وكان معجباً بموراس ودوديه ، وكان يغیظه السماح لليهود بأن يتدخلوا بشؤون البلاد ، وكان ايمانه باجرام دريفوس يشبه ايمان جدتي بوجود الله . وكان يقدر المرأة بصفتهـا

أمّاً ، ويطلب من الزوجة الامانة المطلقة ، ومن الفتيات الطهارة ، ولكنه كان يقرّ للرجال حرّيات واسعة ، مما كان يقوده إلى التسامح مع النساء اللواتي يوصفن بأنهنّ « خفيفات » . وكانت سلطته في البيت لا تناقش ، وكانت أمي تقرّ له بها ، وتعرّف بأنه هو الذي أدخلها الحياة وحبّتها بالكتب . وكان غالباً ما يقول :

— إن المرأة هي ما يصنع زوجها منها ، وعليه هو أن يكوّنها . ولم أكن أشعر تجاه أبي بأي انزعاج ، فكنت أطرح عليه أسئلة كثيرة ، ولكنني لا أحاول أن أتجاوز الحدود التي تفصله عني . ولم أكن في نظره لا جسماً ولا روحاً ، وإنما كنت فكراً . ولم يكن هو ينحني فوقي ، بل كان يرفعني إليه فأفخر بان أشعر اني أصبحت شخصاً كبيراً . وحين كنت أهبط إلى المستوى العادي ، كان ذلك متوقفاً على أمي التي ترك لها أبي بلا تحفظ أمر السهر على حياتي العضوية وتوجيه حياتي الخلقية .

أما أمي ، فهي منحدره من عائلة بورجوازية تقيّة وغنية . وبالرغم من جمالها فقد كان يتقصها المرح والاطمئنان ، وكانت تؤمن بأن على المرأة ان تطيع الرجل ، ولكنها كانت تبدولنا ذات سلطة ونفوذ ، وان كانت تظهر خجولة في المجتمع . وكان خير صديق لأبي يعيش حياة آثمة ، ولم يكن هذا يمنعه من زيارتنا كثيراً ، ولكننا لم نكن لنستقبل عشيقته ... وقد كانت أمي تنفر من جميع القضايا « الجسدية » ولم تحاول يوماً أن تفتأخي في أيّ منها ، بل لأنها لم تندرني بما ينتظرني من مفاجآت على عتبة البلوغ .

على انها كانت تتولى مهمتها كمرية بجدّ ورسالة كبيرين . وكانت تصحبني بنفسها إلى المدرسة وتحضر دروسي وتراقب فروضي ، وقد تعلمت الانكليزية وباشرت اللاتينية لنستطيع أن نتابعني في دروسي ، وكنا نقوم بصلواتنا ، هي وانا واختي ، بصورة مشتركة دائماً . وكانت في

كل لحظة ، وحتى في أعرق أسرار قلبي ، شاهدي ، ولم أكن أميز قط بين نظرها ونظر الإله . ومن أجل هذا ، كنت أعتقد أن بوسعي ، بل من واجبي ، ان أساويها بالتقوى والفضيلة ٥

وحيث بلغت السابعة أو الثامنة ، كان بوسعي ان احدثها بحرية كبيرة : وهناك ذكرى دقيقة تؤكد لي ذلك . فقد حاولت يوماً أن أتسلق على عمود من الخشب كان في البيت ، وحيث بلغت ذروته ، شعرت بتأكل كل غريب بن فخذي ، وكان هذا لذيذاً وخيباً في الوقت نفسه ، وقد أعدت الكرة . ثم قلت لأمي « هذا غريب ! » ووصفت لها ما شعرت به ، فاذا هي تتحدث عن شيء آخر بلهجة اللامبالاة ، واعتقدت انني باشرت موضوعاً من هذه الموضوعات العابثة التي لا تستدعي جواباً .

وكان الاتفاق السائد بين أمي وأبي يعزّز الاحترام الذي كنت أكنه لكلٍ منهما . وقد أتاح لي أن أحلّ صعوبة كان يمكن أن تربكني كثيراً: ذلك ان أبي لم يكن يذهب إلى القدّاس ، وكان يتسم حين كانت عمتي مرغريت تعلق على معجزات « لورد » ، وهذا يعني انه لم يكن مؤمناً . غير ان هذا التشكك لم يؤثر علي لشدة ايماني بالله .. ومع ذلك ، فقد كنت أعرف ان أبي لا يخطئ قط ، فكيف أفسر ارتياحه بأوضح الحقائق ؟ ولكن ، بما ان أمي التقية ترى موقفه هذا طبيعياً ، فلم يكن لي مناص من تقبل موقف أبي . وكان من نتيجة ذلك اني اعتدت اعتبار حياتي الفكرية - التي يجسدها أبي - وحياتي الروحية - التي توجهها امي - ميدانين مختلفين تماماً . فان القداسة لا تمت بصلة إلى العقل ، والاشياء الانسانية كالثقافة والسياسة والعادات لا تتعلق بالدين ؛ وهكذا دفعت الله خارج العالم ، وهذا ما سوف يؤثر تأثيراً عميقاً على تطوري اللاحق . فان فردية أبي وأخلاقيته المتحررة كانتا تناقضان أخلاقية أمي التقليدية القاسية . وفقدان التوازن هذا الذي دفعني إلى حس

الجدال يشرح إلى حدّ بعيد اني أصبحت من طبقة المفكرين .
وأما اختي التي كانوا يدعونها « بوبيت » فكانت أصغر مني بعامين
ونصف . وكانت شقراء ذات عينين زرقاوين ، وكنا نعيش عيشة
واحدة ، وكنا بذلك سعيدتين . وكنت اعلمها دروسها وأنصب نفسي
معلمة لها .

لقد كنت أواجه الحياة كما لو انها مغامرة سعيدة ، وكان الايمان
يحميني من الموت ، وكان حسبي ان أغمض عيني حتى تحملني أيدي
الملائكة الثلجية إلى السماء .

وكنا نقضي أوقات الفراغ بقراءة الكتب التي كانت تختارها لنا
أمي . وأما السينما فقد كان أهلي يعتبرونها تسلية عامية . وقد حدث ان
صديقاً لأبي دعانا جميعاً ذات يوم لحضور فيلم « ملك كامارغ »
وكان البطل ، وهو خطيب قروية جميلة شقراء ، يتنزه يوماً على شاطئ
النهر ، فالتقى ببوهيمية عارية ذات عينين تقدحان الشرر كانت تقود
دابتها ، ففغر فاه من الدهشة ، ولم يمض وقت طويل حتى كان مختلياً
مع البوهيمية في بيت صغير وسط البحيرات .. ولاحظت ان أمي وجدتي
تبادلان نظرات شاردة ، فأدركت منها ان هذا الفيلم لم يكن لي ... ولم
أذهب بعد ذلك إلى السينما !

وبدأت أشعر ، وأنا منفيّة على شرفة بيتنا أراتب المارّة ، انسي
أصبحت جائعة لرؤية البشر ، واني أودّ لو أعدو وراء ذلك الرجل
المجهول الذي يستدير عند المنعطف والذي لن أراه بعد أبداً ... وقد
رأيت ذات أصيل في حديقة اللوكسمبورغ فتاة طويلة تلاعب أولاداً
بالحبل ، وكانت ذات وجنتين مورّدين وضحكة حارة عذبة . ولا
أدري لماذا قلت لأختي ، حين عدت مساء :

— اني أعرف ما هو الحب !

والواقع اني استشعرت شيئاً جديداً في نفسي ، دون أن احسّ بأيّ

نفور من حياتي ووضعني .

٤

لم يكن من حق الجسد ، في عالمي ، أن يوجد . ومع ذلك ، فقد كنت عرفت عنذوبة ذراعي أُمي .. وكان بعض الاحتكاك عند بشرتي ، وبعض حرارة تبثها يد تلامس عنقي .. كان ذلك يبعث في جسمي الارتعاش .

وفي سنواتي الثماني الأولى لم أعرف إلاّ صبيّاً كان يهمني رأيه ، وقد كان من حظي انه لم يحقرني . انه ابن عمتي « جاك » الذي كان يكبرني بستة أشهر ، وكانت له أخت تكبرني بثلاث سنوات واسمها « تيتيت » ، وكانا قد فقدنا أباهما في حادثة سيارة ، فتروجت أمهما مرة أخرى ، وكنا نقضي أنا وأختي بعض أوقات العطل عندهم .. وكان جاك صبيّاً جميلاً بعينه الذهبيتين وشعره اللامع ، وكنت أجلس إلى قربه على الدرج لنقرأ في « رحلة جيليفر » . وقد لاحظت انه يحقر البنات بالاجمال ، وهذا ما جعلني ازداد تقديراً لصداقته لي . وقد صرح بقوله : « إن سيمون صبية ناضجة قبل الاوان » وسرتني هذه العبارة كثيراً .

وذات يوم ، صنع « جاك » بيديه كنيسة صغيرة من الزجاج كتب عليها « إلى سيمون » ولم أتلق في حياتي هدية راقنتي كهذه . وقد عزمنا على اننا « زوجان بالحب » وجعلت اسمي جاك « خطيبي » ، وقمنا بشهر العسل فوق صهوتي جوادين خشبيين في « الكسمبورغ » . وقد حملت تعاهدنا على حمل الجدّ . غير انني لم أكن أفكر فيه قط ، في أثناء غيابه . لقد كنت مسرورة إذ أراه ، ولكنني لم أكن أشتاق اليه قط . وهكذا ، فان الصورة التي أتأملها لي وأنا في سن الرشد هي صورة

فتاة رصينة سعيدة ، لا تخلو من تكبر .
وفي ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، كنت أتلقي درس البيانو تحت مراقبة
أمي حين دقت أجراس الهدنة .

وعادت لنا الحياة طبيعية هادئة ، ولكن العيش بلا انتظار شيء
كان يبدو لي مريعاً . كنت أنتظر ، وكنت منتظرة . وهذا ما كنت
أجيب به نفسي حين كنت أتساءل : لماذا أنا هنا ؟ وكانت المطالعة ،
خارج دروسي ، هي أهم أعمالي في الحياة . وكان أبي يصطحبني بين
الفترة والفترة إلى المسرح ، فيخلق ذلك بيننا مشاركة كانت تشعرني بأنه
لا يخصّ سواي . ولم يفتح أبي مكتبه للمحاماة مرة ثانية بعد الحرب ،
ولكنه قبيل أن يعمل مديراً مساعداً في مصنع حميه ، براتب ضئيل ..
على أنه كان يعلّق على ذلك مبتسماً بقوله :

— لقد أصبحنا من محدثي الفقر !

ولاحظت ان حس السخرية عنده قد عمق ونما ، فازدادت
له حياءً واكباراً ، ولم ينقص ذلك قط من حبي لاسرتي وتعلقي بها .
غير انه كان هناك ما يغمّتي : فلا بد ان يأتي يوم تنتهي فيه
هذه المرحلة من حياتي .. فكيف لمن أحبّ ذويه عشرين عاماً أن
يتركهم بلا ألم عنيف ليلحق بانسان مجهول ؟ وكيف له ان يحبّ هذا
المجهول الذي لم يكن بالنسبة له شيئاً ؟ وسألت أبي في ذلك فأجاب
مبتسماً :

— إن الزوج شيء آخر !

والواقع اني كنت أنظر إلى الزواج باسْتِيَاء . لم أكن أجد فيه
استعباداً ، فان وضع أمي كان ينفي ذلك ، ولكن الذي كان ينفرني
منه هو هذا الاختلاط . فقد كنت أحدث نفسي بذعر : « إن أحدنا
لا يستطيع في سريره مساء أن يبكي بهدوء إذا كان راعباً في ذلك . »
ولست أدري إذا كانت سعادتني قد كدّرتها الاحزان أو الازمات ،

ولكنني كنت غالباً ما يلذّني في الليل أن أبكي . فاذا اضطرت إلى أن أكبت هذه الدموع ، فإن ذلك يعني ان أحرم نفسي هذا القدر الضئيل من الحرية الذي كنت أنعم به . لقد كنت طوال النهار أحسّ بأنظار الآخرين مصوّبة نحوي ، وكنت أحبّ وسطي ، ولكن حين كنت آوي في المساء إلى فراشي ، كنت احسّ عزاءً عميقاً ان أعيش أخيراً بضع لحظات من غير شهود . وقد كان في وسعي آنذاك ان أسأل نفسي وأناقشها وأعير سمعي لهذه الضجّجات الخجولة التي كان حضور الكبار يخفّتها ...

ولقد كنت تقيّةً جداً : كنت أعرّف مرتين في الشهر للأب مرتان وابتناول القربان ثلاث مرات في الاسبوع ، وأقرأ كل صباح فصلاً من « الاقنءاء » . وكنت بين الدروس اتسلل إلى كنيسة المعهد واصلي طويلاً ، ورأسي بين يدي . وغالباً ما كنت في أثناء النهار ارتفع بروحي إلى الله ، وانقطعت عن الاهتمام بيسوع الطفل ، لأعبد المسيح عبادة عميقة ، وكنت قد قرأت ، في هوامش الاناجيل ، قصصاً مثيرة كان هو بطلها . وكنت أتأمل بعينين محبتين وجهه الجميل العذب الحزين ، وأتابع عبر التلال التي يغطيها شجر الزيتون اشراق ثوبه الابيض ، وأغمّر بدموعي قدميه العاريتين ، وكان يسم لي كما ابتسم لمادلين . حتى إذا عاقت ركبتيه طويلاً وبكيت على جسده الدامي ، تركته يعود إلى السماء . وكان يذوب هناك مع الكائن البعيد الذي أدين له بحياتي والذي سيسحرني اشراقه يوماً إلى الابد .

وأني عزاء كنت استشعره إذ أعرف انه هناك ! لقد قالوا لي انه كان يحبّ كل مخلوق من مخلوقاته كما لو انه كان فريداً . ولم يكن نظره يتركني لحظة ، وكان الجميع مبعدين عن لقائنا ، كنت أمحوم فلا يبقى في العالم غيره وغيري ، فأشعر اني ضرورية لمجده ، وان وجودي ذو ثمن لا يُحدّ . وما كان ليفلت شيئاً من أعمالي وأفكاري

ومزايي التي كانت تستكنّ فيه ، وكذلك نقائصي وضعفي ، ولكن هذه النقائص كانت تغتسل بندمي وبطيته حتى لتغدو في مثل إشراق فضائي . ولم أكن أملّ الاعجاب بنفسي لدى هذه المرآة التي لا بداية لها ولا نهاية .

وكنت كل سنة أختار يوماً اعتزل فيه الناس لاستمع إلى توجيهات احد الواعظين واتأمل وازور الكنائس . وكانت أُمي تحترم انطوائي على نفسي حيث كنت اسجل على احد الدفاتر تأملات روحي واماني في التقرب إلى الله ، حتى اني عزمت على أن أدخل الدير لأتأمل طوال الوقت في مجد الاله . ولم اعبر عن هذا العزم خشية الا يحمله على حمل الجذ ، فاكفيت بأن أصرح :

— أنا لن أتزوج .

فابتسم أبي وقال :

— ستحدث في هذا مرة أخرى حين تبلغين الخامسة عشرة ...

٥

كانت سعادتني تبلغ ذروتها في الشهرين والنصف التي كنت أقضيها كل صيف في الريف . وكان مزاج أُمي يبدو هناك أهدأ منه في باريس ، وكان أبي يهتمّ بي أكثر مما يهتم عادة في العاصمة ، وكنت أنعم بفرص عديدة لأقرأ وألعب مع أخي . وكنت أعوض عن المقتضيات المدرسية الدقيقة باتساع الآفاق التي كانت تفتح أمام فضولي ، فأستغلها من غير معونة أحد ، وأشعر أن وساطة الكبار لم تعد تتدخل بين العالم وبينني . وكنت أراني اتمل بالوحدة والحرية اللتين لم تكونا متاحيتين لي كثيراً في المدينة ، فاذا بجميع اماني متوافقة : أماني للماضي وتذوق للجديد وحبّي لأهلي ورغباتي في الاستقلال .

وكننا عادةً نمكث بضعة أسابيع في « لاغريير » ، وكان القصر هناك يبدو لي ضخماً وقديماً ، بينما لا يعود عهده في الحقيقة إلى أكثر من خمسين عاماً خلت . ولكن لم تكن هناك يدٌ واحدة قد غامرت في تكتيس غبار الزمن عن أثنائه وحاجاته ، فاذا بالداخلين إليه يشمّون رائحة حيوات قديمة قد انطفأت فيه .

وكان عمي وامرأة عمي وأولادهما يعيشون عيشة تتلاءم وهذا الإطار الباذخ . وكانت امرأة عمي هيلين تراقب خزائنها وتستخدم عدداً من الخادmates ولكنها مع ذلك تشكو من أنها لا تجد ساعة للراحة . وكان عمي يخرج في الساعة التاسعة فيمتطي صهوة جواده ، وكانت مادلين تعتنى بحيواناتها بينما يستغرق روبر في نومه ، فلعب معاً ، هي واختي وأنا . وكانت مادلين غارقة في قراءة الروايات ، وكانت تحلم بأن تصبح جميلة جداً وان تكون محبوبة . وأما امرأة عمي ، فلم تكن تستقبل احداً من الناس ، ولا تزور احداً .

وكنت أقضي معظم وقتي هناك في القراءة . وكان الذّ أوقاتي أن أنهض باكراً في الصباح فأفاجي البراري تستيقظ بعد أن أغادر البيت النائم والكتاب في يدي . ولما كان يستحيل عليّ أن أجلس فوق العشب المندى ، فقد كنت أسير في الشارع وأنا أقرأ ، فأحس رطوبة الهواء على جلدي ، وأشعر بطبقة الجلد الرقيقة تذوب تحت قدمي ، وأرى الارز يلتمع باسراق يشبه اشراق أول صباح في الجنة ، ولقد كنت وحدي أحمل جمال العالم ، تمجيداً لله ، بينما تحلم معدتي بقطعتين من الشوكولا والخبز المحمص . وحين يبدأ النحل في الطنين ، وتفتح المصاريع الزرقاء على عطر العشب الندي ، أكون قد شاطرت ذلك النهار الذي يهلّ على الآخرين ، ماضياً طويلاً ذا أسرار . حتى اذا عدت إلى البيت وتناولت طعام الفطور ، جلست أكتب « فروض العطلّة » ، وأنا أستمع الى نقاش جدتي وأبي وعمي وضحكهم وغنائهم أحياناً . ثم اني كنت

أصطحب أختي للتزهة والشيطنة في البراري ، نكتشف المستنقعات والشلالات ونسلق الاشجار والصخور ونسرق الجوز واللوز ، ونذوق تفاح جميع الشجرات . وكان يسكرنا عطر الاعشاب والسنابل الخضراء فتمدد على الأرض وتأخذ في القراءة . وبالرغم من أن حضور أختي كان خفيفاً علي ، فقد كنت أوتر الوحدة ، ولا سيما في الليل ... لقد كان يخيل الي ان الارض تصدي بهذا الصوت الذي ما يفتأ يهمس لي : اني هنا ، فيرتعش قلبي بجرارته الحية اذ أنظر الى النجوم . هناك ، في الاعالي ، كان الله ينظر إلي ... وقد كان هذا العيد في دمي ، بعد ان لامسني النسيم وأسكرتني العطور ، يمنحني الخلود .

أما اذا كانت أختي الى جانبي ، فكنا نتحدث في شتى الأحاديث وتداول في الأمور التي كانوا يصفونها بأنها « غير لائقة » . فقد كان من « غير اللائق » أن تعرّي المرأة ذراعيها أو ان تلبس لباساً قصيراً يكشف عن ساقها أو أن تصبغ شعرها أو أن تقصه أو أن تترين أو أن تضطجع على ديوان أو أن تعانق زوجها في ممرات المترو ... فاذا خالفت هذه القواعد فإنها « سيئة الخلق » . ولم يكن « عدم اللياقة » يختلط مع الأثم ، ولكنه يستدعي مع ذلك توبيخاً وتقريعاً . وكنا أختي وأنا نقابل هذه المظاهر بمحاولة الاستهزاء بها . ففي حديقة « اللكسمبورغ » مثلاً كنا نتغامز بالمرافق حين نمرّ أمام عاشقين يتبادلان الهمس أو القبل؛ وأذكر ان الواعظ أراد يوماً ان يحذرنا من اغراء الفضول ، فروي لنا قصة لم يكن من شأنها إلا أن أثارت فضولي الى أبعد حد . وملخص القصة ان فتاة صغيرة ذكية جداً وناضجة قبل الأوان ، ولكنها ذات والدين قلما كانا يهتمان بها ، اتته يوماً تعترف له بأنها قرأت كثيراً من الكتب السيئة حتى انها فقدت ايمانها وأضححت تستنقع الحياة . وقد حاول أن يردّها لها الأمل ، ولكنّ العدوى كانت قد استولت عليها بحيث لم يعد لينجع بها دواء ، فاذا به يعلم بعد قليل انها قد انتحرت؛

وكانت أول حركة بدرت مني هي طفرة إعجاب وحسد لهذه الفتاة الصغيرة التي كانت تكبرني بعام واحد ، والتي كانت أوسع علماً مني بالحياة . ولكنني سقطت بعد ذلك في القلق والتبرم : لقد كان الايمان حارساً لي من النار ، وكنت أخشى النار خشية لا أستطيع معها أن أرتكب اثماً مميئاً . وإذا كفّ أهدنا عن الايمان ، انفتحت أمامه جميع الهوآت . أفيمكن ان يصاب انسان بمثل هذه المصيبة من غير أن يستحقها ؟ إن المتحرة الصغيرة لم تأثم بدافع العصيان ، وكل ما حدث أنها عرضت نفسها ، من غير حيلة ، الى قوى مظلمة اكتسحت روحها : فلماذا لم ينقذها الله ؟ وكيف تستطيع كلمات يقدمها البشر أن تهدم يقيناً كبيراً ؟ وما أدركته أقلّ من ذلك ، هو أن تفضي المعرفة الى اليأس . ولحق ان الواعظ لم يقل ان الكتب السيئة تصوّر الحياة بالوان مزيفة غير حقيقية ، ولو فعل ذلك ، لكنس بسهولة أكاذيب هذه الكتب . وان مأساة الفتاة الصغيرة التي أخفق في انقاذها تكمن في انها قد اكتشفت قبل الأوان وجه الواقع الحقيقي . وقد قلت لنفسي : على أي حال ، سأرى هذا الوجه أنا نفسي ذات يوم ، ولن يدفني ذلك الى الموت : لقد كانت عقلائي تنفر من فكرة أن هناك ملاكاً حيث الحقيقة تقتل .

غير ان ابنة عمي مادلين كانت تقرأ أي كتاب يقع تحت يدها . وقد اغتاز أبي عندما رآها ، حين كانت في الثانية عشرة ، تقرأ كتاب «الفرسان الثلاثة» ، فما كان من أمها الا أن هزت كتفها بلا مبالاة . ولكن ذلك لم يدفع بمادلين الى الانتحار .

وفي عام ١٩١٩ بقينا طوال اسبوعين في بيت امرأة عمي هيلين حين عزم أهلي على الانتقال الى بيت جديد . وقد سألت ابنة عمي مادلين على غير تأمل سابق ، عما تنطوي عليه الكتب المحرمة الممنوعة . ولم يكن قصدي أن أفهم على محتوى هذه الكتب ، وانما كانت غاياتي

أن أفهم الاسباب التي من أجلها قد حرمت :
وكنا جالسات ، نحن الثلاث ، على العشب في الحديقة . وقد ترددت
مادلين قليلاً ثم انطلقت تتكلم . وبعد قليل نادى كلبها وأشارت الى
كرتيس بن فخذيه ، ثم قالت :
- ان للرجال مثلها أيضاً !

وروت لنا أنها كانت قد قرأت في كتاب عنوانه « روايات وقصص »
حكاية غريبة : مركيزة بلغ من شدة غيرتها على زوجها أنها بترت
« كرتيه » بينما كان نائماً ، فمات على الأثر .. وسألت مادلين مزيداً
فشرحت لي ما تعنيه كلمتا « عشيق » و « خلية » . فاذا أحببت أمي
شخصاً غير أبي فستكون خليلته ، وسيكون هو عشيقها . ولم توضح
لي معنى كلمة « أحب » بحيث أن كلامها زادني حيرة ولم يجعل
الغموض . ولم يبدأ كلامها يهمني الا حين شرحت لي الطريقة التي بها
يولد الاولاد : انهم يتكوّنون في أحشاء أمهاتهم . وكان قد سبق للطباخة
منذ أيام أن شقت بطن أرنب فوجدت فيه ستة أرناب صغيرة . وحين
تنتظر المرأة ولداً ، يقال انها حامل ، ويتنفخ بطنها . ولم تعطنا مادلين
تفاصيل أخرى . ولكنها أضافت قولها ان « أشياء » ستجري في جسمي
عما قريب ، وأن علي أن أضع بين فخذني بعض الحرق حتى لا أتلوّث
بالدم ... وهنا سألتها أخي كيف يتأتى لي أن أبول في هذه الحالة ؟
فاغتاظت مادلين من السؤال وقالت لآخي انها بلهاء ومضت عنا الى
دجاجاتها ...

وقد ظلت على دهشة فترة طويلة : فقد كنت تصورت ان الاسرار
التي يحتفظ بها الكبار هي أخطر من ذلك بكثير . كان هناك شيء غامض
لم يتضح لي قط . إن مادلين لم تعرض لموضوع الحبل الذي أخذت
أتأمله في الأيام التالية . ولما كنت مدركة ان السبب والنتيجة متماثلان ،
فلم أستطع أن أقر أن يكون من نتيجة حفلة العرس ان تبعث في بطن

المرأة جسماً من لحم ودم ، فلا بدّ أن يحدث بين الوالدين شيء ما عضوي . وقد كان بوسع تصرف الحيوانات أن يرشدني في هذا المضمار: فقد رأيت ذات ساعة كلبة مادلين الصغيرة ملتصقة بكلب كبير من فئة « الكلب الذئب » ، وكانت مادلين تحاول وهي تكاد تبكي أن تفصل بينها ، وهي تقول « سيكون أولادها كبيرين الحجم أكثر من اللزوم ، وقد تموت كلبي من ذلك . »

وبالرغم من أن ثرثرة مادلين قد خيّبت ظننا ، فإنها قد أثارتنا حقاً ، فاذا بي وبأختي نستسلم لموجة من الحديث البذيء . ولم تكن امرأة عمنا هيلين تخيفنا ، فأخذنا نتحدث أمامها بكلام « لا يليق » • وكانت أحياناً تجلس الى البيانو لتغني معنا بعض أغاني ١٩٠٠ ، وكانت تعرف الكثير منها . وقد اخترنا أوفر هذه الأغاني تحوراً وخروجاً على الحشمة وأخذنا ندمدمها في سرور . « إن نهديك الابيضين هما في فمي الجائع أطيب من الفريز ، والحليب الذي أشربه منهما ... » كان مطلع هذه الأغنية يثر فضولنا : هل ينبغي لنا أن نفهمها على حرفيتها؟ أو يحدث للرجل أن يشرب حقاً حليب المرأة؟ أيكون هذا طقساً من الطقوس الغرامية؟ مهما يكن من أمر ، فإن هذا المقطع هو « غير لائق » حقاً ، وهذا لم يمنعنا من ان نكتبه على الزجاج بأطراف أصابعنا ، ومن أن نغنيه بصوت عال في مسمع امرأة عمنا هيلين . بل لقد أرهقناها بأسئلة دقيقة ، وكانت صراحتنا تتخذ شكل تحدّ وإثارة ، وقد بلغنا من ذلك غايتنا . حتى اذا رجعنا الى باريس ، لم تتورع أختي ، وكانت أقل تحفظاً مني ، عن ان تسأل أمي عما اذا كان الاولاد يخرجون من الشرة فأجابتها أمي بشيء من الجفاء :

— لماذا هذا السؤال ؟ لا شك انكما تعرفان كل شيء !
وهذا يعني ان امرأة عمي هيلين قد أطلعتها على الأمر : وقد عزّانا كثيراً أن نجتاز هذه المرحلة ، فمضينا الى الأمام ، وأفهمتنا أمي

أن المواليد يخرجون من المومخرة ، وبدون ألم . ولم يكن لهذا الحديث من تنمة . ولم أفتح أمي بعد ذلك قط في مثل هذه الامور . ولست أذكر أنني اجتررت بعد ذلك قضايا الحبل والولادة ، أو أدخلتها في برنامج مستقبلي . لقد كنت أنفر من الزواج ومن الأمومة ، ولم أشعر أنني معنيّة بهما . والواقع ان اطلاعي على هذه الأمور انما أثارني وأزعجني من زاوية أخرى ، هي أنه ترك كثيراً من الاسرار معلقة ، فما هي العلاقة القائمة بين مثل هذه القضية ، قضية ولادة طفل ، وبين الامور « غير اللائقة » ؟ فاذا لم تكن هناك علاقة ما ، فلماذا كانت لهجة مادلين وامتناع أمي عن الكلام يوحيان بان هناك مثل هذه العلاقة؟ ان أمي لم تتكلم الا بعد تحريض منا ، ومن غير أن تشرح لنا قضية الزواج . وان الوقائع الفيزيولوجية تتعلق بالعلم كما يتعلق به دوران الأرض : فما الذي كان يمنعها من ان نخبرنا خبرها ببساطة ؟ ومن جهة أخرى ، اذا كانت الكتب المحرمة لا تحوي ، كما أوحت لنا بذلك ابنة عمنا ، إلا بذاءات سمجة ، فمن اين تراها قد استقست سُمّها؟ إن هذه أسئلة لم أكن اطرحها على نفسي بصراحة ، وانما كانت تعذبني مع ذلك . لا بد أن الجسم هو بذاته شيء خطر حتى تكون كل اشارة الى وجوده ، سواء كانت هذه الاشارة خفيفة أو قاسية ، شيئاً خطراً جداً .

واستنتجت أن وراء سكوت الكبار شيئاً يختفي ، وأدركت أن لارتباكهم سبباً : على اني كنت قد فقدت أوهامي حول طبيعة أسرارهم . إنهم لم يكونوا يملكون الدخول الى مناطق مظلمة يمكن للنور ان يبهّر فيها العيون ، ويمكن للافق ان يكون فيها أوسع وأرحب مما هو في دنياي الخاصة . وهكذا فان خيبيتي كانت تردّ العالم والناس الى ابتداليتهم اليومية . ومنذ ذلك اليوم ، بدأ احترام « الكبار » ينقص في نفسي .

في معهد « ديزير » تعرفت ذات يوم الى رفيقة كانت تجلس غير بعيد عني في الصف : سمراء قصيرة ذات شعر أسود . وكان اسمها اليزابيت ماييل ، وكانت في مثل سني : وقد علمت منها انها بدأت دراستها في وسط اسرتها ، ثم حدث حادث خطير لها اذ كانت في الريف : كانت ذات يوم تقلي البطاطا ، فاشتعلت النار في ثوبها ، واحترق فخذها في اعلاه حرقاً بالغاً ، وظلت تنن وتتوجع ليالي طويلة ، وكانت بشرتها تحت تنويرها المكسرة ما تزال متورمة ، بعد ان قضت سنة كاملة في الفراش : ولم أكن قد سمعت شيئاً على مثل هذه الأهمية فبدت لي اليزابيت شخصية تثير الاهتمام : وقد أدهشتني طريقتها في التحدث الى المعلمين ، وكان صوتها الطبيعي يختلف عن أصوات سائر الرفيقات المصطنعة . وبعد ذلك بأسبوع ازددت بها اعجاباً حين رأيتها تقلد مدرستنا « الآنسة بوديه » تقليداً عجيباً ، وكان كل ما تقوله غريباً يثير الفضول :

وقد كنا نتنافس ، اليزابيت وأنا ، على المركز الأول في الدروس . وقد راق هذا التنافس لمعلمتنا ، فشجعن صداقتنا التي أخذت تزداد وتعمق حتى أصبح الجميع يدعوننا بـ « اللتين لا تفترقان » .

وتساءل أبي وأمي طويلاً عن فروع اسرة « ماييل » ، وخرجنا من ذلك بأن علاقة بعيدة مشتركة تربط اسرتها بهذه الاسرة . وكان أبوها مهندساً كبيراً للسكك الحديدية ، وكانت أمها تنتمي الى أسرة من الكاثوليكين المناضلين . وقد تعرفت ذات يوم على أمي ، وانعقدت بينهما الصداقة ، فسمح لنا اليزابيت وأنا ، ان نتراور وان تلعب احدانا في بيت الأخرى :

وحين زرتها مع أختي للمرة الاولى في منزلها ، أصبنا بما يشبهه

الذعر : كان لاليزابيت (التي كنا ندعوها « زازا ») أخت كبيرة وأخ كبير ، وستة أخوة وأخوات أصغر منها وسرب من القريبات . وكانوا جميعاً يركضون ويقفزون ويتشاجرون ويصعدون على الطاولات ، ويقبلون الكراسي وهم يتصاحون . وحين دخلت أمها علينا ، كانت تسمح العرق عن جبينها وهي تبسم ، وقد أدهشتني أن لا تغضب لشيء مما كان يفعله الاولاد ، والحق اني لم أحب هذه الاعمال الصاخبة ، ورأيت زازا تتضايق منها هي أيضاً . وقد التجأنا أخيراً إلى مكتب أبيها ، وأخذنا نتحدث بعيداً عن الصخب . وكانت هذه متعة جديدة . لقد كنت أتبادل مع زازا أحاديث لم أكن أتبادل مثلها مع أي انسان آخر . كنا نتحدث عن دروسنا ومطالعاتنا ورفيقاتنا وأساتدتنا وكل شيء نعرفه في الدنيا ، من غير أن نتحدث لحظة عن انفسنا . ولم تتحول أحاديثنا يوماً الى جانب الاعتراف أو المسارة ، ولم نكن نسمح لانفسنا بأي رفع للكلفة ، وكنا نتبادل الاحترام ، ولم نكن لتعائق قط ، الا في الرسائل .

وكانت زازا مثلي تحب الكتب والدرس ، وكانت تتمتع الى جانب ذلك بعدد من المواهب لم أكن أملكها . وحين كنت أزورها أحياناً في بيتها ، بشارع فارين ، أجدها مشغولة بصنع الحلويات ، وكانت تصنع خشافاً لذيذاً من الفاكهة ، وكانت تضرب على الآلة الكاتبة « أخبار الاسرة » على عدة نسخ ترسلها الى الاقرباء خارج باريس . وقد بدأت تتلقى معي دروساً في البيانو ، ولكنها سرعان ما تفوقت علي . وبالرغم من أن جسمها دقيق هزيل ، فقد كانت رشيقة مرنة خفيفة الحركات . وكانت حيويتها وتلقائيتها تسحراني بالاجمال .

ولم أدرك على الفور المكانة التي سوف تحتلها هذه الصداقة من حياتي ومستقبلي . كل ما هنالك أنها كانت خير صديقة لي . والى جانبها بدأت أشعر بشخصيتي تنمو وتتضح معالمها .

وحين عدت الى المدرسة تلك السنة شعرت بأن ايامي بدأت تفسد مذاقها . لقد أعطيت كل شيء ، ومع ذلك فان يديّ فارغتان . وكنت يوماً أسير الى جانب أمي في شارع « راسباي » ، فاذا بي أتساءل فجأة : « ما الذي يحدث ؟ أهذه هي الحياة ؟ أليست هي الا هذا ؟ هل تراها ستستمر على هذه الوتيرة ؟ » وشعرت بأنفاسي تتقطع وأنا أفكر بأن أياماً وأسابيع وأشهرأ ستمضي هكذا ، لا يضيئها أي انتظار ولا أي وعد : إن العالم ، كما يخيل إليّ يموت ، واني لا أجد اسماً لهذا الضيق •

وجعلت أجرّ قدمي طوال اسبوعين .. وكنت ذات مساء أخلع سرتي في المعهد ، حين ظهرت زازا . فأخذنا نتحدث ونعلق ، وتسارعت الكلمات الى شفتي ، وكانت تدور في صدري الف شمس : وقلت لنفسي فجأة في بهرة من الفرح : « تلك هي التي تنقصني ! » لقد كان جهلي بمغامرات القلب الحقيقية كبيراً جداً حتى اني لم أفكر بان أقول « اني أتألم لغيابها » . كنت بحاجة الى حضورها لأتحقق من حاجتي اليها . وفجأة تناثرت المواضعات والتقاليد شظايا ، واستغرقني انفعال عجيب لم ينصّ عليه أي قانون . وتركت لنفسي أن تستخفها هذه الفرصة التي تفيض من جوانحي عنيفة نضرة كميّاه شلال ، عارية كتمثال جميل من الغرائب . وبعد أيام ، وصلت المعهد مبكرة ، فنظرت بشبه ذعر الى طاولة زازا وقلت في نفسي : « اذا حدث انها لن تأتي بعد أبداً لتجلس عليها ، أو انها تموت ، فاذا يكون شأنني ؟ » وصعقتني حقيقة جديدة : « لا أستطيع أن أعيش بدونها بعد الآن ! » وقد كان هذا مريعاً بعض الشيء : كانت تأتي وتروح بعيدة عني ، وكل سعادتي ووجودي كان بين يديها . وتصورت الآنسة كونتران ، مدرّستنا ، تدخل ذات لحظة وثوبها يكنس الارض فتقول لنا : « صلوا يا أولادي : إن رفيقتكم الصغيرة اليزابيت مايبيل ، قد دعاها الله اليه

في الليلة الماضية .» وقلت في نفسي : سوف أموت على الفور ! سأنسل من على طاولتي وأسقط على الأرض فائضة الروح . واطمأنت لهذا الحل ، لم أكن أعتقد حقاً ان نعمة إلهية ستترع مني الحياة ، ولكنني لم أكن أخشى كذلك خشية حقيقية موت زازا . بل لقد اعترفت بيني وبين نفسي بعلاقة التبعية التي تنشأ من تعلقي بها ، ولم أكن أجروء على أن أواجه كل نتائجها .

ولم أكن أطلب أن تستشعر زازا قبلي إحساساً نهائياً كهذا : فقد كان بحسبي أن أكون لها صديقة أثيرة . ولم يكن الاعجاب الذي أكنه لها ينتقص من قيمتي في عين نفسي . فان الحب ليس هو الحسد . ولم أكن أفكر بشيء في العالم أفضل من أن أكون أنا نفسي ، وأن أحب زازا .

القسم الثاني

انتقلنا الى مسكن آخر كانت أجرته أدنى من الاجرة التي كان يدفعها أبي للمسكن السابق . ولكن المنزل الجديد كان أضيق وأصغر ، وليس فيه حمام ولا تدفئة في الشتاء . وكانت الغرفة التي أنام فيها مع أخي من الصغر بحيث لم تكن إحدانا تستطيع ان تتحرك . وكانت أمي تستقبل الناس في المكتب وكانت تحدث أبي هناك أيضاً . وقد تعودت أن أكتب فروضي وأدرس دروسي في ضجيج الاصوات . وقد أخذت أنا وأخي نحسد الفتيات اللواتي تملك كل منهن غرفة خاصة بها . أما « لويز » ، فقد خطبت الى عامل فاجأته يوماً وقد أجلسها على ركبتيه في المطبخ . وبعد ان تركتنا لويز ، حلت محلها قروية شابة نضرة مرحة تدعى كاترين ... وكنت أعرفها من قبل حتى أنها كانت شبه رفيقة لي . ولكنها كانت تخرج مساء مع الاطفائين الذين كانوا يعملون في الثكنة المقابلة لبيتنا ، وكان الناس يقولون انها « تغامر » معهم . ولم تلبث أمي ان طردتها وعزمت على ان تستغني عن الخدم ، لا سيما وأن أشغال أبي كانت قد ساءت . وكان قد بدأ يعمل في « الاعلانات المالية » في بعض الصحف ، وكانت هذه المهنة تبعث لديه الضجر ولا تعود عليه الا بمال ضئيل . وكان يذهب مساء على سبيل التعويض ، ليلعب « البريدج » في المقهى أو لدى بعض أصدقائه . وكان يقضي أوقات فراغه صيفاً في ميدان السباق ، فتظل أمي غالباً

وحيدة ، ولم تكن تشكو من ذلك ، ولكنها كانت تكره القيام بعمل البيت ، وتشعر بأن الفقر يرهقها . ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت عصبية جداً . ولم يكن أبي وأمي يختصمان حقاً ، ولكنها كانا يتصاحجان بصوت مرتفع جداً من أجل أمور صغيرة ، وغالباً ما يعزوان السبب لي أو لأختي .

وقد خفت تعلقي بأختي منذ تعرّفت على زازا . وكانت صديقتي تسخر من الجميع ولا توفر « بوييت » وتصفها بأنها طفلة . وكنت أفلدها في ذلك . وقد استاءت أختي استياء شديداً حتى أنها حاولت ان تنفصل عني . وكنا ذات يوم في المكتب ، فقالت لي أختي بصوت فاجع ، وكنا قد تخاصمنا منذ دقائق .:

– اعترف لك باني أعتقد اني لم أعد أحبك كالسابق .

ثم شرحت لي عدم اكرأها بي ، وكنت استمع اليها والدموع تندرج على خدي . ولكنها سرعان ما قفزت وهي تقول :

– هذا غير صحيح ! هذا غير صحيح .

وأخذت تقبلي وتعانقني ، فبادلتها ذلك وجففت دموعي ، وقلت :

– الحقيقة اني لم أصدقك .

ولكن الواقع انها لم تكن تكذب . لقد بدأت ثور على وضعها بصفتها الصغرى ، وقد شملتني بثورتها لأنني كنت قد شرعت أتخلّسى عنها . وكان تشعر بأن والدي يهتان بي أكثر من اهتمامها بها . وقد شاءت يوماً ، في مصيفنا ب « ميريناك » أن تثبت ان ذاكرتها قوية ، فسردت لنا اسماء جميع الماريشالية في عهد نابليون ، وكانت قد حفظت لاثحتهم عن ظهر قلب . فابتسم ابي وأمي ، فاذا هي تحدجني بنظرة مغیظة ، كأنما تبحث عن نقائصي وعيوبي . وقد أغاظني حقاً ان تدعي أنها تساويني وتود أن تنافسني ..

وفي ذلك العام ، بدأت الكوايبس تعكر عليّ نومي . وقد حلمت

ذات ليلة بأن رجلاً يقفز على سريري ويغرق ركبته في معدتي ، فأكدت
أخنتق . ثم حدث ان كنت أصاب بضيق وانزعاج شديدين كلما نهضت
في الصباح ، وكنت أودّ لو أبقى غارقة في الظلام . وكنت أصاب
نهاراً بالدوار . وكانت أمي والطبيب يقولان : « ان هذه فترة التكوّن »
وكنت أكره هذه الكلمة ، كما كنت أكره ما يجري في جسمي :
وكنت احسد « الفتيات الكبار » على حرّيتهن ، ولكن كان ينفرني
كثيراً التفكير بأن بطني قد ينتفخ يوماً . وكنت قد سمعت بعض النساء
في الماضي يبولن بصوت يشبه صوت الشلال ... واذ كنت أفكر
بالقرب المملوءة ماءً والتي يحفظنها في بطونهنّ ، استشعر مثل ما استشعر
« جيليفر » من دعر يوم كشفت له بعض العملاقات عن نهودهن .
وأصبحت الكتب المحرّمة تخيفني أقل مما كانت تخيفني من قبل ، منذ
اكتشفت سرّها ، وكنت غالباً ما أترك بصري يتجوّل فوق قصاصات
من الصحف معلّقة في المراض . وعلى هذا النحو قرأت قسماً من
رواية متسلسلة كان بطلها يضع شفتين ملتهبتين على نهدي البطة الأبيضين ،
ولقد أحرقتني هذه القبة . ولقد تمثلتني ذكراً وأنثى وشاهدة ، فأعطيتها
وتلقيتها وملأت منها ناظري . وبقيناً أني اذا أحسست من ذلك مثل هذا
الانفعال الحيّ ، فلأن جسدي كان قد استيقظ ، ولكن أحلامه تبلورت
حول هذه الصورة . ولست أذكر كم مرة تذكرتها قبل أن أنام . وقد
اخترعت صوراً أخرى ، واني لاتساءل من أين أتيت بها . ولم يكن
علمي بان الزوجين ينمان في سرير واحد ، ويكادان يكونان عارين من
الثياب ، كافياً بان يوحى لي بأن هناك ضمماً أو ملاطفة : وانما
أفترض اني كنت اختلق ذلك بمحض حاجتي اليه . ذلك اني كنت
فترة من الزمن فريسة رغبات معذّبة ، فكنت أتقلّب في سريري ،
وقد جفّ حلقي ، منادية جسم رجل يحيط جسمي ، ويدي رجل
تلامسان بشرتي . وكنت أحسب بيأس : « لا حق للفتاة بان تتزوج
قبل الخامسة عشرة . » وكان عليّ أن أنتظر سنوات قبل أن ينتهي

عذابي . وكان هذا العذاب يبدأ لطيفاً لذيذاً وكانت
أوهامي وأشباحي تبعث في صدري خفقاً عذباً في دفء الفراش
واختلاج الدم فأحسب أنها ستتحقق فعلاً ، ولكنها سرعان ما كانت
تتلاشى : فليس ثمة يد واحدة ولا فم واحد ليهدثا جسمي الثائر ،
وهكذا يصبح قميص نومي ثوباً مسموماً . ولم يكن ينقذني من ذلك
كله الا النوم . ولم أكن أربط هذا الاضطراب بفكرة الأثم قطاً : فقد
كانت قسوته تفيض عن انبساطي ، وأشعر اني ضحية أكثر مني مجرمة .
ولم أكن أتساءل كذلك عما اذا كانت سائر الفتيات الصغيرات يعرفن
مثل هذا العذاب ، فاني لم أكن قد اعتدت ان أقارن بيني وبين
الآخرات .

وكنا نقضي فترة من الصيف لدى بعض الاصدقاء ، حين استيقظت
صباح يوم من ايام تموز ، مذعورة : كان قميصي ملطخاً ، وأسعدت
فغسلته ، ولكن ثيابي ما لبثت أن تلطخت من جديد . وكنت قد
نسيت تنبؤات مادلين الغامضة ، فأخذت أتساءل عن أي مرض خبيث
أصبت به . واستبدت بي القلق ، وأخذني شعور مبهم بأنني كنت شظينة
فهرعت الى أمي ، فشرحت لي اني أصبحت « فتاة كبيرة » ثم ربطت
بعض الحرق بين ساقى بطريقة مزعجة . على اني استشعرت عزاءً كبيراً
أن أفهم اني لم أكن خاطئة في شيء . بل ان شيئاً من الاعتزاز قد
استولى عليّ ، كما كان يحدث لي كلما كان يطرأ عليّ شيء هام .
واحتملت بلا انزعاج كبير أن أرى أمي تتهاوس مع صديقاتها . ولكني
على عكس ذلك ذبت خجلاً حين عدنا في المساء الى البيت فالتقينا
بأبي الذي أشار الى حالتي إشارة ضاحكة . فقد كنت تخيلت أن المجتمع
النسائي كان يحرص على ان يخفي عن الرجال عاهته الخفية . وكنت
أحسبني ازاء أبي روحاً صافية ، واستفظعت ان يعتبرني فجأة هيكل
عضوياً . وأحسنتني قد سقطت الى الأبد .

وما لبث وجهي ان تبشع ، واحمرّ أنفي ، ونبتت في وجهي
وعنتي بشور كنت أحكها بعصية . وكانت أمي التي أرهقها العمل
تهمل ثيابي ، فتزيد فساتيني المشوّهة من قلة اناقي . وكانت مخاوفي
الجنونية تنمو ما ازداد انزعاجي من جسمي : فلم أكن أحتمل مثلاً
أن أشرب من كأس كنت قد شربت منه . وكانت تأخذني بعض
التشنجات العصبية ، فلا أقطع عن رفع كتفي ولا عن فرك انفي
وكان أبي يردد قائلاً « لا تحكي بثورك . ولا تفركي أنفك ! »
وكان يتحدث عن بشرتي وعن بثوري وعن سخاوتي دون ما هوادة ،
فيزداد ضيقي وانزعاجي .

وجعلت ألاحظ أن صدري كفّ عن ان يكون كصدور الفتيات
الصغيرات ، واني أصبحت أحيّر بين الصبية والمرأة .

وما لبثت لياليّ طويلاً حتى استعادت هدوءها . على ان العالم حولي
أخذ يضطرب بطريقة لا توصف . وكان في الصف الذي هو فوق
صفي في المعهد طالبة كنت أنظر اليها على انها معبودة جميلة ،
شعراء باسمه موردة . وكان اسمها « مرغريت دو تريكور » وكان
أبوها يملك ثروة من أكبر ثروات فرنسا . وكانت تصحبها الى المعهد
وصيفة في سيارة فخمة سوداء يقودها سائق . وكانت تبدو
لي ، وهي ما تزال في العاشرة من عمرها ، أميرة صغيرة بشعرها
المصنّف وفساتينها المرتبة وقفازيها اللذين لم تكن تنزعها الا حين تدخل
الصف . ولقد أصبحت في تلك الفترة صبية جميلة ذات شعر ذهبي
أملس وعينين من البورسلين وبسمة عذبة . وكنت معجبة بطبيعتها
وتحفظها وصوتها الرصين المغني . وكانت سائر الطالبات يعبدنها لما
كانت تظهره لهن من احترام ولما كان يبدو لهن من بريق غناها :
وكانت تحدثني بكثير من اللطف ، وكان يقال ان أمها كانت مريضة
مزممة ، وهذا ما أحاط مرغريت بهالة روائية ... وكنت أحدث نفسي

بأنني سأتهاوى من الفرح اذا ما دعيتي يوماً الى بيتها ، ولكني لم أكن أجروء حتى على ان أتمنى ذلك : فقد كانت تسكن في أوساط هي في بعدها غني تماثل البلاط الانكليزي . والحق اني لم أكن أصبو الى علاقة حميمة معها ، وانما كنت أود لو أستطيع فحسب أن أتأملها عن كثب .
و حين أدركت سن البلوغ ، عمقت عاطفتي . وحضرت ذات يوم الامتحان النهائي للصف الاعلى ، وكانت مادلين ترتدي ثوباً جميلاً من « الكريب دو شين » كانت أكامه تشفّ عن ذراعين جميلتين في التفافهما : وقد اضطربت لهذا العري المحتشم ، وكنت من الجهل والاحترام المتحفظ بحيث أعجز عن التعبير عن اية رغبة ، ولم أتصوّر أن هناك يداً يمكن أن تدنّس يوماً هاتين الكتفين الناصعتين . غير اني طوال وقت الامتحان لم أنزع بصري عنها ، وكان شيء ما مجهول يشد على حنجرتي بالضيق .

وكان جسمي يتطور ، وكذلك حياتي : فلقد بدأ الماضي يتركني . وكنت أنفّرَج يوماً مع أختي على صور عائلية قديمة ، حين فطنت على أن ملك جدّي في «ميريناك» سوف يُفقد حين يموت ، وهو الآن في سن كبيرة ، ذلك ان هذا الملك سيحول الى عمي غاستون ، ولن أشعر آنذاك حين أزوره اني في بيتي حقاً ، وانما سوف أقصده كغريسة ، ثم أنقطع عنه . وهذا ما أبرمني . وكان أهلي يرددون ان مما يجمّل الحياة أن يكون فيها صداقات طفولية : أتراني أنسى يوماً زازا ؟ وكنا نساءل ، أختي بوييت وأنا ، عما اذا كان حبنا سيقوى على الدهر .

وكانت رتبة حياة الكبار تثير شفقتي دائماً : وحين أدركت أن هذه الحياة ستصبح عما قريب من نصيبي ، استولى عليّ الضيق . وكنت أساعد أمي ذات يوم في غسل الصحون : كانت هي تغسلها ، وأنا أمسحها ، وكنت أرى عبر النافذة ثكنة الاطفائيين ، ومطابخ أخرى

تفرك فيها النساء الاواني أو تقشر الخضار . الغداء والعشاء كل يوم .
وغسل الصحون كل يوم ... هذه الساعات التي تتكرر الى ما لا نهاية
والتي لا تفضي الى أي مكان : أتراني سأعيش هكذا ؟ وانطبت في
رأسي صورة بلغ من وضوحها أنني ما زلت أذكرها حتى اليوم : كان
يمتد صفّ من المربعات الرمادية حتى الأفق . وكانت هذه المربعات
تتناقص وفق قانون المنظور ، ولكنها كانت كلها متشابهة مسطحة :
كانت هذه هي الأيام والاسابيع والسنوات ، وقد كنت منذ ولادتي
أنام كل مساء وأنا أغنى قليلاً مما كنت في الليلة السابقة . كنت أرتفع
درجة درجة على هذا النحو ... ولكن اذا كان مفروضاً اني لن
أجد هناك الا سطحاً كثيباً ، من غير ما هدف أمشي اليه ، فما جدوى
الحياة ؟

وقلت لنفسي ، وأنا أصفّ الصحون في الخزانة ، ان حياتي لا بد
أن تفضي الى مكان ما . ومن حسن الحظ اني لم أكن مرصودة لحياة
عائلية بيتية . وكان ابي يقول لي ولاختي :

— انكما لن تتزوجا يا صغيرتي ... ذلك انه ليس لديكما مهر ،
ويجب أن تعملنا .

وكنت أوتر الى ما لا نهاية ان أمتهن مهنة على أن أتزوج ، وكانت
هذه الفكرة تفسح لي طريق الامل . فقد عرف العالم أشخاصاً عملوا
أشياء ، وسوف أعمل أنا الأخرى شيئاً ما . ولم أعرف ما هو بالضبط ،
فقد فكرت في عدة أشياء ، وداعبتني الرغبة في أن أمتهن الكتابة .
ولكن هذه المشاريع كانت تحتاج الى كثافة ، ولم أكن من الايمان بها
بجيت أواجه المستقبل بملء الثقة . وكنت أحمل سلفاً ثياب الحداد على
ماضي . وكنت قد فقدت طمأنينة الطفولة ، ولكني لم أربح شيئاً
بالمقابل . ولم تكن سلطة أهلي قد تراخت ، فكان احتمالها يصعب عليّ
ما ازداد حسبي النقدي تفتحاً . ولم أكن أجد فائدة لتلك الزيارات

أو لتلك الدعوات لتناول الطعام التي كانوا يعتبرونها اجبارية . وكانت
لأمي أفكارها التي لم تكن لتهم بأن تبررها ، وكانت قراراتها غالباً
ما تبدو لي اعتباطية . ولو أنها كانت تعاكسني كثيراً لدفعني إلى
الثورة . ولكنها كانت قليلاً ما تتدخل في شؤوني الهامة ، كدراستي
واختياري لصديقاتي ، وكانت تحترم عملي بل وحتى عطلي ولا
تطلب مني الا خدمات قليلة ، كأن أطحن البنّ ، أو أنزل سلّة
الايوساخ . وكنت قد اعتدت على الوداعة ، وكنت أعتقد ان الله كان
يطلب مني ذلك . وهكذا لم ينفجر النزاع الذي كان ينسبني تجاه أمي
ولكني كنت أحسّه مستكناً في ضميري . كانت تربيتها ووسطها قد
أقنعاها بأن أجمل أدوار المرأة انما هي الأمومة ، ولم تكن تستطيع
أن تمثل هذا الدور الا اذا مثلت انا دوري ، ولكنني رفضت بقسوة
أن أمثل دور الكبار . وكانوا قد طلبوا منا في « معهد ديزير » عشيّة
التناول أن نذهب فترتمي على أقدام أمهاتنا طالبات منهن الصنح ~~عمن~~
خطايانا . لم أمثل لهذا الطلب . بل اني أفنعت أختي حين أتى دورها
الا تمثل له . وقد أغضب ذلك أمي ، وشعرت بعصيانتي وبدأت توبخني،
وكنت آخذ عليها رغبتها في أن تضعني تحت تبعثها وأن تؤكد أن لها
حقوقاً عليّ . ثم اني كنت أغار من المقام الذي كانت تحتله في قلب
أبي ، لأن شغفي به لم يكن الا ليزداد ويعمق .

وكان تفوق أبي يملأ نفسي بحبه ، بالرغم من ان الحياة كانت
تزداد عقوقاً له . على ان ذلك لم يمنعني من أن أرثي له ، فقد كنت
أعتقد بأنه ضحية مصائب عظيمة غامضة ، وبأنه مغبون مظلوم . وكنت
أزداد تعلقاً به ما ظهر بمظهر المرح واللامبالاة ، وكان لا يكفّ عن
رواية القصص الطريفة وعن إلقاء النكات . وكان يقرأ لنا فيكتور
هوغو وروستان ، ويتحدث عن المؤلفين الذين يحبهم وعن المسرح وعن
أحداث الماضي الكبيرة ، وعن جملة من الموضوعات الرفيعة التي كانت

تزرعني من جو الأشياء اليومية العادية ، ولم أكن أتصور أن هناك رجلاً
أذكي منه . كانت له الكلمة الأخيرة في جميع المناقشات التي أشهدها ،
و حين كان يهاجم أشخاصاً غائبين ، يسحقهم سحقاً . وكان يكفي أن
يوافق على رأي من آرائي ، أو تصرف من تصرفاتي ، حتى أكون واثقة
من نفسي . وكان طوال أعوام لم يوجه لي إلا المديح . ولكنني خيبت
ظنه حين بلغت سن العقوق ، فقد كان يقدرّ الاناقة والجمال في النساء ،
وهو لم يكتف بأن لا يخفي عني خيبتة ، وإنما أصبح يولي أختي من
الاهتمام أكثر مما كان يوليها من قبل . وكان يشعّ فخراً حين كانت
تظهر متنكّرة بثياب « فاتنة الليل » . وكان يشرك أحياناً باستعراضات
يقيمها أحد أصدقائه فيشرك بها بوبيت أيضاً .

على ان غريمتي الحقيقية كانت أمي . كنت أحلم بأن تكون لي بأبي
علاقات شخصية ، ولكن حتى في المناسبات النادرة التي كنا نلتقي بها
وحدنا ، كنا نتحدث كما لو كانت أمي موجودة معنا . وكنت اذا
لجأت اليه ، في حال النزاع يجيني : « إفعلي ما تقوله لك أمك ! »
فشعرت بأنه غير مستعد للدفاع عني ، وبدأت أفقد بعض تعلقتي به
واعتبره غير معصوم عن الخطأ . ولعل هذا ما دفع بي الى أن أخفي
عن أهلي بعد ذلك ما كنت أحسب أنه لن يرضيهم اذا كشفته لهم .

٢

ظل أبي وأمي يراقبان مطالعاتي مراقبة دقيقة ، ولا يتركان بي
يدي باستثناء الكتب الادبية المتعلقة بالدراسة ، الا عدداً صغيراً من
المؤلفات المختارة ، وكانا غالباً ما يقصّان بعض الصفحات من هذه
الكتب . ولكنها لم يكونا يغلقتا المكتبة بالمفتاح ، واثقين من أمانتي ،
و كنت في أثناء العطل ، أستغرق في المطالعة ، وأسمح لنفسي

بأن أقرأ بعض الكتب التي كانا بمنعانا عليّ . وهكذا غامرت في دخول
الميادين المحرمة في المطالعة ... وقد تصنّعت يوماً اني أقرأ « ليالي »
موسيه ، ولكنني انتقلت من هذا الكتاب الى جميع مسرحياته ، وقرأت
« رولا » و « اعترافات في العصر » . وكنت كلما وجدتي وحيدة
في البيت ، أقرأ بحرية في جميع كتب المكتبة ، وأقضي ساعات عجيبة
وأنا جالسة في الأريكة الجلدية ، ألتهم الروايات التي سحرت شباب
أبي : روايات بورجيه ، ودوديه ، وبريفوست ، وموباسان وسواهم ،
ولقد أتمت هذه الكتب تربيتي الجنسية ، ولكن من غير انسجام كبير .
وكانت عملية الحب في بعض هذه الكتب تستمر ليلة بطولها ، وأحياناً
بضع دقائق ، وتبدو تارة تافهة لا طعم لها ، وتارة عظيمة شهوانية ،
وكانت تحتل تفاصيل ودقائق ظلّت مغلقة عليّ طويلاً . وقد عقّدت
الأمر في رأسي ما قرأته عن علاقات « المتمدنين » لفارير مع صبيانهم ،
وعلاقة كلودين مع صديقته « ريزي » . وبالآجال لم أكن أربط بين
هذه القصص وبين تجربتي الخاصة ، فقد كنت مدركة أنهم كانوا يصورون
مجتمعاً فاسداً في معظمه . ولم يكن في هذه المؤلفات ما يعرض عليّ
صورة للحب أو فكرة عن مصيري يمكن ان ترصيني ، ولم أكن أبحث
فيها عما ينبني عن مستقبلي ، ولكنها كانت كلها تمنحني ما كنت أطلب
منها : كانت تخرجني من جوّ محيطي . وكنت اذا ما خرج أهلي
في المساء أطيل الى ساعة متأخرة من الليل أفراح ذلك الهروب . فكنت
أقرأ بينما كانت أختي تنام متكئة على وسادتي . وما أن إسمع صوت
المنفتح يدور في القفل حتى اطفىء النور . وحين أفيق صباحاً وأرتب
سريري ، كنت أخفي الكتاب تحت الفراش منتظرة ان يتاح لي
اعادته الى مكانه . وكان من المستحيل على أمي ان تتنبّه الى هذه
المناورات ، ومع ذلك فقد كان يكفيني أحياناً أن أذكر أن كتاب
« أنصاف العنراوات » أو كتاب « المرأة والكركوز » ينامان تحت

فراشي حتى أرتعش من الذعر . ولم يكن في مسلكي ، على ما أعتقد أي شيء مستنكر : لقد كنت أتسلى وأتثقف ، لقد كان أهلي يريدون الخير لي ، ولم أكن أخالفهم ، لأن مطالعاتي لم يكن فيها شيء . ومع ذلك فقد كان يكفي لعمل ما من أعالي أن يذبح حتى يصبح عمل إجرام .

ومن عجيب المفارقات أن ما قذفني في هوة الخيانة ، انما هي قراءة مشروعة . وكان قد سبق لي أن شرحت في الصف كتاب « سيلاس مارنر » . وقبل ان أذهب الى العطلة الصيفية ابتاعت لي أمي كتاب « آدم بيد » . وكنت جالسة تحت شجر الصفصاف في حديقة القرية ، أقرأ الكتاب وأتبع بنفاد صبر تطور القصة البطيء . وفجأة قرأت ان البطلة - التي لم تكن متزوجة - وجدت نفسها حاملاً إثر نزهة في احدى الغابات . واذا بقلبي يخفق خفقات كبيرة : المهم ألا تقرأ أمي هذا الكتاب ! لأنها ستعرف آنذاك أنني كنت أعرف ، ولم أكن أستطيع تحمل هذه الفكرة . ولم أكن أخشى عقاباً ، فاني لا ملامة عليّ في ذلك ، ولكنني كنت أخاف خوفاً عظيماً ما عساه أن يخطر في بالها . فلعلها قد تجد من الواجب ان تتحدث إلي ، وتلك امكانية كانت ترعيني ، لأنني كنت أعرف مدى نفورها من مباشرة هذه الموضوعات التي كانت تصمت عنها صمتاً طويلاً . والحق ان وجود الفتيات - الامهات كان في رأبي أمراً موضوعياً لا يزعجني أكثر مما يزعجني وجود العالم الآخر ، ولكن معرفتي لذلك ستصبح عبر ضمير أمي ، فضيحة تلتخطنا نحن الاثنتين .

وبالرغم من ضيقي لم أر أن اخترع هذا الحل : الادعاء بأنني أضعت الكتاب في الغابة . فقد كانت إضاعة أي شيء ، حتى ولو كان فرشاة أسنان ، يسبب في البيت عواصف شديدة يستوي عندها في الخوف العلاج والمرض . ثم اني اذا كنت أمارس بلا وسواس التخفي

الفكري ، فلن أستطيع أن أطلق أمام أمي كذبة إيجابية ، لأنني كنت أخشى أن أخون نفسي باحمرار وجهي وتلعثم كلماتي . وكل ما فعلته أنني حاذرت ان يقع كتاب « آدم بيد » في يد أمي . ولم يخطر في بالها أن تقرأه . ولذلك وفرت علي تلك المشكلة .

وهكذا غدت علاقتي بأسرتي أشقّ مما كانت من قبل . ولم تعد أختي تحبني في غير ما تحفظ ، وكان ابي يجذني قبيحة ويغيظه ذلك وكانت أمي تحاذر هذا التبدل الغامض الذي كانت تلاحظه علي . ولو أن أهلي قرأوا ما في رأسي لحكموا عليّ ، وقد كانت نظراتهم تضعني في خطر بدلاً من ان تحميني كما كان يحدث في السابق . وقد هبطوا هم أنفسهم من منزلتهم في نظري ، ولم أفد من ذلك لأرفض حكمهم عليّ . بل على العكس ، فقد أحسنني مشبوهة بازدواج ، لقد كفت عن أن أقطن في مكان ممتاز ، كما أن مزيّتي قد تصدّعت . لقد كنت غير واثقة من نفسي ، وكنت قابلة للنقد . وقد كان من جراء ذلك ان تغيّرت علاقتي بالآخرين .

٣

كانت مواهب « زازا » تتوثق رويداً رويداً . فقد أصبحت تعزف على البيانو ببراعة ، بالنسبة لسنّها ، وبدأت تتعلّم العزف على الكمان . وكان خطّها في الكتابة يدهشي باناقته بينما كان خطي طفولياً ورديشاً ، وكان ابي معجباً بأسلوبها في رسائلها إعجابي به ، وكذلك حيويتها في الحديث . وكان يسليّه أن يعاملها باحترام ، فتردّ عليه ببراعة ، ولم تكن سنّ العقوق لتبشعها ، بل كانت لها حركات فتاة ناضجة بحسن لباسها وتسريح شعرها . على أنها لم تفقد جرأتها الصبيانية : فقد كانت في أثناء العظلة تمتطي الحصان عبر الغابات ، غير عابئة بما قد يقوم في وجهها من

عقبات . وقد قامت بزيارة لإيطاليا أخذت تحدثني عنها لدى عودتها ، وعن المباني والآثار والتماثيل واللوحات التي أحببتها . وحسدتها على الأفراح التي تذوقتها في بلد أسطوري ، وجعلت أنظر باحترام إلى الرأس الأسود الذي كان يخبي مثل تلك الصور الجميلة . وكانت تبهرني بجدتها وطرافتها . فبينما كان اهتمامي بالمعرفة أكثر من اهتمامي بالحكم ، ولذلك كنت أعنى بكل شيء ، كانت ، هي « زازا » ، تختار . كانت اليونان تسحرها ، وكان الرومان يضجرونها . وكان مصير نابوليون يبعث لديها الحماسة من غير ان تؤثر فيها مصائب الأسرة المالكة . وبينما كانت معجبة براسين ، كان كورناي يغيظها . ولقد عرفتها ابدأ ساخرة ، حتى انها اتخذت التهكم نظرية لها بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من عمرها . ولم تكن تكتفي بالاستهزاء بمعظم الناس ، بل كانت تسخر من العادات القائمة والأفكار المستجلبة . وقد جعلت كتاب « الامثال » للاروشفوكو كتاب سريرها ، وكانت تردد في كل لحظة انّ الفائدة هي التي تقود البشر . ولم أكن قد كوّنت عن البشرية أية فكرة عامة ، ولكن تشاؤها العنيد كان يفرض عليّ أن أتخذ فكرة ما . وكان كثير من آرائها هداً مخرباً . وكانت جرأها تستثير غضب بعض المعلمين ، بينما كان بعضهم الآخر يعزوها إلى حداثة سنّها ويتسلّى بذلك . وكان مركزي في الترتيب قبلها ، حتى في اللغة الفرنسية التي كنت أتفوق بها عليها من حيث « المضمون » ، ولكنني أظنّ انها كانت تحتقر المركز الأول . وكان يقال إن لها شخصية متميزة ، وكان هذا امتيازها الأكبر . وكنت أرى فيها حضوراً متدفقاً كأنه الينوع ، صلباً كأنه كتلة من العاج . وكنت أفرانها بما كان لديّ من فراغ داخلي ، فأستشعر احتقاراً لنفسني . وكانت زازا تضطرنني إلى هذه المقارنة ، لأنها كانت توازي دائماً بين حماستي وعدم اكترائها ، وبين نقائصها ومزاياي التي كانت تهزأ بها . حتى أنا ، لم أكن بمنجى من سخرياتها .

وكنت أقول لنفسي بجزن : « ليست لي شخصية » . كان فضولي يتجه إلى كل شيء ، وكنت مؤمنة بمطلق الحق وبضرورة القانون الاخلاقي ، وكانت أفكارني تتناسق وموضوعاتها ، وكنت اوثر الافضل على الخير ، والشر على الأسوأ ، وأحتقر ما كان يستحق الاحتقار . ولم أكن ألحظ أي أثر للذاتية في الحكم . لقد أردتني من غير حدود، وكنت من غير شكل ، كاللامحدود سواء بسواء . وكنت أحب « زازا » إلى حد أنها كانت تبدو لي أكثر حقيقةً مني : كنت سلبها . على اني كنت أرفض أن أكون « زازا » لو عرض عليّ ذلك . فأنا أفضل أن أملك العالم على أن أملك وجهاً ، وكنت مقتنعة بأنني وحدي كنت افلح بأن أكتشف الواقع من غير أن اشوّهه أو ازيّنه .

وكانت « زازا » ثالثة أولاد أسرة « مايل » ، وكانت أمها تعتبرها صورة لها وكانت هي تفضل أمها على أبيها . وقد علمت منها أنها فهمت قبل الأوان أن أمها قد كرهت أباهما منذ الليلة الأولى من زواجهما ، وانها بسطت هذا النفور على اسرة زوجها برمتها . وبالرغم من أن الاب أراد لزازا أن تدرس الرياضيات ، فقد اختارت الأدب .

ولم تكن زازا تحترم نفسها ، ولكنها لم تكن كذلك تحترم الآخرين . وكانت تلتمس في السماء ما ترفض الأرض أن تقدمه لها . كانت شديدة التقوى ، وكانت تعيش في محيط أكثر انسجاماً من محيطي ، إذ كانت القيم الدينية مؤكدة بالاجماع وبحماسة . وكانت اسرتها تقصد « لورد » كل عام في موسم الحج الوطني . وكان الحديث غالباً ما يدور في محيطهم عن الله والاحسان والمثل الأعلى . ولكن زازا أدركت بسرعة أن هؤلاء الناس لم يكونوا يحترمون إلا المال والمظاهر الاجتماعية . ولقد أثارها هذا النفاق ، فاحتمت منه بنوع من الجرأة الوقحة . وبالرغم من صداقتنا الحميمة ، فاننا لم نكن نرفع الكلفة بيننا ،

وكنت أعرف انها أقل تعلقاً مني بها . صحيح انها كانت تؤثرني على سواي من الرفيقات ، ولكن الحياة المدرسية لم تكن لتهمها كما تهمني وكنت أجهل أي مركز كانت تمنحني في حياتها ، وهي الحريصة على اسرتها ومحيطها وعطلها المدرسية . وكانت الرسائل التي نتبادلها تقليدية جداً ، ولم تكن احدانا تصارح الأخرى بأي عاطفة تكنها لها . وكانت أمها وأمي تقرأن رسائلنا ، ولم تكن هذه الرقابة تسمح بتدفق العواطف الصميمية . ومهما يكن من أمر ، فقد كان وجود زازا مغلقاً باحكام حتى انه لم يكن لي فيه مكان ، وكان هذا يحزني ويقلقني ، ولم أكن أدري ما إذا كان هذا الشعور صحيحاً ام مبالغاً فيه .

٤

كان معظم الفتيان الذين كنت أعرفهم يبدون لي محدودين مزعجين مع علمي انهم كانوا ينتمون إلى فئة ذات امتياز . وكنت مستعدة للرضوخ لتأثيرهم بمجرد ان يكون لديهم بعض السحر أو الحيوية . وكان أشدهم تأثيراً عليّ ابن عمتي جاك ، الذي كان يسكن مع أخته ومع خادمة عجوز في شارع « موتبارناس » ، وكان يأتي غالباً فيقضي الامسية عندنا . وكان قد اكتسب ، وهو بعد في الثالثة عشرة ، مزايا شاب ناضج . وقد لاحظت ان استقلاله في حياته وسلطته في المناقشات قد جعلاه منه رجلاً كبيراً ، ورأيت من الطبيعي ان يصفني بابنة خاله الصغيرة . وكنا نسرّ كثيراً ، أنا واخوتي ، حين كنا نسمع طرقة عليّ الباب . وقد وصل ذات مساء في ساعة متأخرة جداً ، حتى اننا كنا قد أوينا إلى فراشنا ، فهرعنا إلى المكتب ونحن بقميص النوم :

فقلت أُمي :

— ما هذا ؟ إن ذلك ليس من اللائق ، فقد أصبحتما كبيرتين !

فدهشت من هذا . لقد كنت اعتبر جاك كأنه أخٌ لي . وكان يساعدني في ترجمة فروضي اللاتينية ، وينتقد اختياري لأنواع المطالعة ، ويلقي عليّ الأشعار . وقد أنشد ذات مساء ، ونحن على الشرفة ، قصيدة « حزن اوليمبو » ، فذكرت ، والغصة في قلبي ، اننا كنا مخطوبين أما الآن ، فلم يعد يعقد الأحاديث الحقيقية الا مع ابي .

وكان جاك طالباً خارجياً في كلية « ستانيسلاس » حيث كان تلميذاً لامعاً . وكان يعرف عدداً من الشعراء والكتّاب كنت أجهل عنهم كل شيء . وكان إذا دخل البيت يدخل معه ضجيج عالم مغلّق بالنسبة لي وكنت اودّ لو انفذ اليه !

وكان أبي يقول :

– إن لسيمون عقل رجل . إن سيمون رجل !

ومع ذلك ، فقد كانوا يعاملونني كفتاة . ولقد كان جاك ورفاقه يقرأون الكتب الحقيقية . فيقفون على مجرى المشاكل الحقيقية ، ويعيشون تحت سماء مفتوحة : أما أنا ، فقد حشروني في غرفة ضيقة . غير انني لم أياس ، فقد كنت واثقة من مستقبلي . كانت هناك نساء قد شققتن لانفسهن طريقاً في عالم الرجال ، إما بالمعرفة أو بالموهبة . ولكني كنت نافذة الصبر بسبب ما يفرضونه عليّ من قيود توخرنني . وحين كان يتفق لي ان أمرّ امام كلية « ستانيسلاس » كان قلبي ينقبض إذ أذكر السرّ الخفي الذي يحتفلون به خلف تلك الجدران : قاعة درس للصبيان ..

وكنت أشعر انني منفيّة . وقد كان لهم أساتذة لامعون في ذكائهم ، وكانوا يمنحونهم المعرفة في اشراقها الذي لم يُمس . أما معلماتنا المسنات ، فلم يكنّ يعطينها إيانا إلاّ مبتورة قد ذهب رونقها .. لقد كنّ أغنى بالفصائل منهن بالشهادات . وقد فكر أبي بان ينقلنا من معهد « ديزير » إلى معهد آخر ، وكنت أودّ ذلك أنا أيضاً . ولكني رفضته حين ذكرت اني بذلك سأنفصل عن « زازا » . وقد أيدتني أمي في ألاّ أتركه .

وظللت أعمل فيه بجدّ ، وبدأت أشارك زازا وبعض الرفاق في الاستهزاء بمعلمتنا . وكانت الناظرات يفشلن في إشاعة الهدوء بيننا ، لاسيما بعد أن أسست اختي مع بعض زميلاتها صحيفة يومية مدرسية كنا نشارك في تحريرها وننشر فيها انتقادات قاسية لهاتيك الآنسات السخيفات .

وكان من عادة معهد « ديزير » ان يمنح في شهر آذار من كل عام امتيازات وأوسمة مكافأة للمجليات في كل مادة . وكان هذا الاجتماع يقام في قاعة « واغرام » الفخمة . وقد ذكر اسمي ذلك العام بصفتي مجلية في الرياضيات والتاريخ والجغرافيا . وبعد انتهاء الحفلة ، اقتربت معلمة التاريخ من أمي لتبلغها بأن تأثير زازا عليّ كان تأثيراً سيئاً طوال العام ، وانه ينبغي الا يتركوني أجلس إلى قربها أثناء الدرس . وطفرت الدموع إلى عيني ، وأحسستني أختنق من الغضب لرغبتهم في إبعادي عن زازا . ولكن حزني كان أعمق . فقد تحققت وأنا في ذلك الممر الكئيب ان طفولتي قد انتهت ...

ولم أعد اسيطر على العالم ، وكانت واجهات المباني تنفيني ، وكذلك أنظار المارة اللامبالية . من أجل هذا اتخذت حبي للريف الوائناً صوفية . فما ان أصل إلى « ميريناك » حتى تنهار الجدران ويتراجع الأفق . وكنت أضيق في اللانهاية فيما أظلّ أنا نفسي . وكنت أحسّ على جفني حرارة الشمس التي تشعّ من أجل الجميع والتي لا تداعب ، في تلك اللحظة ، الاّني . وكانت الريح تدور حول الصفصاف ، آتية من كل مكان ، تتدحرج في الفضاء ، فاذا أنا في دوامة تنقلني حتى آخر تخوم الأرض ، وأنا جامدة في مكاني . وحين كان القمر يرتفع في السماء ، كنت أتواصل مع المدن البعيدة والصحارى والبحار والقرى التي كانت تستحمّ في نوره . ولم أكن بعد ، آنذاك ، ضميراً تائهاً أو نظراً مجرداً ، وانما كنت رائحة القمح الاسود ، ونكهة العشب الصميمة وحرارة الجنوب أو ارتعاشه الاصيل : كنت أحسّني ثقيلة ، ومع ذلك

فقد كنت أتبحر في الأفق ، من غير ما حدود .

لقد كانت تجربتي البشرية قصيرة ، ولم أكن أدرك منه كل شيء .
بسبب ضعف الإنارة أو بسبب شرود الكلمات . كنت أعجب بوحدة
السنديانة الرائعة وعزلتها وهي التي تشرف على الحديقة كلها، وكنت
أحزن لعزلة اطراف العشب . ولقد عرفت الأصباح البكر ، والكآبة
الغسقية ، والانتصارات والانحدارات والانبعاثات والاحتضارات ... وكانت
تدمدم في البراري الجامدة ، منذ الصباح حتى الليل ، حياة متجددة.
ابداً . وكان يكفي ان أذهب ، حتى ينحلّ المشهد وينعدم وجوده
للجميع ، بل ينعدم على الاطلاق .

ومع ذلك ، فقد كنت احسّ هناك وجود الله حولي أكثر مما كنت
أحسه في باريس . وكنت كلما التصمت بالارض ازددت قرباً منه ،
وكانت كل نزهة صلاة عبادة له . ولم تكن سيادته لتتزع مني سيادتي .
كان يعرف كل الاشياء على طريقته . اي بصورة مطلقة : ولكن كان
يخيّل اليّ انه كان على نحو ما بحاجة إلى عينيّ لتكون للأشجار ألوانها .
وحرقة الشمس ، ورطوبة الندى ، أنثى لذهن مجرد ان
يحسّها إلاّ عبر جسدي ؟ لقد جعل هذه الأرض للبشر ، وجعل
البشر ليشهدوا بجمالها : وانّ المهمة التي شعرت ابدأ اني مكلفة بها ،
انما اعطاني هو إياها . وقد كان بذلك يؤكد سلطاني ، ولا يسقطني من
عرشي . وحين كنت في الصباح اجتاز الحواجز عدواً لأوغل في الغابات
فانما كان هو الذي يناديني . وكان ينظر اليّ بغبطة وانا انظر إلى هذا
العالم الذي خلقه لأراه .

وكنت أنفر من العودة إلى المدى المغلق ، وإلى زمن الكبار ، حتى
ولو كان الجوع يرهقني ، حتى ولو كنت منهوكة القوى من القراءة
والاجترار . وحدث ان نسيت نفسي ذات مساء . وكان هذا في «الغريب»
وكنت قد قرأت طويلاً ، عند ضفة مستنقع ، في قصة القديسة فرانسوا .

حتى إذا جاء الغسق ، أغلقت الكتاب ، وجعلت وأنا مضطجعة على العشب أتأمل القمر الذي كان يلمع على الجبل وقد بلّته أولى دموع الليل : ولقد كادت عذوبة تلك الساعة تختفي من التأثر ، فوددت لو أتاولها بين يدي وأثبتها بالكلمات على الورق ، وكنت أقول في نفسي : ستكون هناك ساعات أخرى ، ثم أتعلّم ان احفظها . وحين عدت إلى البيت ودخلت قاعة الجلوس ، استقبلي أهلي بالاستنكار . وأصدرت أمي قراراً ، على سبيل العقاب ، بأنني لن أتجاوز بعدُ باب الحديقة ، ولم أكن أجروء على العصيان بعد ذلك . وقد قضيت النهار جالسة في الحديقة ، أو كنت أذرع الممرات جيئةً وذهاباً داخل حدوده ، والكتاب في يدي ، والعاصفة في صدري . وقد كانت مياه المستنقع هناك تتجدد وتنشط ، وكان النور يشعّ مغتاضاً ثم يعذبُ ، بدوني ، بدون شاهدين . وكان هذا لا يُحتمل ، وكنت أقول لنفسي : « لو كانت السماء قد أمطرت بالأمس ، لكانوا على حق في ان يغضبوا . » ولكنني وجدت في صدري تلك الثورة التي كانت تشجعني في الماضي تعود إليّ الآن نابضة لم تُمس . لقد كانت كلمة واحدة تلقى على غير ما هدف كافيةً لتضع حدّاً لفرحة كبيرة ، لامتلاءة نفسية . ولم يكن هذا الكبت للعالم ، ولي أنا نفسي ، ليخدم احداً ، أو ليفيد شيئاً . ومن حسن الحظ أن هذا الحرمان لم يتكرّر . وأصبحت حرّة في أن اتمتع بأوقاتي شريطة ان أدخل البيت باكراً في ساعة العشاء .

وقد وفّرت عليّ أوقات العطلة ان اخلط بين مباحج التأمل والملل . وقد كان يحدث لي في باريس ان أغشّ في المتاحف ، وكنت على الأقل أعرف الفرق بين الاعجاب المقتسر والانفعالات الصادقة . وقد تعلمت أيضاً ان على من يود ان ينفذ إلى سرّ الأشياء ان يهب نفسه لها أولاً . وقد كان فضولي ، في العادة ، شرهاً . وكنت أحسبني امتلك الشيء بمجرد ان أعرفه ، وأعرفه بمجرد ان أطير فوقه . أما في القرية ، فقلد

كان التآلف مع ركن من أركانها يقتضي أن ارود يوماً بعد يوم في الدروب الجوفاء ، وان ابقى ساعات طويلة مسمرة عند قدم شجرة : وإذ ذلك تمسني ادنى ارتجافة للنسيم ، وكلّ لون من الوان الخريف . وقد كان يسوءني أن أعود إلى باريس . وكنت اخرج إلى الشرفة ، فلا أرى غير السقوف ، وتتقلص السماء إلى مكان هندسي ، ويكفّ النسيم عن أن يكون عطراً أو ملامسة ، ويمتزج بالفضاء العاري . ولم أكن اتجاوب مع ضجيج الشارع ، وكنت أبقى هناك ، فارغة القلب ، وفي عيني الدموع .

٥

وكنت إذا ما عدت إلى باريس أقع من جديد تحت سطوة الكبار . وكنّت أمضي في قبول نظرتهم للعالم من غير ان انتقدها . وليس في الامكان تصور تعليم أشدّ تعصباً من التعليم الذي كنت أتلقاه . فالكتب المدرسية والمؤلفات والصفوف والمحادثات ، كل ذلك كان يلتقي عنده . ولم يُترك لي قط ان استمع ولو من بعيد إلى صوت جرس آخر . وتعلّمت التاريخ في مثل الوداعة التي تعلّمت بها الجغرافيا ، من غير أن أشك في انه قابلٌ مثلها للمناقشة . وقد انفعلت ، وأنا صغيرة ، في متحف « غريفين » أمام منظر الشهداء وقد دُفعوا إلى الأسود ، وأمام وجه ماري أنطوانيت النبيل . وبدا لي الأباطرة الذين عذبوا المسيحيين يجسّدون « الشر » أبشع تجسيد . على اني كنت أكثر اهتماماً بمصير بلادي : ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وكان هذا كله يثير في البيت أحاديث ومناقشات ، وكان أبي واصدقاؤه مجتمعين على ان وجود أية دولة أجنبية يعتبر خطراً داهماً ، وان فرنسا تسير نحو الهلاك بسبب انها ضحية مثالية ولسون المجرمة ، وانها مهددة في مستقبلها بواقعية الألمان

والبولشفيك .. بل ان الحضارة كلها في طريق الانهيار . والحق ان أبي الذي كان بسبيل ان يأكل رأسه كان يرصد البشرية كلها للدمار ، وكانت أمي توافقه على ذلك . فقد كان هناك الخطر الأحمر ، والخطر الأصفر ، وبعد حين من الزمن ستندفق من تخوم الأرض ومن أحط طبقات المجتمع بربرية جديدة ... وكان أبي يتنبأ بهذه المصائب في حماسة مندفعة كانت تؤلني : فان هذا المستقبل الذي كان يرسمه بهذه الالوان الفظيعة انما هو مستقبلي ، وقد كنت أحب الحياة ولم أكن أطيق أن تتحول غداً إلى انتحاب بلا أمل . وذات يوم ، بدلاً ان أدع لتلك الموجة من الكلام الكاسح ان تمرّ فوق رأسي ، اخترعت هذا الجواب فقلت لنفسي : « مهما يكن من أمر ، انهم رجال سيربحون » . وان من يسمع أبي يحسب أن هناك شياطين تستعد لتحطيم البشرية . ولكن لا : فقد كان هناك ، في المعسكرين ، رجال يتجاهون ، وقد فكرت في أن الأكثرية هي التي ستتغلب في آخر المطاف ، وسيؤلف المستاءون الأقلية ، وليست هناك كارثة في أن تنتقل السعادة من يدٍ إلى أخرى .

وهكذا اكتشفت ضد اليأس مخرجاً لأنني بحثت عنه بحمية . ثم اني لم أكن اقرّ ان يكون واقع خام ، كالثروة مثلاً ، كافياً لتأسيس حق أو اعطاء ميزة . إن الانجيل يمتدح الفقر . وقد كنت أشدّ احتراماً للويز مني لعدد كبير من السيدات الثريات . وكان يغيظني أن ترفض ابنة عمي مادلين أن تحيي الخبازين الذين كانوا يأتون صباحاً في العربة ليسلموها خبزها ، وكانت تقول : « يجب أن يبدأوني هم بالسلام ! »

لقد كنت أو من بمساواة البشر المطلقة . وبدأت أشعر بالظلم الذي يتعرض له البؤساء من الناس . وقد ذهبت يوماً ، بصحبة امي لزيارة « لويز » التي كانت تسكن مع زوجها في غرفة ضيقة بالطابق السادس

من احدى البنيات . وكانت لويز قد وضعت ذلك اليوم طفلها الأول الذي رأيناه فوق سرير صغير في تلك الغرفة التي كانت لويز تنام فيها وتطبخ وتأكل وتعيش مع رجل ضمن اربعة جدران . وقد شعرت بان الحياة هناك تشبه أن تكون احتضاراً بطيئاً ؛ وعلمت بعد فترة قصيرة ان لويز فقدت ابنها ، فبكيّت طوال ساعات : لقد كانت هي المرة الأولى التي أواجه فيها الشقاء . وجعلت أتمثل لويز في غرفتها دون ما فرح محرومة من ابنها ، محرومة من كل شيء ، وأخذت أقول في نفسي : « ان هذا الظلم فظيع ! » ولم أكن أفكر فقط بالطفل الذي مات ، بل بالغرفة الصغيرة في الطابق السادس . وقد جففت دموعي من غير ان أتهم المجتمع بشيء :

وكان اهتمامي بالقضايا البعيدة ، سياسية كانت أم اجتماعية ، دون اهتمامي بالمشكلات التي تعني : الأخلاق ، حياتي الداخلية ، علاقاتي بالله .

وقد بدأ تفكيري حول هذه الموضوعات .

٦

كانت الطبيعة تحدثني عن الله ، ولكنه كان يبدو لي دون شك غريباً على العالم الذي يضطرب فيه البشر . فكما أن البابا في داخل الفاتيكان ليس له ان يهتم بما يجري في الدنيا ، فان الله ، في لانهاية السماء ، لا ينبغي له أن يهتم بتفاصيل المغامرات الأرضية . وكانت تقواي تتطهر من سنة إلى سنة فيما هي تقوى ، وكنت أحقر تفاهات الأخلاق لصالح الصوفية . وكنت أصلي وأتمل واحاول أن يفعل قلبي بحضور الله . ولكن في الواقع بينما كنت أرتفع فكريباً إلى المعرفة يوماً بعد يوم ، لم أكن أشعر بأنني أقرب من الله . وكنت أتمنى ان يتجلى لي الرب ،

أو أن تأخذني نشوة أو أن يحدث فيّ أو خارجاً عني شيء ما : ولكن لم يحدث شيء .

وكنت قد اعتدت منذ السابعة ان اعترف مرتين في الشهر أمام الاب مارتان ، وكنت أحدثه عن حالاتي النفسية ، وأتهم نفسي بأنني قد تناولت القربان من غير حماس ، وصلّيت من أطراف شفتي ، ونادراً ما فكرت بالله . وكان يجب على هذه النقائص بعضة ذات أسلوب رفيع . ولكنه ذات يوم أخذ يحدثني بلهجة مألوفة ، بدلاً من أن يتقيد بطقوسه المعهودة :

— لقد بلغ سمعي ان صغيرتي «سيمون» قد تغيّرت ، فغدت غير مطيعة ، عفرينة ، تجيب حين يوبّخها أهلها ... ولا بدّ من الانتباه لهذه القضايا بعد الآن !

والتهبت وجنتاي ، فأخذت أنظر بذعر إلى الدجّال الذي كنت اعتبره طوال سنوات ممثل الإلهة : فاذا ثوبه الكهنوتي ليس إلاّ لباساً تنكّرياً ... وتركت كرسيّ الاعتراف ، ورأسي من نار ، عازمةً على ألاّ أعود إليه أبداً . وحين كنت أرى في الممرّ جبهته السوداء ، بعد ذلك ، كان قلبي يخفق فأفرّ منه . ومنذ ذلك اليوم تمت القطيعة بيننا . ولكن الله خرج من هذه المغامرة دون أن يُمسّ ، إذ اني رحّت أفْتَش عن كاهن آخر لا يفسد بالكلمات البشرية المندّسة الرسالات التي ترد من فوق . وجربّت كاهناً أحمر الشعر ، ثم جربّت آخر أسمر نجحت في ان أجعله يهتمّ بحالتي الروحية ... ولكن تبين لي آخر الأمر انه لم يكن هناك انسان واحد يجسّد الله حقاً ، واني كنت وحدي تجاهه ، وانه بقي في أعماق قلبي حيرة وقلق : من عساه يكون ؟ وما الذي يريده تماماً ؟ وفي أي معسكر هو ؟

لم يكن أبي من المؤمنين ، وكان خير المفكرين يشاطرونه تشكّكه ، وإن الذين يقصدون الكنائس هم بالاجمال من النساء . وبدأت أشعر ان

من المفارقة التي تبعث على الاضطراب ان تكون الحقيقة من امتيازات النساء ، في حين ان الرجال ، من غير مناقشة ممكنة ، يفوقونهن . وفي الوقت ذاته ، كنت أفكر بأنه ليس ثمّة بلاء أكبر من أن يفقد المرء إيمانه ، وكنت أحاول غالباً أن أتفادى هذا الخطر . ومع هذا ، فقد أخذت أتق بأن القضايا الدينية لا تقنع إلاّ المقتنعين !

و ذات مساء ، كنت مرتفقة نافذتي في بيتنا بـ « مارينيك » ، كعادتي كل مساء . وكنت قد قضيت النهار كلّهُ وأنا آكل التفاح المحرّم وأقرأ ، في كتاب ممنوع لبلزك ، قصة غريبة لرجل ولبوءة ، وقبل أن أنام ، جعلت أروي لنفسي حكايات عجيبة احسستني منها في حالات غريبة ، وقلت لنفسي : « تلك هي آثام » . وكان مستحيلاً عليّ أن أمضي إلى أبعد من ذلك في غشّ نفسي : فان العصيان المستمر الموصول ، والكذب ، والاحلام غير الطاهرة ، كل ذلك لم يكن من التصرفات المسلكية البريئة : وغمست يديّ في الماء ورحت استمع إلى خريره ، وأدركت أن شيئاً لم يكن يستطيع ان يصرفني عن المباحج الأرضية ، وقلت في نفسي : « لم أعد اومن بالله . » قلت ذلك من غير دهشة كبيرة ، وكان هذا بديهياً . فلو كنت قد آمنت به ، لما ارتضيت بهذه السهولة أن أجرحه . لقد كنت فكرت دائماً بأن هذه الدنيا لا قيمة لها إزاء قيمة الآخرة الخالدة . ولكن ها هي ذي تنزّن الآن ، ما دمت أحبّها ، وها هو الله فجأة ليس له وزن . ومعنى ذلك ان اسمه لم يعد يدلّ إلاّ على سراب . كانت الفكرة التي كوّنتها عنه قد صفت منذ وقت طويل وارقت حتى فقد كلّ وجه ، وكلّ صلة حسّية بالأرض ، وحتى الوجود ذاته . لقد كان كماله ينفي حقيقة وجوده . ومن أجل ذلك ، لم أحسّ بالمفاجأة حين لمست غيابه من قلبي ومن السماء . وأنا لم أنكره لأتخلّص من مضايق لي ، بل على العكس ، فلقد لاحظت أنه لم يعد يتدخل في حياتي ، وخرجت من ذلك بأنه كفّ عن أن يوجد .

بالنسبة لي .

وكان تشكك أبي قد فتح لي الطريق ، فلم انغمر وحدي في مغامرة خطيرة ، بل لقد أحسست عزاءً كبيراً في أن أجدني ، وقد تحررت من طفولتي ومن جنسي ، متفقة مع الافكار الحرة التي كنت أعجب بها .

على أن وجه العالم قد تغير تحت ناظري . فقد شعرت في الأيام التي تلت ، إذ كنت جالسة تحت شجر الصفصاف الفضي ، فراغ السماء ، وانتابني من ذلك الضيق . لقد كنت في الماضي أعيش وسط لوحة حية اختار الله نفسه ألوانها وأضواءها ، وكان كل شيء يدمدم لمجده وعظمته . وفجأة ، صمت كل شيء . وأي صمت ! لقد كانت الأرض تدور في حيز لا تنفذ منه أي عين ، ووسط الاثير الأعمى ، كنت وحدي ضائعة على سطحها العظيم : وحيدة . لقد فهمت للمرة الأولى معنى هذه الكلمة الفظيعة . وحيدة : بلا شاهد ، ولا محدث ولا من ألجأ اليه . إن نفسي في صدري ، ودمي في عروقي ، وهذا الخليط في رأسي ، إن ذلك كله غير موجود بالنسبة لأحد . ونهضت وأخذت أعدو نحو الحديقة لأجلس بين أمي وعمتي مرغريت لشدة حاجتي إلى أن اسمع الأصوات .

ولم أفكر في أن اطلع ابي على ما في صدري ، ولو قد فعلت لرميته في ارتباك عظيم . وإذن ، فقد حملت سرّي وحدي ووجدته ثقيلاً ، وللمرة الأولى في حياتي أخذني الشعور بأنّ الخير لا ينسجم مع الحقيقة . ولم أستطع ان امتنع عن ان ارى نفسي بعيون الآخرين - أمي ، زازا ، رفيقاتي ، وحتى الراهبات - وعيون هذه الأخرى التي كنتها من قبل . وكنت قد عرفت في السنة الماضية في صف الفلسفة فتاة طويلة كانوا يتهامسون بأنها « غير مؤمنة » . وكانت تدرس جيداً ، ولا تتكلم كلاماً في غير محلّه . ولم يطردوها من المدرسة ، ولكني كنت

أشعر بلون من الرعب حين كنت ألمح في الممرات وجهها الذي كان يزيد إقلاقاً ان إحدى عينيه كانت من الزجاج . وها قد أتى دوري لكي أحسني عنزة جرباء . وكان ما يزيد في حالي خطورة اني كنت أتخفى : كنت أذهب إلى القداس ، وأتناول القربان ، وألتهم خبز الذبيحة من غير اكثراث ، وكنت مع ذلك أعلم اني كنت في نظر المؤمنين ارتكب خطيئة مميتة . والحق اني كنت إذ أخفي جريمتي أضاعفها ولكن كيف لي أن اعترف بها ؟ لو فعلت ذلك لاشاروا إلي بالاصابع ، ولطردوني من الصف ، ولخسرت صداقة زازا ، ولثارت في قلب أمي فضيحة وأية فضيحة ! لقد حُكم عليّ بأن أكذب ، ولم يكن هذا بالكذب البسيط : لقد كان يلطّخ حياتي كلها ، وكان يثقل عليّ أحياناً كأنه عاهة ، ولا سيما إزاء زازا التي كنت معجبةً باستقامتها وصدقها . وغدوت من جديد ضحية سحر لم أنجح في طرده عني :

لم أفعل شيئاً رديئاً ، وكنت مع ذلك أحسني مجرمة . وكان عليّ ان ارد للأب « رولان » كتاباً دينياً كان قد أعارنيه . وحين دخلت عليه في الكنيسة ، جثوت أمام كرسي الاعتراف وصارحته بأنني ابتعدت منذ بضعة أشهر عن تناول القربان لأنني فقدت إيماني . وحين رأى الأب الكتاب الذي بين يديّ ، قاس المسافة التي سقطت من أعاليها ، فأخذ العجب وتساءل بقسوة :

— أي خطيئة فظيعة قد ارتكبت ؟

فاحتججت على ذلك ، ولم يصدقني ثم نصحني بأن أصلي كثيراً . وعزمت على ان أعيش منفيّة .

وقرأت في تلك الفترة رواية عكست لي صورة منفاي : « الطاحونة على الفليس » لجورج اليوت : وقد قرأتها بالانكليزية في بيتنا بمارينياك وأنا مضطجعة على العشب . وكانت بطلّة الرواية سمراء تحب الطبيعة والقراءة والحياة ، وكانت من التلقائية والصدق بحيث لم تكن لتراعي

المواضعات التي كان وسطها يحترمها ، ولكنها مع ذلك كانت تتأثر كثيراً بما كان يوجهه لها من عتاب أخوها الذي كانت تعبه . وهكذا كانت « ماغي توليفر » مقسمة مثلي بين الآخرين وبين نفسها . : ولقد عرفتني فيها . والذي أثار في كثيراً صداقتها لشاب أحذب كان يعبرها الكتب ، وتمنيته وأنا اقرأ الرواية لو تتزوجه . ولكنها وقعت في حبّ شاب كان خطيباً لابنة عمها « لوسي » وما لبث « ستيفان » - وهو اسمه - ان استباح شرفها فعرض عليها الزواج ، ولكنها مع ذلك رفضت ان تتزوجه وفاءً لابنة عمها لوسي . ولا شك في أن القرية كانت تغفر مثل هذه الخيانة لو ان عاقبتها كانت زواجاً مشروعاً ، ولكنها لم تغفر لماغي انها ضحّت بالمظاهر إرضاءً لصوت ضميرها . ولقد أنكر عملها حتى أخوها نفسه . ولم أكن اومن إلاّ بالحب - الصداقة ، وقد كنت أعتقد ان كتباً يتبادلها فتى وفتاة ويناقشانها معاً كانت تخلق بينهما صلوات خالدة ، ولم أفهم تماماً سبب الانجذاب الذي كانت تحسّ به ماغي لستيفان . ومع ذلك ، فقد كان عليها ما دامت تحبه إلاّ تعدل عنه... وعندما انسحبت في الطاحونة القديمة بعد ان انكرها الجميع ونالوها بألسنتهم وتركوها ، احسستني احترق حنائاً لها . وقد بكيت ساعات طويلة لموتها . لقد كان الآخرون يشجبون عملها لأنها كانت خيراً منهم جميعاً ، ولقد كنت أشبهها ، وبدأت ارى في اعترالي علامة تميّز ، لا علامة عار . ولم أفكر في أن أموت بسبب ذلك . واتحدت بمؤلفة الكتاب عبر بطلة روايتها : ذات يوم ، ستبلل فتاة مراهقة ، فتاة نسخة عني - ستبلل بدموعها رواية اروني فيها قصتي الخاصة .

وكنت قد عزمت منذ وقت طويل على ان اكرّس حياتي للأعمال الفكرية . وقد أدهشتني زازا حين صرّحت بصوت مثير :
 - إن ولادة تسعة أولاد أنجبتهم أمي شيء بضاهي ولا ريب تأليف الكتب .

فأنا لم أكن أجد مجالاً للمقارنة بين هذين المصيرين . ان يكون للمرء اولاد ، يكون لهم بدورهم اولاد : إن ذلك ترديد فارغ لنغمة واحدة مملّة . أما العالم والفنان والكاّتب والمفكر فقد كانوا يخلقون عالماً آخر ، بهيجاً مضيئاً ، لكل شيء فيه سبب لوجوده . وهناك كنت اودّ ان أقضي أيامي ، ولقد عزمت عزماً أكيداً ان اتخذ مكاني في ذلك للعالم . فحين عدلت عن السماء ، توكّدت مطامحي الأرضية ، وكان لا بدّ من البروز . لقد كنت اتمدّد على الارض فأأمل الاعشاب متماثلة ، كل عشب منها غارقة في الغاب الصغير الذي كان يخفي عنها كل الأخريات . وقد كان هذا التكرير الذي لا نهاية له للجهل واللامبالاة يضاهي الموت ؛ وإذ كنت ارفع رأسي إلى شجرة السنديان ، كنت اراها تسيطر على المنظر ، ولم يكن لها من شبيه : لسوف أكون مثلها .

ولماذا تراني اخترت الكتابة ؟ انني في صغري لم أحمل ثراثي الكتابية على محمل الجدّ قط . لقد كان همّي الحقيقي ان أعرف . وكان يروق لي أن احرّر وظائفني الفرنسية ولكن اولئك الراهبات كنّ يأخذن عليّ اسلوبني المتكلّف ، فلا أشعر اني « موهوبة » . على اني اذ بلغت الخامسة عشرة سألتني احدي صديقاتي ان أكتب على دفتر مذكراتها ما كنت أطمح اليه ، فكتبت بلا تردد « ان اكون مؤلفة مشهورة » ، وكنت صادقة في هذا التمني :

وكان السبب الاول في ذلك إعجابي الذي كنت أكنّه للأدباء ؛ لقد كان أبي يضعهم فوق العلماء والباحثين والمعلمين . وكنت مقتنعة أننا أيضاً بتفوقهم . فان أثر أي اختصاصي ، مهما كان اسمه معروفاً ، لا يفتح إلاّ لعدد ضئيل . أما الكتب فقد كان الناس كلهم يقرأونها ، لأنها تمسّ الخيال والقلب ، وهي تكسب مؤلفها أوسع مجد في العالم .

ثم انني كنت دائماً ما أحبّ وسائل الاتصال . وقد ذكرت على دفتر صديقتي ان تسلّيتي المفضلة هي القراءة والحديث . وقد كنت ثرارة ،

فكنت اروي أو أحاول ان اروي كل شيء يكون قد لفت نظري في
أثناء النهار . وكنت أخشى الليل والنسيان ، وقد كان يمزقني ان أترك
للصمت ما كنت قد رأيت وأحسسته وأحبيته . وقد كنت أتمنى إذ هزني
ضوء القمر ان يكون معي قلم وورق وان احسن استعمالهما . وكنت في
الخامسة عشرة أحبّ المراسلات والمذكرات التي تجهد في إمساك الزمن.
وكنت قد فهمت كذلك ان الروايات والقصص والحكايات ليست بالاشياء
الغريبة عن الحياة ، بل هي تعبّر عنها على طريقتهما .

ولئن كنت قد تمنيت في الماضي ان أكون معلّمة ، فلأني كنت أحلم
بأن أكون أنا نفسي سببي وغايتي ، واني لأفكر الآن بأن الأدب
سيتيح لي ان أحقق هذه الرغبة . فهو سيضمن لي خلوداً يعوّض عن
الخلود الضائع . إنه لم يكن هناك بعدُ إلهة يجتبي ، ولكني سأحترق في
قلوب ملايين . واني إذ اكتب كتاباً يتغذّى من قصتي ، فاني سوف
أخلق نفسي من جديد وسأبرّر وجودي . وسوف أخدم البشرية في الوقت
نفسه : واي هدية تقدّم لها أجمل من الكتب ؟ وكنت اهتمّ بنفسي
وبالآخرين في وقت واحد . كنت ارتضي « تجسدي » ولكني لم أكن
اريد ان أنصرف عن « الكوني » ، وكان هذا المشروع يوفق بين كل
شيء ، وكان يدغدغ جميع الاماني التي كانت قد ترعرعت في نفسي
طوال هذه الاعوام الخمسة عشر .

٧

كنت دائماً ما اعطي الحبّ قيمة رفيعة . وإذ كنت في الثالثة عشرة
قرأت في المجلة الاسبوعية « الميلاد » التي كنت أتلقاها بعد مجلة « النجمة
الميلادية » رواية صغيرة بعنوان « نينون روز » ، وكانت تحكي ان الفتاة
التقية « نينون » كانت تحبّ « اندريه » الذي كان يبادلها الحب . ولكن ابنة

عمها تيريز صارحتها يوماً وهي تبكي وشعرها الجميل مسترسل فوق قميصها الليلي بأنها كانت تشتعل حباً لأندرية . وضحت نينون بنفسها ، فرفضت أن تمنح يدها لأندرية الذي اغتاض فتزوج تيريز . وكوفئت نينون فتزوجت في آخر ذا مزايا عظيمة اسمه برنارد . وقد أثارني هذه القصة . لقد كان من حق بطل رواية ما ان يخطئ في اختيار شريكته أو في تقدير عواطفه الشخصية . وقد يمكن لحب حقيقي ان يعقب حباً مزيفاً أو غير كامل . ولكن هذا الحب الحقيقي يغدو غير قابل لأن يستبدل به حباً آخر بمجرد ان يفتح في قلب ما . وليس ثمة كرم أو كفر بالذات يسمحان برفض هذا الحب الحقيقي . ثم اني كنت قد قرأت مع زازا رواية أخرى هزتنا بعنوان « دانيال كورتيس » ومؤلفها « فوغازارو » . وبطل الرواية دانيال كان رجلاً سياسياً هاماً وكاثوليكياً ، وكانت المرأة التي يحبها وتحبه متزوجة ، وكان بينهما تفاهم عجيب ، وكان قلباهما نحفقان خفقة واحدة ، وافكارهما منسجمة كل الانسجام ، فكأنما خلق أحدهما للآخر . ومع ذلك فقد كانت مجرد صداقة افلاطونية جديرة بان تثير الأقاويل وتهدم مستقبل دانيال وتسيء إلى سمعة القضية التي كان يخدمها . وكان من أثر ذلك ان تعاهدا على الحب « حتى الموت وما بعد الموت » وافترقا إلى الابد .

وقد ثار غضبي لذلك وتمزقت نفسي .. لقد كان المستقبل والقضية شيئاً مجرداً . وقد كنت أجد من السخف والاجرام تفضيلهما على السعادة ، على الحياة . ولا شك في ان صداقتي لزازا هي التي تجعلني أعلق مثل هذه الاهمية على اتحاد كائنين ، وكنت افكر بأنهما إذ يكتشفان العالم معاً ويستسلم احدهما للآخر إنما كانا يمتلكان العالم بصورة ممتازة . ثم ان كلاً منهما كان يجد السبب النهائي لوجوده في حاجة الآخر إلى هذا الوجود . وقد كان التراجع عن الحب يبدو لي عملاً جنونياً لا يعادله الا أن يهمل المرء خلاصه حين يؤمن بالخلود .

ولم أكن أتصور ان يفوت الانسان أي خير من خيرات هذا العالم ،
 وحين انصرفت عن الدير ، أخذت أحلم بالحب لصالحتي . وجعلت أفكر
 بالزواج من غير نفور . على ان فكرة الامومة ظلت غريبة عليّ ،
 وكان يدهشني ان ارى زازا تأخذها الحماسة حين ترى المواليد في لفائفهم :
 ولكنني كنفنت عن أن ارى من غير المعقول ان أعيش بالقرب من رجل
 اخترته أنا نفسي . إن البيت الابوي لم يكن سجيناً ، ولو كان عليّ ان
 أغادره فوراً لأخذني الرعب ، ولكنني انقطعت عن اعتبار رحيلي المنتظر
 عنه فطاماً قاسياً . لقد كنت اختنق بعض الشيء في محيط العائلة . من
 أجل هذا تأثرت بالغ التأثر من فيلم حضرته يوماً ، وهو مقتبس من
 رواية «البيت العائلي» لمؤلفها «باتاي» : كانت البطله ضجرة من حياتها
 بين أولادها وبين زوج متجهم عبوس كالسيد «مايل» . وكان في مرفقيها
 سلسلة ثقيلة ترمز إلى عبوديتها . واتي يوماً شاب جميل ينتزعها من
 بيتها ، ثم رأيناها ترتع عارية الذراعين عبر البراري ، ذراعها في
 ذراع حبسها ، والريح تتطاير بشعرها . وكانا يتراشقان بالتبن ،
 وعيونها ضاحكة ، فأكاد أشم رائحة التبن : ولم يسبق لي ان استشعرت
 أو تأملت أو تصورت مثل هذا المرح الطاغي . ولا أدري اية حوادث
 طارئة أعادت إلى البيت العائلي مخلوقة نادمة استقبلها زوجها بكل لطفه
 ولقد رأيت ، بعد أن تابت ، ان سلسلتها النحاسية تبدل اكليلاً من
 الزهر . وهذه العجيبة تركتني متشككة . فلقد ظلت مبهورة باكتشاف
 لذائد لم أكن أعرف لها اسماً ، ولكنها ستغمرنني يوماً ولا شك : لقد
 كانت هي الحرية وكان هو الفرح . كان استعباد الكبار يخيفني ، ولم
 يكن يحدث لهم شيء غير منتظر ، وكانوا خاضعين لحياة قرّر لهم فيها
 كل شيء مسبقاً ، من غير ان يقرر احدهم شيئاً . ولقد جرّوت بطله
 «باتاي» على القيام بعمل ، والتمعت الشمس بعد ذلك . وحين اردت
 نظري إلى سنوات نضجي السابقة ، ارى ان صورة رجل وامرأة يتسليان

في حقل من الحقول كانت ترعشني أملاً .

وحين بلغت الخامسة عشرة ، أخذت في العطلة الصيفية اتردد على غابة بولونيا مع زازا وبعض الرفيقات . وقد رأيت يوماً في احد المرات شاباً وفتاة بمشيان أمامي ، وكان الشاب يضغط بيده قليلاً على كتف الفتاة . وقلت في نفسي فجأة ، وانا متأثرة ، بأن لا بدّ ان يكون لذيذاً ان يتقدّم الانسان عبر الحياة وهو يشعر ان على كتفه يداً مألوفة حتى لا يكاد يشعر بثقلها ، وحاضرة ابدأ حتى لا يبقى للوحدة معها وجود . « كائنات متحدان » : كنت أحلم على هاتين الكلمتين . ان اختي القريبة جداً مني ، وزازا البعيدة جداً عني لم تشعراني بمعناهما الحقيقي . وقد حدث لي مراراً بعد ذلك ، حين كنت اقرأ في المكتب ، ان رفعت رأسي وتساءلت : « اتراني سألتقي برجل قد خلق لي ؟ » ولم تكن مطالعاتي قد صوّرت لي أي نموذج لهذا الرجل ، ولم ارسم لزوجي القادم أي خط محدد : على اني كوّنت فكرة واضحة عما عساها تكون العلاقة ما بيننا : سأشعر له باعجاب شديد . وفي هذا الميدان ، كما هو الشأن في الميادين الأخرى ، كنت عطشى إلى الحاجة فينبغي للشخص المختار ان يفرض نفسه عليّ ، كما فرضت زازا نفسها عليّ بطريقة بدئية . والآن فسوف اتساءل : لماذا يكون هو ، وليس سواه ؟ وقد كان هذا الشك غير منسجم مع الحب الحقيقي . انني سوف احب ، يوم يستولي عليّ رجل بذكائه وثقافته وسلطانه .

ولم تكن زازا من رأيي في هذا الموضوع . فقد كان الحب يتطلب في رأيها أيضاً الاحترام والتفاهم ، ولكن المهم أن يكون ذا حساسية وخيال ، سواء أكان بعد ذلك فناً ام شاعراً ام قليل الثقافة والذكاء . فاعترضت على ذلك بقولي :

— ولكنهما في هذه الحالة لا يستطيعان ان يتفاهما حول كل شيء ؟
فان رساماً أو موسيقياً قد لا يفهمني كليّة ، وسوف يظل آنذاك مغلقاً

عني جزئياً . وأنا اودّ ان يكون كل شيء مشتركاً بين الزوج والزوجة ، وعلى كل منهما ان يقوم بإزاء الآخر بدور الشاهد الحقيقي ، هذا الدور الذي كنت في الماضي أعزوه لله . وهذا يعني ان يجب المرء انساناً « مختلفاً » : اني لن أتزوج الا إذا التقيت شيئاً لي ، نموذجاً عني أكمل مني .

لماذا أطلبه أن يكون متفوقاً عليّ ؟ لا أحسبني أبحث فيه عن بديل لأبي ، فقد كنت حريصة على استقلالي . ولسوف أمارس مهنة ، سأكتب ، وستكون لي حياتي الشخصية . ولم أكن اتصورني رفيقة رجل : بل ستكون رفيقين . ومع ذلك ، فقد كانت الفكرة التي تصورتها عن تزاوجنا متأثرة بالمشاعر التي حملتها لأبي . إن تربيتي وثقافتي ومفهومي للمجتمع كما كان - إن كل ذلك كان يقنعني بأن النساء ينتمين إلى طبقة دون طبقة الرجال . وكانت زازا تشكّ في ذلك لأنها كانت تؤثر أمها على أبيها ، أما أنا ، فقد أيدت النفوذ الأبوي رأياً . فإذا كان الرجل ، وهو عضو من فئة ممتازة تتمتع منذ البدء بسبق كبير ، لا يفوقني في القيمة ، فسوف أحكم بأنه سيكون نسيباً دوني ، فلكني أعترف بأنه يساويني ، فينبغي ان يتجاوزني .

ومن جهة أخرى كنت أفكر بنفسني من الداخل ، كما لو كنت افكر بواحد يتكوّن ، وكنت أطمع بأن اتطوّر وأتقدّم إلى ما لا نهاية ، أما الرجل المختار ، فقد كنت أراه من الخارج على أنه شخص ناجز مكتمل . ومن أجل أن يبقى دائماً على مستواي ، فقد كنت أضمن له منذ البدء كمالات لم تكن موجودة بالنسبة لي إلاّ في حيزّ الامل . لقد كان بالجملة نموذج ما كنت اودّ أن أصبحه : ولهذا كان متفوقاً عليّ . ثم اني كنت أهتمّ بالألاّ يفصلني عنه مدى أوسع من الزوم ، فاني لن أقبل ان تكون فكرته وأعماله مستغلقة عليّ ، فان ذلك سيحملني على أن أتألم من تقصيري . والصورة التي تحضرني حول ذلك هي

صورة عملية تسلق يُساعدني شريكى الذي هو أقوى منى وأبرع على أن ارتفع فيها من درجة إلى درجة . لقد كنت أودّ ان اتلقّى ، لا أن أعطي . ولو قد وجب عليّ ان اردف خلفي رجلاً أجره ، فلا ريب في اني سأهلك من نفاذ الصبر ، وفي هذه الحالة اوثر العزوبية على الزواج . إن على الحياة المشتركة ان تدفع مشروعى الأساسى ، وهو ان امتلك العالم ، لا أن تعرقله . وهكذا ان يكون الرجل المرصود دوني ولا مختلفاً عني ولا يفوقني بحيث أستشعر من تفوقه الإهانة ، وانما هو يضمن حياتي ، من غير ان انتزع سيادته .

وقد وجهت هذه الصورة احلامي طوال سنتين أو ثلاث . وكنت أعلّق أهمية ما على هذه الأحلام ، وقد سألت אחتي يوماً بشيء من القلق : هل كنت نهائياً قبيحة ؟ ام انه كان لي نصيب بان أصبح امرأة تملك من الجمال ما يكفي لأن تُحَبِّبَ ؟ ولم تفهم « بوييت » سوالي ، وهي التي تعودت أن تسمع ابي يقول عني اني رجل . فقد كان حسبها انها تحبني ، وان زازا تحبني ، فعلام أقلق ؟ والحقيقة اني كنت اعذب نفسي باعتدال ، فقد بقيت دروسي والأدب والشؤون التي تتعلق بي هي مركز همومي . وقد كنت اقل انشغالاً بمصيري كفتاة كبيرة مني بمستقبلي المباشر .

وكنت في الخامسة عشرة والنصف حين اصطحبت أهلي لقضاء عطلة ١٤ تموز في « شاتوفيلان » . وكانت العمّة أليس قد ماتت ، فنزلنا في بيت العمّة « جيرمين » والدة « تيتيت » و « جاك » . وكان جاك في باريس يقدم الامتحان الشفوي لشهادة البكالوريا . وكنت احب « تيتيت » كثيراً وكانت مشرقة بالنضارة ، وكان لها شفتان جميلتان ريانتان ، وكان يسهل على الانسان ان يحسد بنحفق دمها في جسدها . وكانت قد خطبت لصديق من أصدقاء طفولتها ، وهو شاب ساحر ذو أهداب طويلة ، وكانت تنتظر الزواج بنفاد صبر لم تكن لتخفيه . وكانت بعض العمّات يتهامن

بأنها لم تكن رصينة في لقاءها بخطيبها . وقد ذهبنا نحن الاثنتين ،
عشية وصولنا ، إلى الحديقة المجاورة للبيت ، فجلسنا على
مقعد حجري صامتين : والحق انه لم يكن لدينا شيء كثير نقوله . ثم
سألني تبتيت بفضول :

— أنكفيك حقاً دروسك؟ وهل انتِ سعيدة بهذا الشكل ؟ اولا
تتمنين ابدأ شيئاً آخر ؟
فهزرت رأسي وقلت :
— هذا يكفيني .

وكان هذا صحيحاً ، ففي نهاية ذلك العام الدراسي لم أكن أنظر إلى
أبعد من السنة القادمة وإلى شهادة البكالوريا التي ينبغي ان أفوز بها .
وتنهدت تبتيت وسقطت من جديد في أحلام ، أحلام الفتاة المخطوبة
التي كنت أحكم بأنها ، أحلام ساذجة بعض الشيء ، بالرغم من حبي
لها . ووصل جاك في اليوم التالي وهو يشعّ سعادة ورضا ، فأخبرنا بأنه
قد نجح . وصحبني إلى ملعب التنس وعرض عليّ ان نتبادل الكرة
بعض الوقت ، فهزمني واعتذر بأنه استخدمني ليجرب قوته في اللعبة .
وكنت أعلم اني لا أثير اهتمامه كثيراً . وكنت قد سمعته يتحدث بلهجة
احترام عن الفتيات اللواتي يلعبن التنس ويخرجن ويرقصن ويلبسن الثياب
الجميلة ، فيما كنّ يُعددن شهادة الليسانس . وقد شعرت إذ ذاك بان
احتقاره ينسحب عليّ ، ولكنني لم أشك يوماً من تقصيري في تلك
اللعبة ، ولم أخجل من ثوبي المتواضع . فقد كنت خيراً من التلميذات
الناعمات اللواتي كان جاك يفضلهنّ عليّ ، وسيأتي يوم يقتنع فيه هو
نفسه بذلك .

كنت خارجة من سنّ العقوق . وبدل ان اتحسّر على طفولتي ،
اتجهت نحو المستقبل ، الذي كان لا يزال من البعد بحيث لم يكن يخيفني ،
ومع ذلك فقد كان يبهرنني .

في أواخر أيلول ، دُعيَت أنا وأختي إلى «مولان» حيث كان لاسرة أفضل صديقة لها بيت ، وكانت هذه الصديقة ، واسمها «آن ماري جاندرين» تنتمي إلى اسرة عديدة الافراد ، غنية ومنسجمة ، بحيث لا ينشب فيها يوماً نزاع ، ولا يرتفع صوت، وانما تشيع البسمات والرضى على كل الوجوه . ووجدتني في جنة نسيت حتى ذكرها . وقد أخذنا الصبيان في نزهة بالقرب في «السين» ، كما حملتنا كبرى الفتيات ، وعمرها عشرون سنة ، إلى «فرنون» بالسيارة.وقد تأثرت لسحر المناظر ولكنني كنت أكثر تأثراً بجمال «كلوتيلد» التي دعيتني في المساء إلى غرفتها حيث سمرنا إلى ساعة متأخرة . وكانت قد فازت بشهادتي البكالوريا ، وكانت تطالع قليلاً وتتعلم العزف على البيانو . وقد حدثتني عن حبها للموسيقى ولأسرتها . وكان درجها ممثلاً بالذكريات : رزم الرسائل والدفاتر - وهي دون ريب مذكراتها - وبرامج الحفلات والصور ... وحسرتها على ان تمتلك ماضياً غنياً كهذا . وأعارتني بعض الكتب ، وكانت تنظر إليّ على قدم المساواة وتقدم لي النصائح كأخت كبيرة . وقد كلفت بها ، ولكنني لم أكن أقدرها كما أقدر زازا ، وانما كانت توحى لي صورة جذابة للفتاة التي سأكونها غداً . وحين عدنا إلى البيت ، كانت هي التي اوصلتنا بالسيارة . وقبل ان تغلق الباب خلفها ، وقعت حادثة عندنا : لقد نسينا في «مولان» فرشاة اسنان ، فاغتازت أمي وأخذت تصيح . وبدا لي اني لن أطيق هذا الجو الذي عدت إليه بعد هذه الايام الصافية التي قضيناها هناك . وأسندت رأسي إلى الطاولة وأخذت أبكي ، فقلدتني اختي ... وزاد غيظ امي وابي فقالا :

- شيء جميل ان تنخرط في البكاء فور وصولكما !

والحق ان جميع الدموع التي تجمعت في مآقي طوال أشهر وأسابيع

بسبب التوبيخ والعقاب والصراخ ، كانت آنذاك تخفني . ولم أعلم إذ ذاك
كانت أمي أدركت اني بدأت اتملص من سلطانها ، ولكني كنت أثير
حنقها فتغضب مني ، ولهذا وجدت في « كلوتيلد » اختاً كبيرة تعزيني ،
فأخذت أزورها كلما سنحت لي الفرصة . كنت مأخوذة بتسريحة شعرها ،
وديكور غرفتها الأنيقة ولطفها واستقلالها . وحين كانت تصحبني إلى
بعض الحفلات ، كان يبهرني ان تستقل سيارة اجرة - وكان هذا في
نظري منتهى البذخ - وقد دهشت زازا من حديثي عن « كلوتيلد »
فقد كانت العادة تقضي بأن لا تعاشر الفتاة الا من كانت في مثل سنها ،
وحدث ان كنت آخذ الشاي يوماً في بيت « كلوتيلد » مع عدد من
الفتيات « الكبيرات » ، فأحسنتني في غير وسطي ، وخبثت الأحاديث
ظني . ثم ان كلوتيلد كانت شديدة التقوى ، فلم تكن تستطيع أن تكون
لي مرشدة ، أنا التي فقدت الايمان . وحدثت بأنها كانت تراني من
جهتها أصغر من ان تعاشرني طويلاً . فكان ان باعدت ما بين لقاءاتنا ،
ولم ألح في ذلك . ولم تمض أسابيع حتى انقطعنا عن اللقاء . وبعد
وقت قصير ، عقدت زواجاً « مدبراً » ..

وجعلت بعد ذلك أعمل بنشاط لم أعرفه من قبل . وكان يثير حماسي
قرب الامتحانات وأملني في أن أصبح طالبة بكالوريا . وكان وجهي
يتسق وينصلح ، ولم يعد جسمي يزعجني ، وأخذت اسراري يخف علي
حملها ، وكفت صداقتي لزازا عن أن تولمي . وكنت قد استعدت ثقفي
بنفسي ، ومن جهة أخرى تغيرت زازا ، فأصبحت حاملة ، بعد أن
كانت ساخرة ، وبدأت تحب « موسيه » و « شوبان » وظلت تأخذ علي
وسطها فريسيته ، ولكن من غير ان تحكم علي البشرية كلها . وهكذا
وفرت علي سخرياتها .

وكانت زازا تروي لي كل شيء عن اسرتها وبيتها . وكانت اختها الكبيرة
تعيش في انتظار من يتزوجها ، وفي هذه الاثناء كانت تطبخ وترقص

وتساعد والدها واخواتها . وكانت أمها تجرّها معها في زياراتها . وقد روت لي زازا ان احدى عمّاتها كانت تتحدث دائماً عن نظرية « ضربة الحب المقدسة » : فحين يتبادل الخطيبان امام الكاهن كلمة « نعم » التي توحدهما ، تهبط عليها الرحمة ويتحابان . ولكن هذه الفكرة كانت تغيظ زازا ، وقد صرّحت يوماً بأنها لا ترى فرقاً بين امرأة تتزوج زواج مصلحة وبين بغية . وكانوا قد علّموها أن على المرأة المسيحية ان تحترم جسمها : وهي لا تحترمه إذا استسلمت من غير حب ، بدافع من مال أو من استنساب . وقد أدهشتني جرأتها ، فكأنها كانت تستشعر في جسمها نفسه خزي هذه التجارة . أما أنا ، فلم يكن الموضوع وارداً بالنسبة لي : فسوف أكسب حياتي ، وسأصبح حرّة . ولكن كان لا بدّ في وسط زازا من أن تتزوج الفتاة أو تدخل الدير ، وكان يقال هناك « إن العزوية ليست رسالة » . وقد بدأت هي تحشى المستقبل ، ولعل هذا كان سبب سهدها في الليل . وكانت غالباً ما تنهض في الليل وتغتسل بماء الكولونيا من رأسها إلى أخمص قدميها ، وكانت تبتلع في الصباح مزيجاً من القهوة والخمر الابيض لتمتلك الشجاعة على مواجهة النهار . وحين كانت تروي لي هذه المبالغات ، كنت احس بانني لم أكن أدرك من شؤونها أشياء كثيرة . ولكنني كنت أشجعها على مقاومتها ، وكانت تسرّ بذلك : لقد كنت حليفتها الوحيدة . كنا نفر معاً من أشياء عديدة ، وكانت لنا رغبة مشتركة في السعادة .

وقد ساعدني تفاهمي مع زازا وتقديرها لي على ان أتحرّر من الكبار وان اراني بعيني نفسي . وفي أثناء الأسابيع التي سبقت البكالوريا ، عرفت مباحج لم تكدرّ بشيء . فقد سمحت لي أمي بان أقصد حديقة اللكسمبورغ لأدرس فيها ، وهناك كانت تستخف بي نشوة غريبة لم أكد أعرفها من قبل . وقد سمحت لي أمي أيضاً بأن أسهر حتى ساعة متأخرة من الليل ، بينما يكون أبي في سهرة لدى بعض أصدقائه ،

وتكون هي وأختي نائمتين ، فكنت أظل وحدي في المكتب . وكنت أنحني على النافذة فيحمل لي النسيم نفحات من عطر الحشائش الخضراء . وكانت هناك ، في البعيد ، نوافذ مشعة . وكنت أحياناً ما أتناول منظر أبي وأترصد به حيوات مجهولة هناك ، مسرورة بأن أرى من بعيد هذا المسرح من الظلال السوداء ، وسط غرفة مضاعة في الليل . وكان نظري يتيه من واجهة إلى واجهة فأقول لنفسي ، وأنا منفعلة بدف المساء « سوف أعيش قريباً كما أريد » .

وحين قصدت السوربون لأجري فيه امتحاني أدركت اني أواجه حقيقة العالم وأهرب من معهد « ديزير » . وقد نجحت في الامتحان بدرجة « جيدة » ففرح أهلي كثيراً بذلك . وكان جاك قد قال يوماً : « يجب أن يفوز الطالب بدرجة « جيدة » او لا يفوز بأية درجة على الاطلاق » وقد هنأني بجملة ، وقد نجحت زازا كذلك .

وأرسلت لي كلوتيلد ومرغريت رسالتين ودودتين ، وقد أفسدت عليّ أمي بعض فرحتي حين حملتها إليّ مفضوضتين وقرأت عليّ محتواهما بجملة ، ولكن العادة كانت قد استقرت بصورة لم أفكر معها بأن أحسج . وذهبت يوماً في نزهة إلى « روان » فانقضى بعد الظهر في زيارة الكنائس ، وظلت طوال الوقت صامتة ..

كنت أجد عزائي في درس الفلسفة بعد ذلك . وما كان يجذبني في الفلسفة خصوصاً هو ما كنت أفكر به من انها تمضي مستقيمة إلى الجوهري . ولم أمل يوماً إلى التفصيليات ، وكنت أدرك المعنى العام للأشياء أكثر مما أدرك تفرداتها ، وكنت أفضل الفهم على النظر ، وقد تمنيت ابدأ لو اعرف « كل شيء » ، ولسوف تتيح لي الفلسفة ان اروي هذه الرغبة ، لأنها تقصد كليّة الحقيقة ، فتقيم فيها وتكشف لي نظاماً وسبباً وضرورة ، بدلاً من دوامة من الأحداث والقوانين الاعتبائية . وقد بدت لي العلوم والأدب وجميع الانظمة الاخرى اقرباء فقراء

للفلسفة .

على اننا لم نتعلم شيئاً كثيراً كل يوم بيومه . ولكننا كنا نتفادى الضجر بالحرارة والحماسة اللتين كانتا تتخللان مناقشاتنا ، أنا وزازا . وقد قامت مناقشة عنيفة حول الحب الذي يسمى افلاطونياً وحول الحب الآخر الذي لم يكن له اسم .

كانت حياتي كطالبة توشك على الانتهاء ، وكان شيء آخر يبدأ ، ولكن ما هو على التحقيق ؟ لقد كنت أخشى ذلك الحظ من الاعباط الذي يحتمله كل اختيار . وكان أبي يريد لي عملاً هادئاً مثمراً ويرصدني نوظيفة حكومية تؤمن لي راتباً معيناً . ونصحه أحدهم بأن اشتغل أمانة مكتبة من المكتبات . أما ما كان يروق لي فهو أن أتابع دراسي الفلسفية فأصبح دكتورة كهذه التي رأيت يوماً صورتها في جريدة بعد فوزها بشهادة الدكتوراه في الفلسفة ، وكانت النساء اللواتي يحملن مثل هذه الشهادة يعدون على الاصابع ، وكم كنت أودّ لو أكون من هؤلاء الرائدات . وقد كانت المهنة الوحيدة التي تفتحها لي هذه الشهادات هي التعليم ، ولم أكن اعارض ذلك . وفي تموز التالي تقدمت لشهادة الفلسفة ونجحت فيها فاستولت علي السعادة لانتهائي من معهد « ديزير » . ولكن حدث بعد يومين أو ثلاثة ان وجدتي وحيدة في المنزل . فأخذني ضيق غريب . وظلت مزروعة في الغرفة ، ضائعة كما لو انني نقلت إلى كوكب آخر : بلا عائلة ولا صديقات ولا علاقات ولا أمل . لقد مات قلبي وأصبح العالم فارغاً . اترى ممكناً ان يمتلئ هذا الفراغ يوماً ؟ ثم عاد الزمن إلى جريانه .

٩

ظللت فتاة بريئة سليمة الطوية بالرغم من مطالعاتي الكثيرة . فقد

كنت في السادسة عشرة حين صحبتنا امرأة عمي أنا وأختي إلى قاعة « بلايل » لمشاهدة فيلم من أفلام الرحلات . وكانت جميع المقاعد مشغولة ، فظلنا واقفين في الرواق . وما لبثت ان شعرت مندهشة بأيدي تجسّتي عبر معظني الصوفي ، فحسبت انهم يحاولون ان يسرقوا محفظتي فشدتها تحت ذراعي ، ولكن الأيدي استمرت في معالجاتي بصورة مزعجة . ولم أدر ما أفعل ولا ما أقول ، فظللت جامدة لا أتحرك ، حتى إذا انتهى الفيلم ، رأيت رجلاً يضحك وهو يوميء إليّ مشيراً إلى صديق له أخذ هو الآخر يضحك . كانا يسخران مني : ولكن لماذا ؟ انني لم أفهم شيئاً من ذلك .

وبعد ذلك بأيام كلفني احدهم ، ولم أعد أذكر من هو ، بأن اشترى له قطعة من مكتبة قريية من كنيسة سان سوليس . واتي إلى خدمتي في المكتبة شاب أشقر خجول يرتدي ثوباً طويلاً أسود . وتوجه إلى داخل المكتبة وهو يشير إليّ ان أتبعه . وحين كنت قريية منه ، فتح ثوبه كاشفاً عن شيء وردي اللون ، ولم يكن وجهه يعبر عن شيء ، وقد ظلت لحظة مشدوهة ، ثم استدرت على عقبي ومضيت . وقد ابرمتني حركته واعطتني الشعور بان من الممكن ان تحدث أشياء غريبة على غير ما رغبة من الانسان . وحين كنت اجدني وحيدة بعد ذلك في حانات أو عند محطة مترو ، كنت أشعر بشيء من الخوف .

وفي مطلع السنة التي درست فيها الفلسفة ، كانت السيدة « مايل » قد اقنعت أمي بأن آخذ دروساً في الرقص . فكنت التقي بزاا ، مرة كل أسبوع ، في صالة كان بعض الفتيات والشبان يتدربون فيها على الرقص بادارة سيدة ناضجة . وكنت ارتدي في تلك الايام ثوباً ازرق من « الجرسى » الحريري كانت قد وهبته لي ابنة عمي « آني » وكان يتفق وجسمي بالمصادفة . وكانت كل زينة محظورة عليّ ، ولم يكن في الاسرة كلها الا ابنة عمي مادلين تخالف عن هذا الأمر . فكانت تسمح وجهها

بالمسحوق الابيض ، ثم تنكر انها فعلت حتى بلغت الثامنة عشرة ، فلم يعد من همها أن تنكر ذلك . اما أنا ، فلم أكن ازين وجهي ، وعلى هذا النحو كنت أصل إلى دروس الرقص ، ملتمة الوجنتين ، كالحلة الشعر . ولم أكن أعرف ان أعمل شيئاً يجسمي ، حتى ولا أن أسبح أو أستقلّ الدراجة . على اني بدأت أكره دروس الرقص هذه لسبب آخر . فحين كان الفارس الذي يراقصني يضمني بين ذراعيه ويشدني إلى صدره كنت أستشعر عاطفة غريبة تشبه دواراً في المعدة ولم اكن لأنساه بسهولة . فاني كنت اذ أعود إلى البيت ، ارتمي على المقعد الجلدي ، وقد أذهلني فتور كان يمنحني الرغبة في البكاء . وقد تعلت بدروسي لأقطع هذه التمارين بعد قليل :

وكانت زازا أكثر وعياً مني ، وقد قالت لي مرة :

— حين أفكر بأن امهاتنا ينظرن الينا نرقص بكل هدوء في أرواحهن فاني ارثي لبراءتهن !

وكانت تجادل اختها ليلي أو بنات عمها وتقول لهن :

— اوه ! لا تروي لي اننا اذا رقصنا فيما بيننا او مع اشقائنا فاننا

ستسلى بالدرجة نفسها !

وحسبت انها تربط بين لذة الرقص ولذة أخرى كانت مجهولة عندي ، هي لذة المداعبة الغزلية . لقد استشعر جهلي ، وانا في الثانية عشرة ، الرغبة والدعابة . وإذ بلغت السابعة عشرة ، وأصبحت أكثر معرفة نظرياً ، لم أعد اعرف حتى ما هو الاضطراب الجنسي .

لقد كانت « الجنسية » تخيفني . وكانت فتاة واحدة ، هي تبيت ، قد جعلتني أفكر بان بالامكان ان يعيش المرء الحب الجسدي بصورة طبيعية ، وفي الفرح . لم يكن جسمها المفتوح يعرف الحجل ، وحين كانت تتحدث عن عرسها كانت الشهوة التي تلمع في عينيها تزيدها جمالاً . وكانت الخالة سيمون تلمح بأنها قد « تجاوزت الحد » في علاقتها مع خطيبها،

غير ان أُمي كانت تدافع عنها . أما أنا فكنت أرى أن لا فائدة من هذا النقاش ، فان عناق هذين الزوجين الجميلين ، سواء كانا خطيين أو زوجين ، لم يكن ليصدمني : فيكفي أن أحدهما كان يحب الآخر . غير ان هذه التجربة الوحيدة لم تكن كافية لتحطيم أصنام التقاليد التي كانت منصوبة حولي . فانا لم أذهب الى البحر قط ، حتى أن العري كان يمتزج في نظري بالفجور ... وأذكر أنني حين كنت في صف الفلسفة ، أتت « مرغريت دوتيريكور » تبلغ الراهبة في معهد « ديزير » انها ستزوج عما قريب شريك والدها ، وهو رجل يكبرها كثيراً في السن ، ولكنه غني وذو مركز ، وهي تعرفه منذ صغرها . وقد هناها الجميع وكانت تشع من السعادة . أما أنا ، فقد انفجرت في رأسي « كلمة » زواج انفجاراً ... فكيف كان لي أن أطابق صورة هذه الآنسة الرصينة ذات القبعة والبسات الرزينة على صورة جسد وردّي ناعم ينام بين ذراعي رجل ؟ وأنا لم يبلغ بي التصور أن أعري مرغريت : ولكني تخيلت جسدها يُمنح ، وهو تحت قميصها الطويل وشعرها المنسرح ، وقد اعتبرت هذا الفجور من قبيل الجنون . فاما ان تكون الرغبة الجنسية أزمة جنون قصيرة ، وإما ان تكون مرغريت لا تتلاءم مع الفتاة الرصينة التي ربيت تربية رفيعة وكانت وصيبتها تواكبها كيف اتجهت . لقد كانت الظواهر تخدعني ، وكان العالم الذي لقنوني اياه مغشوشاً كله ومزيفاً . كانت مرغريت الحقيقة تلبس قبعة وقفازيين بكل عناد . أما حين كنت أتصورها نصف عارية ، معرضة لعيني رجل ، كنت أحسّتي محمولة في ريح سموم كانت تذرو جميع قواعد الاخلاق والعقل .

وفي أواخر تموز قصدت « لاغريار » لقضاء العطلة الصيفية ، فاكشفت هناك مظهراً جديداً من مظاهر الحياة الجنسية .

كان عمي موريس قد تناول طوال ستين أو ثلاث ألواناً من الخضار

لم يذق سواها . فأصيب بسرطان في المعدة مات على أثره بعد آلام فظيعة . وقد بكنه امرأة عمي ومادلين طويلاً . ولكن حين وجدنا العزاء أصبحت الحياة في « لاغريار » أوفر مرحاً من الماضي . وقد استطاع روبير أن يدعو أصدقاءه الى القصر بكل حرية ، وكانوا يجتمعون شباناً وفتيات ليصطادوا ويرقصوا . وكان روبير في تلك السنة يغازل فتاة جميلة تناهز الخامسة والعشرين ، وكانت تقضي عطلتها في البيت المجاور ، وكانت غايتها أن تجد لها عريساً . وكانت أيفون تقصد كل يوم تقريباً قصر « لاغريار » وعلى شفتيها بسملة لا تمحي حتى اني أخذت أتساءل عما اذا كانت صماء أو بلهاء . وقد جلست أمها بعد ظهر أحد الايام تعزف على البيانو في القاعة المفرغة من اثاثها ، وأخذت أيفون وهي بثوب الاندلسية ترقص رقصات اسبانية وسط دائرة من الشباب الضاحك ، وبمناسبة هذا « الغرام » تكررت الحفلات والدعوات ، في القصر وفي الخارج ، وكنت أجد فيها تسلية كبيرة . ولم يكن الأهل ليتدخلوا فيها ، بحيث كان يمكن للجميع أن يضحكوا ويتحركوا من غير ضغط أو رقابة . وقد أصبح الرقص ، بعد حين من الزمن ، لعبة ممن الألعاب ولم يعد يضايقي . بل لقد وجدت أحد الذين راقصوني ، وهو شاب على وشك ان ينهي دراسة الطب ، وجدته لطيفاً جداً . وقد سهرنا ذات مرة ، في بيت مجاور حتى الصباح ، وطبخنا حساء البصل في المطبخ ، وركبنا السيارة الى سفح جبل « غارغان » الذي تسلقناه لثرب منه اشراق الشمس ، ثم شربنا القهوة بالحليب في أحد الفنادق . وكانت هذه أول ليلة بيضاء لي . وقد رويت لزازا هذه الاعمال الطائشة التي عجبت لها كثيراً ودهشت أن أجد فيها لذة وان تتساهل أمنا معنا بشأنها . ولكن الواقع أنه لم يكن ثمة أي خطر على فضيالي أو فضيلة أخي ، فقد كان الجميع يدعوننا بـ « الصغيرتين » وكأنهم يعنون بذلك أننا لم نبلغ بعد مبلغهم ، وان « الجاذبية الجنسية » ليست من ميزاتنا ... غير أن المحادثات كانت تطفح بالتلميحات والتوريات التي كانت تزعجني .

وأخبرني مادلين أن أشياء كثيرة كانت تحدث في تلك الامسيات في الأجراس والسيارات . وكانت الفتيات يحرصن على أن يبقين عذراوات. أما ايفون فقد أهملت هذا التحفظ ، وانتهى الامر بأصدقاء روبير الذين استفادوا منها ، كل بدوره ، الى أن يطلعوه على الواقع فعدل عن زواجه بها : أما الفتيات الأخريات ، فقد كن يعرفن « قاعدة اللعب » وكن يحافظن عليها . ولكن هذا التحفظ لم يكن ليحرمهن التسلية والمرح: ومن كانت منهن شديدة الوسواس ، كانت تذهب لتعترف في اليوم التالي ، ثم تعود نقية الضمير ... وكم وددت لو أعرف كيف يمكن للقاء فمين أن يخلق الشهوة ، وكنت غالباً ما أدهش حين أنظر الى شفقي شاب أو فتاة ... وقد شرحت لي مادلين ان اللذة تتوقف على الاذواق : فقد كانت صديقتها « نيني » مثلاً تطالب من صاحبها ان يقبل أو يداعب باطن قدمها . وكنت أتساءل بفضول واستياء عما اذا كان جسمي بالذات يخفي ينابيع خبيثة ستندفق منها يوماً لذائد غير منظورة ولا منتظرة .

غير أنني لم أكن مستعدة على الاطلاق للقيام بأية تجربة . لقد كانت الاخلاق التي تصفها لي مادلين تثيرني . إن الحب ، كما أتصوره ، لا يعني الجسم على الاطلاق ، ولكني كنت أرفض أن يبحث الجسم عن الارتواء خارج الحب . ولم أكن من التصلب بالبلغ الذي يذهب اليه « انطوان ريديه » مدير « المجلة الفرنسية » التي كان أبي يعمل فيها ، والذي صور في رواية له صورة مؤثرة لفتاة حقيقية : لقد سمحت مرة لرجل أن يقبلها ... وبدلاً من أن تعترف لخطيبتها بهذه الدناءة ، عدلت عن الزواج به ، لقد رأيت هذه القصة المضحكة . على أنني حين روت لي احدي صديقتي وهي ابنة جنرال أن كل شاب يراقصها كان يقبلها لدى عودتها الى البيت ، وبختها على أن تقر ذلك . فقد كان يخيل لي من المحزن بل من الإجرام ان يعطي المرء شفثيه لآخر

غير مكثرث . ولا شك في أن أحد أسباب احتراسي نفوري الممزوج بالخوف الذي يوحيه الذكر عادة للعدراوات ، لقد كنت أحشى خصوصاً حواسي نفسها وما قد ينتابها من نزعات . وانما كان الاستياء الذي كنت أشعر به في أثناء دروس الرقص يغطني لأنني كنت أتلقاه بالرغم مني . ولم أكن أقبل ان يتمكن أول قادم من ان يجعلني أهوى لمجرد لمسة أو ضمة أو ضغط . لا بد أن يأتي اليوم الذي يغمى عليّ فيه وأنا بن ذراعي رجل : سأختار ساعتني ، وسيبرر عزمي نفسه بعنف الحبّ الذي أكون واقعة فيه . إن اللذة تبقى قدرة اذا لم تصهر بنار العاطفة . ثم اني كنت متطرفة : كنت أريد إما كل شيء ، وإما لا شيء . واذا أحببت فسأحبّ الى الابد ، وسأنحط بكليتي ، بجسمي وقلبي وفكري وماضي . كنت أرفض أن اقتطع الانفعالات والشهوات الغريبة على هذه القضية . والحق اني لم يتح لي أن امتحن صلابة هذه المبادئ ، لانه لم يحاول أي ساحر أن يهزّها أو يهدمها .

كان مسلكي ينسجم والاخلاق القائمة في وسطي ، ولكني لم أكن أقر هذه الاخلاق دونما تحفظ هام ، كنت أود أن أخضع الرجال للتوانين نفسها التي تخضع لها النساء . لقد كانت عمتي « جرمين » تشكو من ان « جاك » كان عاقلاً أكثر من اللزوم ، وكان أبي ومعظم الكتاب والاجماع العام يشجعون الشبان على ان يغامروا ، حتى اذا آن الاوان ، فانهم سيتزوجون الفتاة التي تنتمي الى عالمهم ، وفي الانتظار لا بأس من التسلية مع فتيات عابرات ... وكان هذا المسلك يثير اشمزازي . وكانوا قد كرروا لي القول ان الطبقات الدنيا لا تملك مناقب ، فلا بأس من قضاء الوقت مع فتياتها ، وكنت أثور ضد هذه الفكرة ، لاني كنت أثور مع تلك الفتاة المخطوبة البيضاء التي قد أصبحت ذات يوم ، فلم أكن أجد أي سبب يحملي على أن أقرر لصاحبي من الحقوق ما لا أقره لنفسني . إن حيننا لن يكون

ضرورياً وكلياً إلا اذا احتفظ بنفسه لي كما أحتفظ بنفسني له . ثم انه يجب ان تكون الحياة الجنسية في جوهرها بالذات ، ولجميع الناس ، قضية رصينة . .. وهكذا كنت أصرّ ، رغم الرأي العام على أن أطلب من الجنسين طهارة مماثلة .

١٠

وقضيت في أواخر شهر أيلول أسبوعاً ضيفاً على احدى صديقاتني؛ وكانت زازا قد دعنتني مراراً الى مصيفها في « لوباردون » ، ولكن صعوبات السفر وحدانية سني جعلت هذا المشروع يجھض . أما في تلك الفترة ، فكنت قد بلغت السابعة عشرة ، وقد وافقت أمي على ان تضعني في قطار يقودني توأً من باريس الى محطة المصيف حيث يأتون لاصطحابي ، وكانت هذه أول مرة أسافر فيها وحدي ، وكنت قد رفعت شعري ، وأحسستني فخورة بحريتي ، وقلقة بعض الشيء : فقد كنت أترصد المسافرين على المحطات ، ولم أكن أحب أن أجدني مغلقاً علي في حافلة مع غريب وجهاً لوجه . وكانت تيريز تنتظرنني على المحطة ، وهي فتاة مراهقة حزينة يتيمة الأب تعيش حياة أسي بين أمها وبين ست من أخواتها الكبيرات . وكانت قد زينّت غرفتها ، وهي التنية العاطفية ، بأردية من الموسلين الابيض كانت تدعو زازا الى الابتسام؛ وكانت تحسدني على حريتي النسبية ، وأحسب انني كنت أجسد في نظرها كل مرح الحياة . وكانت تقضي الصيف في قصر كبير جميل تحيط به غابات كثيفة . وقد اكتشفت هناك خريفاً جديداً : بنفسجياً برتقالياً أحمر ملطخاً بالذهب . وكنا نتحدث عن العودة الى المدرسة فيما كنا ننتزه . وكانت تيريز قد سمح لها بان تتابع معي بعض دروس

الأدب واللغة اللاتينية . وكنت أستعدّ لأعمل بجد ، وكان بود أبيّ لو أجمع بين الادب والحقوق « التي يمكن أن تنفع يوماً » ، ولكني لم أوافق على ذلك بعد أن طالعت مطالعة سريعة « القانون المدني » فنفرت منه . وكان استاذي ، مقابل ذلك ، قد أغراني بان أتابع دراسة الرياضيات العامة ، فراقت لي الفكرة وصممت أن أدرسها في المعهد الكاثوليكي ، وأما الأدب فقد قررنا أنا وزازا ، بناء على اقترح ابئها ، ان ندرسه في معهد خاص بـ « نويي » .

وهكذا كانت جميع رغباتي تتحقق : هذه الحياة التي تفتتح والتي سأقاسمها مع زازا .

حياة جديدة ، حياة أخرى ، تجعلني أكثر انفعالاً مما كنت يوم دخلت المدرسة لأول مرة . واضطجعت على أوراق الشجر الميتة ، وشرد نظري خلال ألوان الكرمة الرائعة ، وجعلت أحلم بكلمات : الليسانس والاغريغاسيون .. فاذا بجميع الحواجز وجميع الجدران تتطاير .. لقد كنت أتقدم في وضوح النهار نحو حقيقة العالم . ولم يعد المستقبل أملاً بعد : فهأنذا ألمسه . أربع سنوات أو خمس من الدراسة ، ثم تأتي حياة بكاملها أصنعها أنا بيدي . وستكون حياتي قصة جميلة تتحقق شيئاً فشيئاً كلما مضيت أروها لنفسي .

القِسْمُ الثَّالِثُ



افتتحت حياتي الجديدة بأن صعدت درج مكتبة « سانت جنيفاف ». وجلست في القطاع المخصص للقارئات ، واستغرقت في قراءة « المهزلة البشرية ». وكانت تجلس قبالي ، في ظل قبعة كبيرة محملة بصور العصافير ، آنسة ناضجة السن كانت تقلب أوراق اجزاء قديمة من « الجريدة الرسمية » ، وكانت تحدث نفسها بصوت منخفض وتضحك؛ وكان دخول المكتبة في ذلك العهد مباحاً للجميع ، فكان يلجأ إليها غالباً بعض الحمقى والمشردين ، وكانوا يحدثون انفسهم ويغنون ويقضمون الخبز . وكان فيهم رجل يذرع المكتبة جيئة وذهاباً ، وعلى رأسه قبعة من الورق . ولقد أحسستني بعيدة جداً عن قاعة درس المعهد : لقد ارتيمت أخيراً في الجاعة البشرية ، وجعلت أقول لنفسي بفرح : « هاأنذا ! لقد أصبحت طالبة حقيقية ! » وكنت أرثدي ثوباً اسكتلندياً جديداً ، وأتردد على أدراج المجموعات ، وأروح وأجيء فيخيّل إليّ اني كنت جذابة .

وكان في برنامج ذلك العام دراسة « لوكريس » و« ديدرو » وسواهما، ولو أنني كنت قد بقيت جاهلة كما كان يتمنى لي أهلي لكانت الصدمة شديدة . والظاهر أنهم تنبهوا لذلك . فقد كنت جالسة ذات مساء في المكتب تجاه أمي ، حين رأيتها تتلملح قليلاً ثم يحمر وجهها وتقول لي :

- هناك أشياء يجب أن تعرفها .
واحمر وجهي أنا أيضاً فقلت لها :
- اني أعرفها .

ولم يأخذها الفضول للاطلاع على مصادري ، فتوقفت محادثتنا عند هذا الحد ، وكان في هذا عزاء لنا كلتينا . وبعد بضعة أيام استدعني الى غرفتها ، وسألني بشيء من الارتباك أين أصبحت من وجهة النظر الدينية ، فاذا بقلبي يخفق ثم قلت :

- لم أعد أومن منذ بعض الوقت .

فتحلل وجهها وقالت :

- يا صغيرتي المسكينة !

ثم أغلقت بابها حتى لا تسمع أختي بقية حديثنا ، وأخذت تسرد لي دليلاً على وجود الله بصوت مبتهل ، ثم صدرت عنها حركة عجز وتوقفت والدموع في عينيها وأسفت أن أكون قد سببت لها ضيقاً . ولكن شعرت بعزاء : سيتاح لي أخيراً أن أعيش بوجه مكشوف .

وذات مساء رأيت حين نزلت من الاوتوبيس سيارة « جاك » التي اشتراها منذ مدة . فرقيت السلم قفزاً ، وكانت زيارات جاك لنا أقل مما كانت في السابق ، ولم يكن أهلي يغفرون له آراءه الادبية ، ولا شك في ان سخريتهم كانت تزعجه . لقد كان ابي يجعل ميزة الموهبة حكراً للادباء الذين كان يحبهم في شبابه، وكان يرى ان شهرة المؤلفين الاجانب أو المؤلفين المحدثين ليست الا من قبيل « السنويسم » . وكان يضع ألفونس دوديه فوق ديكنز بمراحل ، وحين كان يتحدث أحدهم عن الرواية الروسية ، كان يهز كتفيه لامبالياً ، وكانت جميع الآثار الانكليزية والسلافية والشالية تبدو له مزعجة تافهة . أما كتاب الطليعة وفنانوها ، فقد كانوا يقامرون على البلاهة البشرية بوقاحة . وكان يصف الذين يخالفون آراءه بأنهم « فرنسيون أردياء » والحق أن جاك

كان يتفادى مناقشته ، ويفضّل أن يمازح أبي وأمي ويحاذر أن يعالج أي موضوع . وقد ألمني ذلك ، لأنني كنت أراه ، حين يبدي بعض آرائه بالمصادفة ، يقول أشياء كانت تشغل فكري وتثير اهتمامي ، ولم أكن أجده مدعياً على الاطلاق ، وكان يعرف عن العالم والناس والرسم والادب أكثر مما كنت أعرف ، وقد وددت لو انه يفيدني من تجربته ، وقد جعل يناديني ذلك المساء كعادته ، بابنة عمه الصغيرة ، ولكن كان في صوته من اللطف ، وكذلك في بساطته ، ما ملأني سعادة لمجرد اني رأيت من جديد . وحين أويت الى فراشي ، ووضعت رأسي على الوسادة ، ففرت الى عيني الدموع ، فقلت لنفسي بافتتان :

— اني أبكي ، فأنا اذن أحب .

وقد كانت سن السابعة عشرة هي سن الحب . وفكرت بوسيلة اجتذب بها احترام جاك . وكان يعرف « روبر غاريك » الذي كان يقدم في معهد « سانت ماري » درس الأدب الفرنسي . وكان غاريك قد أسس حركة « الفرق الاجتماعية » التي أخذت على عاتقها نشر الثقافة في الطبقات الشعبية : وكان جاك رئيس احدى الفرق ، وكان يقدره : فاذا نجحت في أن اتميز في نظر استاذي الجديد ، واذا حدث جاك عن مزاياي ، فقد يكفّ جاك عن ان يعتبرني كطالبة لا شأن لها . وكان غاريك يتجاوز الثلاثين ، وكان أشقر خفيف الشعر يتحدث بصوت مرح ، وكانت تبهرنني دروسه عن « رونسار » . وقد عنيت العناية كلها بفرضي الانشائي الأول ، واكن الوحيدة التي تلتق التهانني على فرضها فتاة دينية كانت تتبع الدروس بثياب مدنية . ولم نكد ، زازا وأنا ، نأخذ أكثر من احدى عشرة علامة ، وكانت تيريز تتبعنا من بعيد . وكان المستوى الفكري لمعهد سانت ماري أرفع من مستوى معهد « ديزير » . وقد أوحى لي الآنسة لامبير التي كانت تشرف على القسم

العالي ثقة كبيرة . أما زميلاتي الجديديات ، فلم يظهرن لي أكثر مرحاً من القدمات ، وكن يتعلمن بالمجان ، ومقابل ذلك كنّ يؤمّن التدريس والنظام في الصفوف الثانوية. وكان معظمهن يعتمدن بمرارة أنهن لن يتزوجن أبداً ، وكان حظهن الوحيد في أن تكون لهن يوماً حياة رصينة هو أن ينجحن في امتحاناتهن : وكان هذا لهم يستولي عليهن . وقد حاولت أن أتحدث مع بعضهن ، ولكن لم يكن عندهن شيء يقلنه لي :

وفي تشرين الثاني بدأت أعدّ الرياضيات العامة في المعهد الكاثوليكي ، وكانت الفتيات يجلسن في الصفوف الأولى ، والفتيان في الصفوف الأخيرة . وكنت أجد وجوههم جميعاً محدودة . وأما في السوربون ، فكانت محاضرات الأدب تبعث في الملل . وكان الاساتذة يكتبون بأن يرددوا بصوت مائع ما سبق لهم أن كتبوه في رسائلهم للدكتوراه . ولكسي أتسلى كنت أراقب الطلاب والطالبات الجالسين حولي على المقاعد ، وكان بعضهم يجذبني ويثير اهتمامي . وكان يتفق لي عند الخروج أن أتابع بعيني مدة طويلة فتاة مجهولة كانت اناقتهأ أو جالها يدهشني . من ذا الذي ستمنحه تلك البسمة المرسومة على شفيتها ؟ وعدت أذكر ، وأنا أساير هذه الحيات الغريبة ، السعادة التي كنت أجدها طفلة اذ كنت أجلس على شرفة جادة «راسباي» . غير اني لم أكن أجروء على أن أحدث أحداً ، ولم يكن أحد يتحدثني ؟

ومات جدي في أواخر الخريف بعد احتضار طويل ، فاكتست أمي بالسواد ، وكستني به . فانزلت عن الناس وخيّل إلي اني مرصودة لوحدة بدأت تثقل عليّ . وكان الفتيان والفتيات ، في جادة سان ميشال يتنزهون جماعات ويتضاحكون . وكانوا يذهبون الى المقاهي والمسارح ودور السينما . أما أنا ، فكنت أقضي النهار كله في قراءة الأطروحات ، وكنت في المساء انصرف الى حل المسائل الرياضية . وكان أهلي يخالفون العادات إذ يوجهوني نحو عمل أكسب منه عيشي ، لا نحو

الزواج : ولم يكن وارداً عندهم أن يتركوني أخرج بدونهم ، ولا أن يوفروا عليّ الشكليات العائلية .

وكانت تسليتي الرئيسية طوال السنة هي في لقائي بصديقاتي : ولكنهن بدأن يبعثن في نفسي الملل ، باستثناء زازا . والواقع اني بدأت أشعر بأن حياة كل منهما أخذت تحيد عن حياتي : فبينما مضيت أنا الى أمام أنمي معارفي وإدراكي ، ظلن هنّ في أمكتهنّ بعد أن توجهن نحو الزواج :

وقد اعترف بعد قليل أن تلك السنة لم تحمل لي ما كنت أصبو اليه؛ فبالرغم من ان جنوري قد انبتت عن ماضي ، فاني لم أكتشف أي أفق جديد حقاً . وكنت من قبل قد عودت نفسي أن أعيش في القفص لانني كنت أعلم أن يوماً سيأتي يفتح فيه الباب ، ولكن هأنذا أجتازه ، ولا أراني الا سجينة بعد . فأية خيبة ! لم يكن هناك أي أمل واضح بملكي : لم يكن لذلك السجن من قضبان ، ولذلك لم أكن أستطيع أن أعرف مخرج له : لعله أن يكون له مخرج ، ولكن أين ومتى أبلغه ؟ كنت كل مساء أحمل قمامة الاقذار وأهبط بها لافرج في الصندوق القشور والرماد والورق الممزق ، وكنت دائماً أنظر الى السماء وأسائلها : وكنت أقف عند مدخل البناية ، فأرى واجهات مضيئة ، وسيارات تجري في الشارع ، وسابلة يمرّون . وكان الليل في الخارج يتنفس ، فكنت أصعد الدرج وأنا أضغط بنفور على قبضة القمامة اللزجة وحين كان أهلي يخرجون للعشاء في المدينة ، كنت أسارع مع أخي الى الطريق ، فنذرعه بلا غاية ، ونحاول ان نلتقط صدى أو شعاعاً من الحفلات الكبيرة التي كنا منفيّتين عنها ..

وبدأت أضيّق بأسري في البيت ، وكانت أمي تصلّي من أجلي نحو السماء . وكانت هنا في الأرض تنن أسفاً على ضلالي . وكانت كل صلة قد انقطعت ما بيننا . وكنت على الاقل أعرف أسباب ذلك . أما

أبي ، فكان جفاؤه يثير دهشتي ، فقد كان عليه ان يهتم بيهودي
وتقدمي وأن محدثي بصدقة عن المؤلفين الذين كنت أدرسهم ، ولكنه
في الواقع لم يكن يظهر لي الا اللامبالاة ، بل نوعاً من العداء الغامض ،
وكانت ابنة عمي جان قليلة الصبر على الدراسة ، ولكنها كانت كثيرة
الابتسام وشديدة التأدب . فكان أبي يردد أمام الجميع أنه كان لأخيه
فتاة لذيذة ، ثم ينتهتد ... وكان ذلك يغيظني ، ولم أكن أدري سبب
سوء التفاهم هذا الذي كان يفصل بيننا والذي ثقل كثيراً على حدثاتي ،

٢

كانوا ، في وسطي ، يعتبرون غير مناسب أن تدرس الفتاة دراسة
عالية ، أما أبي فكان يقول لي ولأختي أحياناً ، والمرارة في صوته :
- انكما لن تتزوجا يا صغيرتي ، فيجب أن تعملنا .

وكانت خير ساعات الأسبوع عندي محاضرة « غاريك » الذي كان
يزداد اعجابي له . وكان قد أهمل انجاز أطروحته وكرّس نفسه لفرقه
الاجتماعية . وكان يعيش عيشة زهد في بناية شعبية ، وغالباً ما يلقي
محاضرات للدعوة لفكرته . وقد حضرنا ، أمي وأنا ، احدى هذه
المحاضرات بواسطة جاك . وحين ظهر غاريك نسيت كل شيء ، وسحرتني
صوته القوي . وقد شرح لنا يومذاك أنه كان وهو في العشرين قد
اكتشف في الخنادق مباحج صداقة تنسف جميع الحواجز الاجتماعية ،
ولم يقبل أن يحرم نفسه هذه المباحج بعد أن وضعت الحرب أوزارها .
وكان يعتقد بأن لجميع الناس الحق بالثقافة ، وان بين الناس جميعاً ،
بالرغم من فروقهم قاسماً مشتركاً . وهذا ما دفعه الى ان يخلق بين
الطلاب وبين أبناء الشعب نظاماً من المبادلات ينتزع الاولين من وحدتهم
والآخرين من جهلهم . فاذا تعلموا ان يتعارفوا وان يتحابوا ،

فهم سيعملون جميعاً لإشاعة الصلح بين الطبقات . وأكد غاريك ، وسط التصفيق ، أنه ليس من الممكن أن يخرج التقدم الاجتماعي من صراع تكوّن بذرته الكراهية والحقد ، وإنما هو يتم عبر الصداقة . وكان قد جمع حول برنامجه رفاقاً أعانوه على تنظيم مركز ثقافي في «رويبي» ، وما لبثوا أن تلقوا الاعانات فاستعت الحركة ، حتى شملت عشرة آلاف عضو ما بين فتیان وفتيات مع الف ومئتي مدرب . وكان غاريك نفسه كاثوليكياً مؤمناً ، ولكن لم يكن يفرض أي اتجاه ديني ، وقد كان بين مساعديه عدد من الذين فقدوا إيمانهم ، وكان يؤمن بأن على البشر أن يتعاونوا على الصعيد الانساني ، وأنهى حديثه بصوت مرتعش قائلاً ان الشعب يكون حسناً ما أن يُعامل معاملة حسنة ، فاذا رفضت البورجوازية أن تمتد له يدها ، فسترتكب خطأ فادحاً لا بد ان تترد عليها عواقبه الوخيمة .

وكنت أشرب كلماته التي لم تكن تفسد عليّ عالمي ، ولا تجلب عليّ الشك في نفسي . صحيح أنهم كانوا يدعون حولي الى التفاني والاخلاص ولكن ذلك كان يقتصر على المحيط العائلي . أما خارج ذلك ، فالآخرون ليسوا أقرباء . وكان العمال خصوصاً ، في رأي هذا المحيط ، نوعاً غريباً لا يقل خطره عن الألمان والبولشفيك . وكان غاريك قد كنس الحدود حتى لم يبق في رأيه على الارض الا مجتمع عظيم كان جميع أفراده أخوة لي . ولقد كهربي هذا الشعار : أن أنكر جميع الحدود وجميع الفوارق ، وأن أخرج من طبقتي ، وأن أخرج من جلدي . ولم أتصور أن بإمكاننا أن نخدم الانسانية خدمة أجدي من أن ننشر عليها النور والجمال . ووعدت نفسي بأن أتسجل في «الفرق» ، ورحت أتأمل باعجاب المثال الذي قدمه لي غاريك : لقد التقيت أخيراً برجل اختار حياته بدل ان يخضع للقدر . لقد كانت حياته - بعد اذ رُسم له هدف ومعنى - تجسد فكرة . وذلك الوجه المتواضع ذو البسمة الحية ، انما كان

وجه بطل ، وجه انسان أعلى .

وعدت الى البيت منتشية متحمسة ، ونزعت معطفي وقبعتي الأسودين حين تسمرت فجأة ، اذ سمعت صوتاً آمراً يقول « يجب أن أضع حياتي في خدمة الناس ! يجب أن أضع حياتي كلها في الخدمة ! » كانت هناك مهام غير محدودة تنتظرنني ، كنت مطلوبة كلياً . فاذا سمحت لنفسني بأي تبذير أو اسراف ، فاني أخون مهمتي وأسيء الى الانسانية . وقلت لنفسني ، وفي حلقي غصة : « ان حياتي كلها ستخدم » وكان هذا قسماً نطقت به في انفعال شديد كما لو أنه يلزم مستقبلتي كله ازاء السماء والارض .

ولم أكن أطيق اضاءة الوقت ، وكنت مع ذلك آخذ على نفسي اني قضيت حياتي السابقة في طيش ، ورحت بعد ذلك استغل وقتي كله ، فأصبحت أنام أقل من قبل ، وأتريّن بسرعة حتى لا أفعل أكثر من أن أنظف أسناني ، وانقطعت عن ان أنظر الى المرأة ، وحرمت على نفسي القراءات الخفيفة والترنات النافهة وجميع ألوان التسلية . ولولا اعتراض أُمِّي لعدلت كذلك عن تمرينات التنس . وكنت إذا ما جلسنا للطعام ، أحمل معي كتاباً فأتعلم الافعال اللاتينية وألتمس حلاً لمسألة حسابية . وقد اغتاض أبي من ذلك ، فأصررت ، فتركني وشأني مشمئزاً . وحين كانت أُمِّي تستقبل بعض صديقاتها ، كنت أرفض أن أدخل الصالة ، وكانت أحياناً تغضب ، فأرضخ لها ، ولكني أظل جالسة على طرف الكرسي ، أشد على أسناني ، وأبدو بهيئة نفور شديد حتى أنها كانت تفضل أن تطلق سراحي . وكان الجميع يستغربون صمتي وقلة أدبي ، حتى أصبحوا يعتبروني نوعاً من الشياطين . ولا شك في اني اتخذت هذا الموقف بدافع التحدي ، ان أهلي لم يكونوا يجلدوني على ذوقهم ، فلم يكن لي مفر من ان أبدو كريمة . كانت أُمِّي تلبسني ثياباً رديئة ، ويعني عليّ أبي أن أرتدي ثياباً

ردية . ولم يحاول أن يفهماني ، فاستغرقت في الصمت والانغلاق . وفي الوقت نفسه كنت أدافع عني الضجر . لقد حرمت من اللذات ، فاخترت الزهد ، وقسوت على نفسي في الدراسة وكان التعب يمنحني شعوراً غامراً من الاكتفاء . وكنت قد واعدت نفسي على ان أتجنب التفاهة اليومية الفظيعة ، فحوّل مثال « غاريك » هذا الامل الى ارادة . ورفضت أن أصبر أكثر من ذلك . فسلكت من غير انتظار أطول طريق البطولة .

و كنت كلما رأيت غاريك جدّدت عزمي وارادتي . وكنت أنتظر مجيئه ، والعجاف في حلقي ، وأنا جالسة بين زازا وتيريز . وكان يزعج زازا ان يأتي غاريك متأخراً دائماً . وكم وددت أنا لو أعرف عنه كل شيء ، ولا سيما حياته النفسية . وقد كسفت مزايا غاريك في تلك الفترة سحر جاك : أتراني قد التقيت بقدري ؟ الواقع أن غاريك كان متزوجاً ، وكان هذا صدمة لي وأصبح همي أن أكون حاضرة فقط في حياته ، وقد بلغت ذلك ، اذ ما لبثت ان انتزعت تهانته على فروضي ودروسي . وكانت زازا تجد اعجابي به مبالغاً فيه ، وكانت في هذه الاثناء تخرج قليلاً وتخصص معظم وقتها لعائلتها ، غير مبتعدة عن العادات القديمة . وأحسنتي أنفصل عنها قليلاً . وبعد عطلة عيد الميلاد التي قضيتها في الريف ستمطت في جمود عجيب ، فكانت تحضر الدروس ميتة النظر ، ولا تضحك قط ولا تكاد تتكلم . ولم يكن الاهتمام الذي كنت أوليه حياتها ، تلك التي أصبحت هي نفسها لا تكترث بها ، ليجد في نفسها أي صدى .

— إن كل ما أرغب فيه هو أن أنام حتى لا أستيقظ بعد أبداً .
هذا ما قالته لي يوماً ، فلم أعلق عليه أية أهمية . كنت أعرف أنها تجتاز بين فترة وفترة أزمات يائسة ، فكنت أعزو ذلك الى الخوف الذي كان المستقبل يوحيه لها . ولم يكن ذلك العام الدراسي إلا فترة تأجيل :

فان القدر الذي كانت تخافه كان يقرب ، ولربما لم تكن تجد القوة لا على الخضوع له ولا على المقاومة ، فكانت اذ ذاك تتشد انتفاء الهم في الغيبة والغفلة . وكنت آخذ عليها انهزاميتها ، وكانت هي تجد في تفاولي دليلاً على أنني كنت أنسجم مع الوضع القائم . وبالرغم من أننا كنا مقطوعتين عن العالم ، هي بيأسها ، وأنا بألمي المجنون ، فان وحدتنا لم تكن لتوحدنا ، بل على العكس كانت إحدانا تحذر الأخرى بغموض و كان الصمت يكثف ما بيننا .

وأما أختي فكانت سعيدة ذلك العام ، وكانت تعد شهادتها للبيكالوريا وكانوا يتسمون لها في معهد « ديزير » ، وكانت لها صديقة جديدة تحبها وقد قلّ اهتمامها بي ، وكنت افترض انها ستصبح عما قليل بورجوازية صغيرة هادئة ، وكان أهلي يقولون « بوييت ... سوف نزوجها » .. ومهما يكن من أمر ، فانها لم تكن إلا طفلة بعد ، ولم أكن أحدثها بشيء .

كان بوسع انسان آخر ان يساعدي : جاك . وقد أنكرت الدموع التي ذرفت ذات ليلة بسرعة . كلا .. اني لم أكن أحبه ، واذا كنت أحب حقاً ، فليس هو ، ولكني كنت أطمع في صداقته . وقد كنا ذات مساء نتناول العشاء لديهم ، وحين حان وقت الجلوس الى الطاولة تأخرنا قليلاً ، أنا وجاك ، في الصلاة ونحن نتحدث . فما كان من أمي إلا ان نادتي بلهجة جافة . فقال لها جاك بابتسامة يسيرة : المعذرة .. لقد كنا نتكلم عن « الموسيقى الداخلية » لـ « شارل موراس » وأكلت ذلك المساء بجزن . كيف كان لي أن أعلمه أنني لم أعد أسخر من الأشياء التي لم أكن أفهمها ؟ فلو أنه شرح القصائد والكتب التي يحبها لاستمعت اليه . « كنا نتكلم عن الموسيقى الداخلية » .. لقد رددت كثيراً هذه العبارة ، متذوقة مرارتها التي كانت تنفذ منها نكهة أمل . ونجحت في شباط في شهادة الأدب ، فهنأني غاريك . وبعد

أيام ، تناول جاك العشاء عندنا . وقرب نهاية السهرة ، انتحى بي جانباً وقال لي :

— لقد رأيت غاريك أول أمس ، وقد تحدثنا عنك طويلاً .
ثم طرح عليّ عدة أسئلة عن دروسي ومشاريعي بلهجة اهتمام ،
وانتهى إلى القول :

— سأصحبك صباح الغد لنقوم بنزهة بالسيارة في الغابة .
وشعرت بقلبي يخفق . لقد نجحت ضربتي ، وها هو جاك يهتم بي .
وكان ذلك في صباح ربيعي جميل ، وهأنذا وحدي مع جاك في
سيارة نظوف بالبحيرات . وكان يضحك في وجهي . وقد سألني
لحظة :

— أتخبين التوقف المفاجئ ؟
ثم توقف فجأة بالسيارة فاصطدم أنفي بالواجهة ، وانفجرنا ضاحكين .
إن بوسع من كان في عمري إذن ان يستبقي مرح الاطفال ! وأخذنا
نتحدث عن طفولتنا . وقال لي بفرح :

— كم جعلتك تمشين يا مسكيتتي سيم !
وحاولت أيضاً ان أحدثه عن متاعبي ومشاكلي . وحوالي الحادية
عشرة وضعني أمام ملعب التنس وابتسم لي بخبث وهو يقول :
— تستطيعين ، كما ترين ، ان تمرحي وتتسلي ، ولو كنت حاملة
ليسانس !

وعبرت ملعب التنس بخطوة منتصرة : لقد حدث شيء ما ، لقد
بدأ شيء ما . واعدلت أمام رفيقاتي : « اني آتية من غابة بولونيا » .
وتحدثت عن نزهي باندفاع وخفة حتى ان زازا أخذت تتفحصني بعين
مرتابة :

— ماذا بك هذا الصباح ؟

— لقد كنت سعيدة .

وحيث دق جاك بابنا في الاسبوع التالي ، كان أهلي قد خرجوا ، وكان في مثل هذه الحالات يمازحنا ، أنا وأختي ، فترة من الوقت ثم يمضي . ولكنه بقي يومذاك . وأنشدنا قصيدة من شعر « كوكتو » ، وأعطي بعض نصائح للمطالعة ، ثم عدد مجموعة من الاسماء لم يسبق لي أن سمعتها قط ، وأوصاني خصوصاً بقراءة رواية عنوانها « مولن الكبير » . وحيث غادرنا ، قال لي :

— مرّياً غداً بعد الظهر ببيتنا ، فأعيرك بعض الكتب .
وقد استقبلتني في اليوم التالي الخادمة العجوز « اليز » وقالت لي :
— إن جاك غير موجود ، ولكنه ترك لك في الغرفة بعض الأشياء :
وكان قد كتب كلمة صغيرة : « اعذرني يا سيم ، وخذي الكتب » ،
ووجدت على طاولته زهاء عشرة كتب من مؤلفات مونترلان وكوكتو
وباريس وكلوديل وفاليري . وكانت كتب كثيرة قد مرت بين يدي ،
ولكن هذه لم تكن تنتمي للنوع العادي : كنت انتظر منها اكتشافات
عجيبة . وقد دهشت حين فتحتها إذ وقعت فيها على كلمات مأثوفة ،
غير أنها لم تخب أملي ، وإنما بهرتني واستخفّت بي . والواقع اني
كنت من قبل أعتبر الكتب الادبية مباني كنت انقبّ فيها باهتمام ، وكنت
أعجب بها أحياناً ، ولكنها لم تكن تعينني . وفجأة إذا برجال من لحم
ودم يحدثونني فماً لأذن ، عن أنفسهم وعني . كانوا يعبرون عن
اماني ، وعن ثورات لم أعرف ان اعبر عنها ولكني أعرفها . وجعلت
أقصد مكتبة سانت جانيفاف فأقرأ « جيد » و « كلوديل » و « جامس »
وفي رأسي نار ، وفي صدغي خفقات وأكاد اختنق من الانفعال والتأثر .
واستنفدت مكتبة « جاك » ، واشتركت في « دار أصدقاء الكتب » . فلم
أكن أكتفي بأخذ الكتابين اللذين كان يحق لي أن آخذهما ، بل كنت
أخفي في محفظتي اربعة أو خمسة أخرى ، وكانت الصعوبة هي في أن
أردّها إلى مكانها من الرفوف ، وكنت أخشى ان يفوتني ارجاع أحدها .

وحين كان الجو يصفو ، كنت أقصد « اللكسمبورغ » فأسير تحت الشمس منتشية ، وأنا أردد عبارات كانت تروق لي . وكنت غالباً ما أجلس في « قاعة العمل » بالمعهد الكاثوليكي الذي كان يمنحني ملجأ صامتاً ، على بعد خطوات من بيتي . وهناك ، قرأت والدموع في عيني رواية « مولن الكبير » . واستغرقت في القراءة كما استغرقت بالماضي في الصلاة . واحتل الأدب في حياتي ما كان يحتله الدين سابقاً ، فملأها كلها وغيرها ، وأصبحت الكتب توراة كنت أستمد منها النصائح والعون ، وانقل مقاطع طويلة ، وأحفظ عن ظهر قلب أناشيد جديدة وامثالاً ونبوءات ، وكانت انفعالاتي ودموعي وآمالي صادقة ، ولم تكن الكلمات والأشعار والآيات تفيدني في التصنع ، وإنما كانت تنفذ من الصمت جميع هذه المغامرات الحميمة التي لم أكن أستطيع ان أحدث بها أحداً ، فكانت تخلق بيني وبين الأرواح الشقيقة التي توجد في مكان ما نوعاً من التواصل والتواجد ، فكانت أشارك في ملحمة روحية كبيرة بدلاً من أن أعيش قصتي الخاصة . وطوال أشهر ، رحت أتغذى بالأدب ، وكان ذلك هو الواقع الوحيد الذي كان ممكناً لي أن ابشره .

واستاء أبي وأمي من ذلك . وكانت أُمي تصنّف الكتب إلى فئتين : الكتب الرصينة والروايات . وكانت تعتبر الروايات تسلية عابثة ، وتنعي عليّ ان ابذر وقني مع مورياك وجيروودو وبروست . وأما أبي فقد حكم على مؤلفي هذه الكتب ، بعد أن قلبها بأنهم مدّعون منحلّون لا أخلاقيون . وعاتب جاك لأنه أعارني هذه الكتب . وهكذا فقد ابي وأمي وسائل مراقبة مطابعاتي ، وان كان ذلك لم يمنعها من التعبير عن الغيظ والحق ، وكنت أغضب لهذا الهجوم . وهكذا استشرى النزاع الذي كان يستكنّ فيما بيننا .

خيّل إليّ ذات لحظة أن انقطاعاً حاسماً قد جرى في حياتي ، إذ بدأت اهتم بحالاتي النفسية أكثر من اهتمامي بالعالم الخارجي . وأخذت أكتب مذكراتي ، وسجلت على الصفحة الاولى : « إذا قرأ أحد هذه للصفحات ، أياً كان ، فاني لن أغفر له ذلك ابداً . الرجاء احترام هذا التنبيه ! » واهتممت بالغ الاهتمام بأن أخفيه عن جميع العيون، ونقلت اليه مقاطع من الكتب الأثيرة عندي ، ورحت اسائل نفسي وأحللها واهنتها بما طرأ عليّ من تغيير . ولكن ما هو هذا التغيير على الضبط ؟ إن مذكراتي لا تعبّر الا تعبيراً رديئاً . فقد صمت عن أشياء كثيرة ، ومع ذلك ، فهناك بعض الوقائع التي تقفز إلى عيني حين أعيد تلاوتها .

« اني وحيدة . إن الانسان وحيد دائماً . وسأبقى وحيدة دائماً . » اني أجد هذا الشعار في كل صفحة من المذكرات . وأنا لم أفكر في هذا قط . وكنت أقول أحياناً بفخر : « اني فتاة حرة أخرى » ولكني كنت أرى في مفارقاتي علامة التفوق التي سيعترف بها الناس جميعاً ذات يوم . لم يكن عندي أي شيء من الفتاة النائرة . كنت أود أن أصبح أحداً ، وان أعمل شيئاً ، وان أتابع بلا انقطاع ما بدأت من تصعيد منذ ولادتي ، فان عليّ ان أنزع نفسي من الروتين . وبدأت أصارح من حولي بأرائي . وكنت أرفض وجهة نظر أبي في الزواج ، فلن أكن أقرّ ان يحدّج احد الزوجين الآخر : فاذا لم يكونا متلائمين فينبغي ان يفترقا . وكان الرجال والنساء في نظري على مستوى واحد وينبغي أن يقوم بينهما تبادل كامل . وكنت انفر من موقف أبي تجاه «الجنس الضعيف » وبالأجمال كنت انفر من طيش العلاقات ومن الغراميات ومن الخيانات البورجوازية . وقرأت ذات يوم مشدوهةً بأن الاجهاض

يعتبر جنحة ؛ إن ما يجري في جسمي لا يعني احداً سواي ، وليست هناك حجة تغيير رأبي في هذا . وكنت أرفض التمييزات والدرجات والقيم التي تتميز بها النخبة ، ولم يكن نقدي يهدف ، كما كنت أحسب ، إلاً إلى تحريرها من الرواسب التافهة . وكان هذا النقد في الواقع يرمي إلى تصفيتها . فقد كان الفرد وحده يبدو لي حقيقياً ، هاماً ، وكان هذا يفضي بي بالضرورة إلى تفضيل المجتمع في مجموعه على طبقتي الخاصة ، ومهما يكن من أمر ، فيبدو اني أنا التي بدأت العدوان على محيطي وكنت أجهل ذلك ، ولهذا لم أكن أفهم لماذا كان أبي ومحيطي يحكمان عليّ . لقد سبق للبورجوازية ان أقنعتني ان مصالحها تتمزج مع مصالح الانسانية ، وكنت أحسب ان باستطاعتي بالاتفاق معها ان أبلغ حقائق تصحّ على الجميع . ولكن كان يكفي ان أقرب من هذه الحقائق ، حتى كانت البورجوازية تنتصب ضدي ، فأحسنتي مروعة مضلّلة . وهكذا وجدتي ضحية ظلم شديد ، وبدأت ضغيتي تنقلب إلى ثورة . لم يكن هناك من يقبلي كما كنت ، ولم يكن هناك من يحبني : ولقد عزمت على ان أحب نفسي لأعوّض هذا الترك . سوف ازدوج ، وانظر إلى نفسي وارصد ذاتي . وقد تحاورت مع نفسي في « مذكراتي » ، وتعلمت الشكوك والتردد وتمتمة الامل الخفية . وكنت المنظر والنظر ، ولم أكن موجودة إلاً بي ومن أجلي . وقد سعدت بمنفى أبعدني إلى مثل هذه المباحج الرفيعة ، وكنت أحتقر اولئك الذين كانوا يجهلون هذه المباحج وتأخذني الدهشة ان أكون قد قضيت هذا الوقت الطويل دونها . على اني ظلت على غايتي : ان أخدم . ورأيتني أحتسج في دفكري على « رينان » وارى ان الانسان العظيم نفسه ليس غايةً في ذاته : إنه لا يبرّر نفسه إلا إذا شارك في رفع مستوى البشرية العامة الفكري والمعنوي . وكانت الكاثوليكية قد أقنعتني بالاّ اعتبر أي فرد ، مهما انحطّ منزلته ، شيئاً مهماً : فالجميع يتمتعون بحق ان يحققوا ما كنت

اسميه جوهرهم الخالد . لقد رسم طريقي بوضوح : ان اكمل نفسي وأغنيها وأعبّر عن نفسي في عمل يعين الآخرين على الحياة .
وبدا لي ان عليّ ان انقل إلى الآخرين التجربة المتوحّدة التي كنت أجتازها ، فكتبت في نيسان الصفحات الاولى من رواية . وكانت هذه الصفحات تروي أنني ، تحت اسم « إيلان » ، كنت أتتزه مع بعض أقربائي في حديقة ، وانحنيت فجأة فتناولت علبة على الأرض . وقالوا لي إنها « ساعة » فأغلقت يدي باحكام وحرص ، وزحمتني فقاومتهم وفررت ، فاذا هم يلحقون بي ، فدللت إلى الغابة لاهثة خافقة القلب حتى غبت عنهم ، فأخذت أبكي على مهل . وما لبثت ان جففت دموعي وأنا أتتم : « لن يعرف أحدٌ أبداً » ثم عدت رويداً إلى البيت . « وكانت تحس بأنها تملك من القوة ما يكفيها للدفاع عن ثروتها الوحيدة ضد الضربات وضد الملاحظات ، ولأن تبقي يدها مغلقة دائماً . »

كانت هذه المقدمة تترجم أعمق همومي : ان أحمي نفسي من الآخرين ، وحتى من أهلي . لقد كنت في نظر أمي روحاً ضالة ، روحاً للانقاذ . وحين كانت تطرح عليّ سؤالاً ، كنت أشعر بأنها تنظر من ثقب قفل . وكان يغيظها ان أظلّ صامتة دائماً وتقول في ذلك : « إن سيمون تفضل ان تقف عارية تماماً على ان تقول ما في رأسها . » وحتى مع أبي ، انقطعت عن المناقشة ، لأن حججي معه كانت تصطدم بجدار ، وكانا لا ينفكان يتهماني بالعقوق . وكنت غالباً ما أبكي حين آوى مساءً إلى سريرتي ، وفكرت لحظة في ان أكذب ولكنني عجزت عن ذلك ، وأدرت أخيراً انه لا مفر لي ، إذا اردت ان أفهم العالم ، وان أجد نفسي ، من ان اهرب منهما .

وكان مؤلماً ان أدرك فجأة اني أخوض الصراع حين كنت أحسبني أتقدم على طريق منتصرة ، واستشعرت من ذلك صدمة قضيت وقتاً طويلاً حتى زالت عني آثارها . وقد ساعدني الأدب على ان انتقل من

الضيق إلى الكبرياء . « ايتها العائلة ! اني اكرهك ! » وجعلت اقسام كتاب الجيل الجديد من أمثال باريس وجيد وفاليري وكلوديل آراءهم ، وأقرأ بحماسة جميع الروايات والدراسات التي تقع تحت يدي عن آثارهم . ومن الطبيعي ان أجد نفسي عبر كل منهم ، لاننا كنا من الشاطئ نفسه . لقد كانوا يشعرون مثلي ، وهم البورجوازيون مثلي ، أنهم غير مستقرين في جلودهم . وكانت الحرب قد هدمت أمنهم من غير ان تنزعهم من طبقتهم ، فثاروا ولكن ضد ذويهم واسرتهم وتقاليدهم فحسب . وكانوا قد اشمأزوا من « حشو الرأس » الذي أخضعوا له أثناء الحرب ، فأخذوا يطالبون بحقهم في ان ينظروا إلى الاشياء وجهاً لوجه وان يسموها باسمائها ، ولما لم يكن قصدهم على الاطلاق ان يقبلوا المجتمع ، فقد اكتفوا بأن يدرسوا حالاتهم النفسية درساً دقيقاً ، وان يدعوا إلى « الصراحة تجاه النفس » وطرحوا الكليشيات والاشياء العامة المألوفة ، ورفضوا الحكم القديمة التي أدركوا إفلاسها ، ولكنهم لم يحاولوا ان يبنوا بديلاً عنها ، وكانوا يوثرون ان يؤكدوا بأنه ينبغي ان لا يكتفي المرء بشيء ، وكانوا بذلك بمجدون القلق .

وكنت في مثل وضع هؤلاء : كنت أنفصل عن الطبقة التي أنتهي إليها ، ولكن إلى أين أذهب ؟ لم يكن وارداً أن أهبط إلى « الطبقات الدنيا » ، وكان بالامكان بل من الواجب مساعدة هذه الطبقات على الارتفاع .. ولما لم أكن أرى في العالم أي مكان يناسبني ، فقد كان يسعدني ان أفكر بالألا استقرّ في أي مكان . كنت أرصد نفسي للقلق ، وأما الصراحة ، فكنت أنشدها منذ طفولتي . لقد كان من حولي يشجب الكذب ، ولكنهم كانوا يتملصون بعناية من الحقيقة . وإذا كنت اليوم أجد هذه الصعوبات الكثيرة في أن أتكلم ، فلأني كنت أنفر من أن استعمل العملة المزيّفة المتداولة في محيطي . ولقد عجّلت كذلك في اعتناق اللاأخلاقية . لم أكن أوافق طبعاً على أن يسرق المرء بدافع الفائدة

أو أن يرتمي على سرير من أجل اللذة ، ولكن إذا كانت الآثام والعيوب مجانية ، يائسة ، ناثرة - وخيالية بالطبع - فقد كنت أتقبلها دون تردد ، كما أتقبل الاغتصابات وأعمال القتل . لقد كان ارتكاب الشر أحسن طريقة لرفض أية مشاركة مع رجال الخير . وهكذا ، فإن اللاأخلاقية لم تكن فقط تحدياً للمجتمع ، وإنما كانت تتيح أيضاً بلوغ الله . وقد كان المؤمنون والملحدون يستعملون هذا الاسم الذي كان يعني في نظر الاولين حضوراً لا يمكن إدراكه ، وفي نظر الآخرين غياباً مدوخاً : ولم يكن في ذلك أي فرق ، ولم أجد مشقة في أن أخلط بين « جيد » و « كلوديل » ، فان الله لديمها كليهما كان يحدّد بالنسبة للعالم البورجوازي على أنه « الآخر » ، وكل ما كان « آخر » كان يكشف عن شيء ما إلهي . فليس هناك من مسافة كبيرة بين توضحية تفوق قدرة البشر وبين جريمة مجانية . المهم هو ان ينتزع المرء نفسه من الأرض ، وإذ ذاك يلمس الخالد السرمدى .

٤

لم أنقطع عن حضور دروس « غاريك » ، ولم أكف عن التفكير بهذا الرجل الذي يختلف عن سائر الرجال . انه لم يكن « قلقاً » ولكنه لم يكن ينام : لقد وجد طريقه . ليست له اسرة ولا مهنة ولا روتين ، وليس في أيامه أية حثالة : لقد كان وحيداً ، وكان حرّاً ، وكان يعمل من الصباح حتى المساء فيضيء ويحترق . وكم وددت لو أحتدي به ! وأيقظت في قلبي « روح الفِرَق » فكنت انظر بحبّ إلى جميع المارة . وحين كنت أقرأ في « اللكسمبورغ » ، ويجلس إلى جانبي على المقعد أحد الناس ويبادرني الحديث ، كنت أسرع في الاجابة عليه . وكنت أشعر بسرور خاص حين ألتقي « بأشخاص من الشعب » ، فيخيّل إليّ

أحياناً أنني أطبق تعليمات « غاريك » . لقد كان وجوده يضيء أيامي :
على اني ما لبثت أن شعرت بأنني كفتت عن أن أخص حياتي ،
وكنت أقول لنفسني انني عما قليل سأنقطع عن رؤيته . وفيما كنت أعمل
جاهدة على ان احتفظ به في حياتي ، كنت اتركه ينتقل إلى المكان الثاني
من اهتمامي : ذلك ان جاك عاد يحتل المركز الاول . لقد كان غاريك
معبوداً بعيداً ، وأما جاك فقد كان يهتم بشؤوني ، وكان عذبا لي ان
أحدثه .

وفي تلك الفترة ، كنت أفضل أن أدهش على أن أفهم ، فلم
أحاول ان أموضع جاك ولا أن أشرحه .

وكان جاك يكره العمل ودراسة الحقوق ، ويجب الرسم والنقش على
الخشب . ولكنه لم يكن يفكر بأن يتخذ من ذلك مهنة له ، وانما كانت
له مطامح كثيرة في الزجاجيات التي ورث أعمالها عن جده وأبيه
بالرغم من أن خاله كان يتولى ادارة المصنع بمهارة . وكان اقرباؤنا
يفضلون له أن يترك هذا العمل لخاله ، وكان أبي يقول :

— إذا تدخل في إدارة المصنع فسيخرب البيت .

أما أنا ، فكنت ارى انه يبحث عن قدره . لقد كان يحب « مولن
الكبير » وقد جعلني احبه . وكنت أشبهه به دائماً . ولقد رأيت في جاك
تجسيدا مرهفاً للقلق والخيرة .

وكنت غالباً ما أقصد بيتهم للعشاء عندهم مع اسرتي . وبخلاف
كثيرين حولي ، لم تكن الخالة جرين ولا تيتيت تعتبراني قبيحة ،
وبالقرب منها كانت خيوط حياتي تنعقد من جديد ، فلم أكن أشعر
بأنني بعد منفيّة . وكنت قد عقدت مع جاك بعض الأحاديث الخاصة
التي تأكدت فيها مشاركتنا الروحية . ولم يكن أهلي ينظرون اليها نظرة
سيئة . وكانت لهم تجاه جاك عواطف ملتبسة : فقد كانوا يعتبرون عليه
ان ينقطع عن المجيء إلى البيت ، وان يهتم بي أكثر مما يهتم بهم .

على أنهم كانوا واثقين من اني سأغنم غنيمة منتظرة إذا تزوجني جاك !
وكلما كانت أمي تلفظ اسمه ، كانت ترسم على شفثيها بسمة خفية ،
فيثور غضبي لمحاولتهم تحويل تفاهم قائم على رفض مشترك للآفاق
البورجوازية إلى صنفقة بورجوازية . غير اني وجدت من المناسب أن تكون
صداقتنا بعيدة عن الإثم وان يُسمح لي بروية جاك وحيدين .

وكنت أدق باب بيتهم بصورة عامة قبيل الغروب ، وكان جاك
يستقبلني بابتسامة فأسأله :

— هل تراني ازعجك ؟

— انك لا تزعجيني ابداً .

— كيف الحال ؟

— انه دائماً على ما يرام حين اراك .

وكان لطفه بيتّ الدفء في قلبي . وكان يصحني إلى الرواق الطويل
الذي أقام فيه طاولة عمله ، فأجلس على أريكة يغطيها القטיפ ، وأتأمله
وهو يذرع الرواق جيئة وذهاباً ، وبين شفثيه سيكاراة ، يغمز بعينه
عبر دخانها عن فكرته . وكنت ارد له الكتب التي اعارني اياها
فيعبرني غيرها ، ويقرأ لي مقاطع من « ملارميه » و « فرانسيس جامس »
و « ماكس جاكوب » ... وقد سأله ابي يوماً بصوت لا يخلو من سخرية :

— أراك تحببها بالأدب ؟

فأجابه جاك :

— كم يسعدني ان تحبّه فعلاً .

وكان يهتم بهذه المهمة اهتماماً كبيراً ، ويقول لي بفخر احياناً :

— مهما يكن من أمر ، فقد علمتك أشياء جميلة .

وكنت إذا سألته إيضاحاً لبعض ما غمض عليّ يجيبني مستشهداً بكلمة
لكوكتو : « ان هذا يشبه حوادث القطر الحديدية : انه يُحسّ ولا
يُشرح » . على انه احياناً كان يصوّر لي بدقة بعض تفاصيل لوحة :
ضوءاً أصفر في زاوية ، أو يداً تتفتّح على شاشة ، وكان صوته يوحي

بالانهاية . وقد قدم لي ذات يوم اشارات ثمينة عن الطريقة التي يحسن بها النظر إلى لوحة لبيكاسو . وكان يدهشني إذ يعرف لوحة لماتيس أو لبراك من غير ان يقرأ التوقيع .

ولكن ما الذي كان يفعله حقاً ؟ ما كانت مشاريعه وهمومه ؟ إنه لم يكن يعمل كثيراً وكان يحب ان يتوغل بسيارته عبر باريس في الليل . وكان يتردد إلى مطاعم الحي اللاتيني ومشارب مونبارناس . وكان يصف لي المشارب كأمكنة اسطورية يحدث فيها دائماً شيء ما . ولكنه لم يكن مسروراً جداً من حياته . وكان يقول لي وهو يبتسم :

— اني معقد بصورة مريعة .. وأنا نفسي أضيق في تعقيداتي !
وقال لي مرة من غير مرح :

— اترين ؟ إن ما احتاج اليه هو ان أومن بشيء ما !
فسألته :

— ألا يكفي الانسان ان يعيش ؟

ذلك اني كنت أنا أومن بالحياة . فهزّ رأسه وقال :

— ليس من السهل ان يعيش الانسان إذا لم يكن مؤمناً بشيء .
ثم انحرف بالحديث إلى جهة أخرى . ولم يكن يكشف عن ذاته إلا بقدر ، ولم أكن لألح عليه في ذلك . ولم يكن حديثي مع زازا يمسّ الجوهري من الامور . أما مع جاك ، فكان يخيل إليّ من الطبيعي ، حين تقرب من ذلك ، ان يكون هذا بطريقة متحفظة جداً . وكنت أعرف ان له صديقاً يدعى « لوسيان ريوكور » وهو ابن مصرفي كبير من ليون ، كان يقضي معه ليالي بطولها في الحديث . وكان احدهما يصحب الآخر ، وكان « ريوكور » ينام أحياناً عند جاك ، على الاريغة الحمراء ، وكان هذا الشاب قد قابل كوكتو وعرض على ممثل مشهور تمثيل مسرحية من تأليفه ، ونشر مجموعة من الشعر زينها جاك بصورة حفرها على الخشب . وكنت أنحني امام هذا التفوق . وأعتبرني محظوظة ان يخصص

لي جاك مكاناً على هامش حياته . وكان يقول لي إنه لا يودّ النساء على الاطلاق ، وكان يحب اخته ولكنه يرى أنها عاطفية إلى حدّ مبالغ فيه : وكان من النادر حقاً ان يستطيع شاب وفتاة ان يتحدثا كما كنا نفعل ، وكنت احده بين وقت وآخر عن نفسي ، فيعطيني بعض النصائح ، ويقول لي :

– حاولي ان تظهري صافية .

وكان يؤكّد لي أنّ علينا ان نقبل ما تحمله الحياة من يوميّ مألوف ، فلم أكن من رأيه تماماً . ولكن المهم انه كان يصغي اليّ ويفهمني ويشجعي ويتقدني فترة من الزمن من الوحدة .

وأحسب أنه لم يكن يطلب أفضل من أن يشركني في حياته اشراكاً أكثر ألفة . وكان يطعنني على رسائل اصدقائه ، ويودّ لو يعرفني بهم ، وقد صحبته بعد ظهر أحد الايام إلى ميدان السباق في «لونشان» . وعرض مرة أن يصحني لمشاهدة فرقة «الباليه» الروسية ، فرفضت امي بصراحة وقالت : « إن سيمون لن تخرج وحدها في الليل » ولم يكن ذلك بسبب انها تشكّ في فضيلتي ، فقد كان بوسعي أن أقضي ساعات طويلة إلى جانب جاك ، وحدنا في المنزل ، قبل ان ننهض إلى العشاء . ولكن بعد ذلك ، كان كل مكان يصبح مشبوهاً إذا لم يوجد فيه أهلي . وهكذا اقتصرنا صداقتنا على تبادل عبارات غير منجزة ، تقطعها فترات طويلة من الصمت ، وعلى قراءة بعض الفصول من الكتب بصوت مرتفع .

٥

وتقدمت لشهادتي الرياضيات واللغة اللاتينية . وكان لذيذاً ان أنجح وان أمضي بسرعة . ولكني لم أكن أحب العلوم المجردة ولا اللغات الميتة . ونصحني الأنسة لامبير ان أعود إلى مشروعني الاول ، وكانت هي التي

تقدم دروس الفلسفة في معهد « سانت ماري » وكان يسعدها ان أكون تلميذتها ، وقد أكّدت لي أنه سيكون يسيراً عليّ ان أحصل على « الاغريغاسيون » بلا جهد . فلم يعارض أهلي في ذلك ، وكنت راضية كل الرضى بهذا القرار .

وبالرغم من ان وجه غاريك قد امّحى قليلاً في الاسابيع الاخيرة ، فقد تأملت أشدّ الألم حين ودّعته في ممر كتيب من ممرات معهد سانت ماري . وذهبت للاستماع اليه مرة أخرى ، حين اشترك في القاء محاضرة مع هنري ماسيس والسيد ماييل . وكان هذا آخر المتكلمين ، وكانت الكلمات تسيل من لحيته بارتباك ، وكانت وجنتا زازا ، طوال حديثه ، ملتهبتين من الضيق . وكنت ألتهم غاريك بعيني ، وكنت أشعر بنظر أُمّي يتجه إليّ مضطرباً ، ولكنني لم أحاول ان أملاك نفسي . كنت أحفظ عن ظهر قلب هذا الوجه الذي سينطفئ إلى الأبد . كم هو كليّ حضور الانسان ، وكم هو جذريّ غيابه . ويبدو ان أي ممر مستحيل بينهما ، على اني ظلت متعلقة به . وقد استقلت المترو ذات صباح ، ثم نزلت في ارضٍ مجهولة بلغ من بعدها اني ظننتني اجتاز حدوداً محرّمة خلسة . ومشيت في الطريق التي كان غاريك يسكنها ، وكنت أعرف رقم منزله ، فاقربت منه وانا ألامس الجدران . وكنت على استعداد لأن يغمى عليّ خجلاً إذا ما التقى بي . وتوقفت لحظة ازاء بيته أتأمل واجهة القرميد الكثيبة ، وهذا الباب الذي كان يجتازه صباح مساء ، وتابعت طريقي وأنا أنظر إلى الحوانيت والمقاهي والارصفة . عمّ تراني أتيت أبحث ؟ وعلى اي حال ، قفّلتُ حزينه .

أما جاك فقد ودّعته بدون حزن لأنني كنت واثقة اني سألقاه في تشرين . وكان قد سقط في امتحان الحقوق فبدا محطماً بعض الشيء ، وقد حمل مصافحته الأخيرة لي ، وبسمته قدراً من الحرارة اضطربت له . وتساءلت بقلبي ، بعد أن فارقتة ، إذا لم يكن قد فسر هدوئي

باللامبالاة . وأحزنتني هذه الفكرة . لقد منحني كثيراً ، وكنت أقل تفكيراً بالكتب واللوحات والأفلام مني بذلك الاشراق الودّي في عينيه حين كنت احدته عن نفسي . وشعرت بحاجة فجائية لأن أشكره ... فكتبت له رسالة صغيرة على عجل ، ولكن قلبي ظلّ معلقاً فوق المغلف . لقد كان جاك يقدرّ الحشمة تقديراً عظيماً ، وكان قد ذكر لي ، في احدى بساياته الغامضة ذات المغزى ، عبارة غوته : « اني احبك ، فهل هذا يعينك ؟ » أتراه قد اعتبر بعض عباراتي التلقائية قليلة الرصانة ؟ أو تراه قد تمتم بينه وبين نفسه : « هل هذا يعينني ؟ » ومع ذلك ، فاذا كان من شأن رسالتي ان ترفع معنوياته ، فمن الجبن الا ارسلها . وترددت ، بمسكني ذلك الخوف من ان اثير الضحك - ذلك الخوف الذي شلّ طفولتي . ولكنني لم أعد اريد ان اتصرف كالأطفال . ولقد أضفت إلى آخر الرسالة ملاحظة : « قد تجدني مضحكة ، ولكنني كنت سأحتقر نفسي لو لم أكن كذلك . » ثم مضيت ألقى الرسالة في صندوق البريد .

ودعنتني امرأة الخال مرغريت والخال غاستون إلى قضاء فترة عندهم في الريف ، أنا واختي . ولو اتتني الدعوة في العام السابق لكنت انطلقت أكتشف الجبل بافتتان . أما الآن ، فاني قد استغرقت في ذاتي حتى ان العالم الخارجي لم يكن ليؤثر بي بعد . ثم اني كنت قد عقدت مع الطبيعة علاقات بلغ من صميميتها اني لم اعد ارتاح هنا اليها بعد أن هبطت إلى مستوى التسلية العابرة . وكانوا يمنحوني هذه الطبيعة قطعاً قطعاً من غير أن يدعوا لي الفرصة أو الوحدة الضرورية لأتغلغل فيها . ولأنني لم أستسلم لها ، لم تعطني شيئاً من نفسها . وهكذا لم أجد فيها اية تسلية .

ذلك اني كنت شقية . كان غاريك قد اختفى إلى الأبد . واين تراني وصلت مع جاك ؟ لقد كتبت له عنواني في الريف حين ارسلت له

الرسالة . ولما كان يتمنى بالطبع الا^ت تقع رسالته في غير يديه ، فلا بد ان يكتب لي إلى هذا العنوان أو لا يكتب على الاطلاق . ولم يكتب بالفعل . وكنت أنظر إلى صندوقتي في لوحة الفندق عشر مرات في اليوم ، لا شيء . لماذا ؟ لقد عشت صداقتنا في الثقة ، وهأنذا أتساءل الآن : ماذا عساني أكون في نظره ، هل وجد رسالتي طفولية ؟ أو في غير محلها ؟ أم تراه قد نسيتني بكل بساطة ؟ أي عذاب ! وكم وددت لو أتحملة في صمت وسلام ! ولكني في الواقع لم تكن لي لحظة هدوء . وكنت انتظر الليل حتى أبكي . وفي اليوم التالي لم تصل الرسالة المنتظرة . ومن جديد جعلت أنتظر المساء ، ناثرة الاعصاب ، مليئة القلب بالاشواك . وانفجرت ذات صباح باكية ، ولم أدر كيف أعيد الطمأنينة إلى نفس امرأة خالي المفزعة .

ولم تهدأ نفسي حين عدت إلى « ميرنيك » لقضاء العطلة الصيفية . وكانت عطلة شاقة : لقد كنت أتمشى عبر أشجار الكستناء وأبكي . وكنت أشعر اني وحدي تماماً في هذا العالم . وحتى أختي ، كانت غريبة عليّ ذلك العام . وكنت قد أغضت أهلي بمسلكي القاسي ، وكانوا يراقبونني على حذر . وحين تراني امي مكفهرة الوجه ، كانت تهز رأسها وتقول :
- الامور سيئة من غير ريب .

فأغضب لذلك . ولكن إذا نجحت في أن اظهر قليلاً من اللطف كانت تقول :

- تحسنت الامور !

فأغتاظ لذلك أيضاً . ثم اني كنت شبه عاطلة عن العمل ، ولم أستطع ان أحصل الا على عدد قليل من الكتب . وقد رأيتني ، خلال دراسة عن « كانت » ، أتحمس للمثالية النقدية التي كانت تدعمني في رفضي لفكرة الله . وعرفت في نظرية « برغسون » حول « الانا الاجتماعية » والانا العميقة » تجربتي بالذات . على ان ملجئي الوحيد ظل دفتر

مذكراتي ، فاذا أفرغت فيه ضجري وحزني ، استولى عليّ الضجر
بجزن مرة أخرى .

وقد حدث ذات ليلة ، في « غريير » ان اويت إلى سرير جبلي كبير ،
فشعرت بقلق شديد يغمرنني ، وكان قد اتفق لي ان أخاف الموت حتى
تنهمر دموعي وتنبعث صيحاتي . ولكن الأمر كان اسوأ ، تلك المرة :
فقد كان كل شيء رعباً وذعراً ، حتى ترددت في أن أذهب فأطرق
باب أمي وأزعم لها اني مريضة ، لا لشيء الا لأسمع الاصوات . وقد
تمكنت أخيراً من النوم ، ولكني احتفظت من هذه الازمة بذكرى
مروعة .

وإذ عدت إلى « ميرنيك » فكّرت في ان اكتب . وكنت أفضل
الأدب على الفلسفة ، ولم أكن لأرضى قط لو تنبأوا لي بأنني سأصبح
شبيهة ببرغسون ، فقد كنت أكره ان أتحدث بذلك الصوت المجرد الذي
لم يكن يمّسني حين كنت أسمعه . إنما كنت أحلم بكتابة « رواية للحياة
الداخلية » ، وكنت أريد ان افصل فيها تجربتي . وخيل إلي اني أشعر
في داخلي بكثير « من الاشياء التي ينبغي أن تقال » ، ولكنني أدركت
أيضاً انّ الكتابة فنّ ، واني لم أكن اخصائية فيه . غير اني سجلت
مع ذلك عدة موضوعات روائية ، ثم عزمت على الكتابة ، فألّفت
أثري الأول . وكان قصة فرار خائب . كانت البطلة في مثل سني :
ثمانية عشر عاماً . وكانت تقضي عطلتها مع اسرتها في بيت ريفي كانت
تنتظر ان يوافيها اليه خطيب كانت تحبّه بصورة اتفاقية . وكانت حتى
ذلك الحين قد ارتضت تفاهة الحياة . ثم اكتشفت فجأة شيئاً آخر ، حين
حسر لها موسيقي عبقري عن القيم الحقيقية : الفن والاخلاص والقلق .
وأدركت انها كانت تعيش في الزيف ، وتولدت في نفسها حمى ، رغبة
مجهولة . وذهب الموسيقي ، ووصل الخطيب . وقد سمعت من غرفتها
في الطابق الأول أصوات الترحيب به ، فترددت : أترى الذي فكرت

بعمله لحظة سينقذه أم سيهلكه ؟ وخانتها الشجاعة . فهبطت السلم ودخلت باسمه إلى قاعة الاستقبال حيث كانوا ينتظرونها . ولم أكن مخدوعة بقيمة هذه القصة ، ولكنها كانت المرة الأولى التي اجتهد فيها لأصّب تجربتي الخاصة في عبارات ، وسررت بكتابتها .

وكنت قد ارسلت لغاريك رسالة صغيرة ، من طالب إلى أستاذه ، فأجابني ببطاقة صغيرة من أستاذ إلى طالبه . ولم أعد أفكر فيه كثيراً . وكنت قد أخذت منه عبرة بأن انتزع نفسي من محيطي ومن ماضي : لقد حكم عليّ بالوحدة ، فلأدخل عالم البطولة . ولكنه كان درباً صعباً ، وكنت أوثر دون شك لو أنّ الحكم تأجل ، وكانت صداقة جاك تتيح لي هذا الأمل . انها صورته تلك التي كنت أبتعثها إذ أضطجع على الحشائش وأذرع الدروب الجوفاء . ولم يكن قد أجاب على رسالتي ، ولكن خيبي كانت قد تقلّصت مع الزمن ، وكانت تغطيها ذكريات من ابتساماته عند اللقاء ، ومن اني كنت ضالعةً معه ، ومن الساعات المخملية التي قضيتها قربه . وكنت من شدة ضجري من البكاء قد سمحت لنفسي بأن أحلم . سوف أضيء المصباح ، وسأجلس على الاربكة الحمراء : سأكون في بيتي . وسأنظر إلى جاك : سوف يكون لي . ليس هناك أي شك في اني كنت أحبه : فلا شيء يمنع من أن يحبني . وأخذت ارسم مشاريع سعادة . ولئن سبق لي أن عدلت عن ذلك ، فلظنّتي ان السعادة محرّمة عليّ . ولكن كان حسبي ان تبدو لي ممكنة حتى أعود إلى الطمع بها . كان جاك فتى جميلاً جمالاً طفولياً وشهوانياً . ومع ذلك فهو لم يوح لي يوماً بأي اضطراب أو أي ظلّ لشهوة ، ولعلني كنت مخنّثة حين سجّلت على دفثري بشيء من الدهشة انه لو اتفق له ان يرسم حركة ملاطفة لانتقبض في شيء ما : وهذا يعني اني كنت ، في الخيال على الأقل ، أحتفظ معه بمسافاتي . كنت أعتبر جاك دائماً كأخ كبير بعيد بعض الشيء . ولم تكفّ الاسرة عن محاصرتنا ، سواء أكان

ذلك بدافع الاستنكار أو المراعاة . ولا شك في أن هذا هو السبب في ان العواطف التي اكنتها له كانت تتوجه نحو ملاك .

كنت أعتقد بانني إذ احبّ جاك انما أنجز قدري . وكنت احكي لنفسي خطبتنا القديمة ، والبناء الزجاجي الذي اهداني اياه . وكنت سعيدة بأن تكون فترة المراهقة قد فصلت بيننا ، فاتيح لي بذلك ان اوهب فرحة اللقاء من جديد . وكان ظاهراً ان هذا الحب قد كتب في السماء .

والحق اني إذا آمنت بقدرية هذا الحب ، فذلك لأنني كنت ارى فيه من غير أن أعبر عن ذلك صراحة ، الحلّ الأمثل لجميع مصاعبي هـ ففيمما كنت احتقر العادات البورجوازية ، كنت احتفظ بجنيني إلى تلك الأمسيات في المكتب الاسود والأحمر ، وفي الاوقات التي لم أكن أتصور أن باستطاعتي فيها ان أفارق أهلي . انني سأقرأ إلى جانب جاك ، وسأفكر «نحن الاثنين» كما كنت أتمتم في الماضي «نحن الاربعة» ، وستحيطني امه وأخته بجنانهما ، وسيرق لي أهلي من جديد : وبذلك أصبح مرة أخرى تلك التي كان الجميع يحبونها ، وسوف أستعيد مكاني في هذا المجتمع الذي لم أكن أواجهه في خارجه إلاّ النفي . ولكنني لن أتنازل عن شيء : فلن تكون السعادة بالقرب من جاك يوماً ، وانما ستدور ايامنا بجنان ، من غير ان نكف عن ملاحقة هدفنا . سوف نتيه جنباً إلى جنب دون أن يضيع أحدنا الآخر ، يوحد بيننا قلقنا . وهكذا أنجز سعادتي في سلام القلب لا في تمزقه . وقد رصدت حياتي كلّها على هذا الحظّ وقد بلغ بي الضجر والدمع مداهما . وجعلت انتظر العودة إلى المدرسة وأنا محمومة ، وكان قلبي يثب في القطار .

وحين وجدنتي ثانية في البيت استيقظت بقسوة حين ذكرت اني سأقضي العام بين الجدران ، وعانقت بنظرة بقية الايام والأشهر : أية صحراء ! لقد كنت محوت الصداقات القديمة والزلمات والتسليات :

وكان « غاريك » قد مضى عني ، ولن أرى جاك الا مرتين أو ثلاثاً في الشهر ، ولا شيء يسمح لي بأن انتظر منه أكثر مما أعطاني . لسوف أعرف ثانية خيبة اليقظات التي لا تحمل الفرحة.. وفي المساء ، ستنتظرنني القمامة التي ينبغي أن أفرغها ، والتعب والضجر .

وبلغ بي الذعر فما ينتظرنني اني وددت لو أسارع إلى لقاء جاك ، فهو وحده يستطيع ان يساعدني . ولقد قلت إن مشاعر أهلي كانت مبهمة تجاهه . وفي ذلك الصباح منعتني امي ان أهب لروئيته ، وهاجمت تأثيره عليّ . ولم أكن أجروء حتى ذلك الحين على ان أعصي أوامرهما ولا أن أكذب برصانة ، فخفضت لها ولكني كنت أحتق غضباً وحرزناً . لقد انتظرت أسابيع طويلة مثل هذا اللقاء ، ثم كانت نزوة من نزوات امي كافية لتحرمني منه . وهكذا تحققت بذعر من تبعيتي لها . أنهم لم يكتفوا بأن يحكموا عليّ بالنفي ، ولكنهم لم يكونوا يتركون لي الحرية ان أقاوم قسوة مصيري . لقد كانت أعمالي وحركاتي وكلماتي مراقبة كلها ، وكانوا يرصدون أفكارني وكان بوسعهم ان يجهضوا بكلمة واحدة أثر المشاريع إلى قلبي ، وهكذا وجدنتني جامدة ، وكان هذا الجمود يزرع في قلبي اليأس . ولم يبق لي إلا أن انتظر . لا ولكن إلى متى ؟ ثلاثة أعوام ، اربعة ؟ انني إذا قضيت هذه الاعوام داخل السجن ، فاني إذ أخرج أجدني وحيدة كما كنت ، بلا حب ولا حرارة ولا شيء . وإذا درست الفلسفة في الريف ، فما الذي يجديني في ذلك ؟ وإذا كتبت ؟ إن محاولاتي في « ميرنيك » لا تعادل شيئاً . وإذا ظلت كما أنا ، فريسة العادات نفسها والضجر نفسه فاني لن أتقدم أبداً ولن أنجح في أي عمل . لا ، لم يكن ثمة نور في أي مكان . وللمرة الاولى في حياتي ، رأيت ان من الافضل لي ان أموت .

وبعد أسبوع ، سُمح لي بأن أذهب فأرى جاك . وحين وصلت إلى باب بيته ، أخذني الضيق : لقد كان أملي الوحيد ، ولم أعد أعرف

منه إلا أنه لم يجب على رسالتي . اتراه قد تأثر منها أم اغتاظ ؟ وكيف تراه سيلقاني ؟ وطفقت حول البيت مرة ومرتين لاحيةً ولا مية . وكان الجرس يرعبي : كان له نفس الثقب المزيف الذي ادخلت فيه اصبعي يوماً وأنا صغيرة . وضغطت على الزر ، فانفتح الباب آلياً كالعادة ، ورقبت الدرج . وابتسم لي جاك ، فجلست على الاربكة متقلصة . وبسط لي مغلفاً باسمي وقال :

— خذي ، انني لم أرسله لك لأنني كنت افضل ان يبقى هذا بيننا ؟ وكان يهنئي فيه بأنني لم أخش ان أكون مضحكة . ويقول إنه غالباً ما فكر بي في الامسيات الحارة الوحيدة ، وكان يعطيني بعض النصائح : — انك ستكونين أقلّ صدماً لمجتمعك حين تكونين أكثر انسانية .. إن سر السعادة ونهاية الفن ان يعيش المرء كجميع الناس ولا يكون كأحد .

وكانت رسالته تنتهي بهذه العبارة : « اتريدين أن تعبريني كصديق؟ » وأشرقت شمس عظيمة في قلبي . ثم مضى جاك يتكلم بعبارات قصيرة متقطعة ، فاذا بالظلام يهبط من جديد . فقد قال لي إن الامور سيئة وانه متضايق جداً ، وانه كان يحسب انه انسان طيب ، ولكنه لم يعد يؤمن بذلك ، وانه يحتقر نفسه ولا يدري ما عساه يفعل بجلده . واستمعت اليه وقد استرقتني مذلتته واستخفت بي ثقته ، فركته والقلب يشتعل ناراً . وجلست على مقعد لألمس الهدية التي قدمها إلي : ورقة جميلة سميكة تغطيها اشارات بنفسجية . وقد أدهشتني بعض نصائحه : فاني لم أكن أشعر بأنني غير انسانية ولم أكن أتقصّد ان أصدم من حولي . أما ان أعيش كجميع الناس ، فان ذلك لم يكن يغريني على الاطلاق ، ولكنني كنت متأثرة لكونه قد جعلني موضوع هذه النصائح . وقرأت عشر مرات الكلمات الاولى : « هل هذا يعينك ؟ » وكانت هذه الكلمات تعني بوضوح ان جاك كان متعلقاً بي أكثر مما كان يُظهر ، ولكن

حقيقة ثانية كانت تفرض نفسها أيضاً : انه لم يكن يجيني ؛ وإلا لما سقط في مثل ذلك اليأس ، فمن المستحيل التوفيق بين الحب والحيرة . وهكذا ردّني جاك إلى الحقيقة . لقد كنا واعين أكثر مما ينبغي فلم نسقط في أمان الحب المزيف . إن جاك لن يوقف سيره القلق أبداً ، لقد بلغ غاية اليأس وكان عليّ ان أتبعه في دوريه الصعبة .. وعزمت بيني وبين نفسي ان لا أحب احداً سواه ، وان الحب بيننا كان مع ذلك مستحيلاً . ولم أنكر الاعتقاد الذي استقر في نفسي في أثناء العطلة من أن جاك كان قدّري ، ولكن الاسباب التي جعلتني اربط مصيري بمصيره كانت تنفي أن يكون بوسعه إسعادي . لقد كان لي في حياته دور : ولكن ليس هو ان أدعوه إلى النوم ، كان يجب ان يكافح بأسه وان اعينه على ان يتابع بحثه . ولقد باشرت العمل على الفور ، فكتبت له رسالة جديدة اقترحت عليه فيها اسباباً للحياة مستمدة من أفضل المؤلفين .

وكان طبعياً ألاّ يجيني لاننا كنا نرغب نحن الاثنين بأن « تبقى صداقتنا بيننا » . ومع ذلك فقد كان هذا يوئلني . وقد حاولت ان اكتشف في عينيه ، ذات مساء تناولنا فيه العشاء عندهم ، بريق مشاركة ، ولكن لا شيء . كان يبدو من اللامبالاة تجاهي بحيث تيقنت من انه قد أسقط في يدي هذه المرة . ولقد كتبت في اليوم التالي .. « امسية مؤلمة كان فيها قناعه يخفي وجهه إخفاءً محكماً . اودّ لو اتقيأ قلبي » وعزمت على ان أنساه . ولكن بعد أسبوع أخبرني امي ان جاك قد سقط في امتحانه مرة أخرى كما علمت من ذويه . فهرعت على الفور بعد أن أعددت ضهاداتي وعقاقيري ... والواقع انه كان منهاراً ، وان البسمة لم تكن تطل على شفثيه . وشكرني على رسالتي ، في غير ما حماسة ، وكرر لي انه لم يكن يصلح لشيء .. وكان قد قضى طوال الصيف عيشة بليدة ، وكان يفسد كل شيء ويشمئز من نفسه . وحاولت ان ارفع

معنوياته ، ولكنه لم يستجب لذلك . وحين فارقته همس قائلاً :

— شكراً لمجيئك .

فتأثرت لذلك ، غير اني أخذت أتخيل انه قضى الصيف في المقامرة والشرب وما اسميه الفسق . ولا شك انه كانت له أعذاره ، ولكني كنت اجد مخيباً لي أن اعذره . وتذكرت حلمي الكبير بالحب — الاعجاب الذي كنت قد صنعته لنفسي وانا في الخامسة عشرة ، وقارنته وأنا حزينة بحبي لجاك : كلا ، لم أكن معجبة به . ولعل كل اعجاب كان خديعة ، ولعل الانسان لا يجد في القلوب كلها إلا حفلة مشكوكاً فيها ، ولعل الصلة الوحيدة الممكنة بين قلبين هي التعاطف . على ان هذا التشاؤم لم يكن كافياً لتعزيتي .

وقدفتني مقابلتنا التالية في تبرم جديد . لقد استعاد مزاجه وضحكه وأخذ يرسوم مشاريع معقولة . وقد سمعته يقول :

— لا بد ان اتزوج يوماً .

فاكتسحتني هذه العبارة . أتراه قد نطق بها عرضاً أم عن قصد ؟ وفي هذه الحالة ، أتكون وعداً أم تحذيراً ؟ لقد كان مستحيلاً عليّ ان اتحمل أن تكون زوجته امرأة غيري : ومع ذلك فقد اكتشفت أن فكرة الزواج به كانت تنفّرني . ولقد دأبت هذه الفكرة طوال الصيف ، أما الآن ، فاني إذ أواجه هذا الزواج الذي كان يتمناه أهلي بجرارة تأخذني الرغبة في الفرار . ولم اكن أجد فيه خلاصي بل هلاكي . وقد عشت طوال أيام في ذعر شديد .

وحين عدت بعد ذلك لزيارة جاك ، كان مع أصدقائه ، فقدّمهم لي واستمروا في حديثهم عن المقاهي والملاهي والصعوبات المادية والدسائس الغامضة ، وراقني الا يعكر وجودي جوهم ، ومع ذلك فقد استأت من هذا الحديث ، وطلب مني جاك ان انتظره ريثما يوصل اصدقاءه في السيارة ، فأخذت أنشج وانا مستلقية على الأريكة الحمراء، ثائرة الاعصاب ..

وحين عاد كنت قد استعدت هدوئي . وكان وجهه قد تغيرَ ونفذ إلى كلماته من جديد عطف متنبه . وقال : « ارى ان صداقة مثل صداقتنا هي أمر استثنائي . » وهبط معي ، وتوقفنا لحظة طويلة أمام إحدى الواجهات . وغادر باريس في اليوم التالي إلى « شاتوفيلين » حيث كان سيقضي ثلاثة أسابيع . وفكرت وأنا اعزّي نفسي بأن عدوبة ذلك الشفق ستبقى ذكراي الاخيرة رديحاً من الزمن .

غير ان اضطرابي لم يهدأ : ذلك اني لم أعد أفهم نفسي . لقد كان جاك في بعض الاحيان كل شيء بالنسبة لي ، ولم يكن شيئاً على الاطلاق في احيان أخرى . ودهشت لاحساسي بالكرهية له احياناً . وكنت أتساءل : « لماذا لا تأخذني اندفاعات العطف الكبيرة الا في الانتظار والحسرة والشفقة ؟ » لقد كان يتلج اطرافي التفكير بحبّ مشترك بيننا . ولكنني كتبت في مذكراتي « اني بحاجة اليه ، لا إلى رؤيته . » والواقع اني كنت افضل ان افكر فيه ، وهو بعيد ، على ان أجدي معه وجهاً لوجه . وبعد ثلاثة أسابيع ، لحظت سيارته بالقرب من السوربون . اية مفاجأة ! لقد كنت أعلم ان حياته لم تكن معي ، وقد تكاشفنا بذلك . فاني بقيت على هامش حياته . ولكنني كنت أودّ ان أعتقد انه كان يضع في حديثه معي أخلص ما في نفسه وأصرحه . وقد كانت تلك السيارة الواقفة عند رصيف غير بعيد تؤكّد لي العكس . في تلك اللحظة كان جاك موجوداً بلحمه ودمه بالنسبة لآخرين ، لا لي . فكم كانت تزن لقاءاتنا الخجولة في كثافة الأسابيع والأشهر ؟

وذات مساء زارنا جاك في البيت ، وكان لطيفاً ، ولكنني شعرت بحية مريرة . لماذا ؟ لقد بدأت الامور تختلط عليّ . اكنتم احبها ام لا ؟ أكان يحبني ؟ لقد رددت لي أمي انه قال لأمه :

— ان سيمون جميلة جداً ، ولكن من المؤسف ألاّ تحسن امرأة العم فرانسواز اختيار الثياب لها .

ولم يكن النقد يتعلق بي ، فحفظت من كلامه اني اروق له . وكان لم يتجاوز التاسعة عشرة ، وكان عليه ان يستكمل دراسته ويؤدي خدمته العسكرية ، فمن الطبيعي الا يتكلم عن الزواج إلاّ باشارات مبهمه . ولم يكن هذا التحفظ ليكذب حرارة لقائنا وبساته وضغوطات يده . لقد كتب لي : « هل هذا يعينك ؟ »

وفي منتصف نوفمبر ، تناولنا العشاء ذات مساء ، اسرته واسرتي ، في أحد المطاعم ، ولقد ثرثر جاك طويلاً ومزح ، ولكن حضوره كان لا يخفي أكثر من غيابه . ولقد بكيت طويلاً تلك الليلة . وبعد أيام ، رأيت للمرة الأولى في حياتي انساناً يموت : انه خالي غاستون الذي ظلّ ليلة بطولها محتضر . ولقد أخذت أهلي الدهشة ان يروني حزينة يائسة إلى ذلك الحدّ طوال يومين . والواقع اني لم احتمل تلك النظرة الغريقة التي ألقاها خالي إلى زوجته قبيل موته، والتي قرأت فيها انه قد تمّ ما لا يمكن تعويضه ، ما لا يمكن علاجه .. كانت هذه الكلمات تدق رأسي حتى ليكاد ينفجر .. ما لا يمكن تفاديه . لعلّي أنا أيضاً ارى ذات يوم مثل هذه النظرة في عيني الرجل الذي اكون قد أحببته مدة طويلة ...

وكان جاك هو الذي عزّاني . وبدا من شدة تأثره لعينيّ الباكيتين ان شعرت بحب عميق في صدره حتى اني جففت دموعي . ثم حدث ان قالت لي يوماً جدّته ، وكنت أتناول عندها الغداء :

— انك لن تكوني انت نفسك إذا لم تشتغلي .

فنظر إليّ جاك بحنان وقال :

— ارجو ان تظلّ هي نفسها مع ذلك .

وفكرت : « كنت على خطأ : انه يجني ، وتناولت العشاء في بيته بعد أسبوع ، فصارحني في خلوة قصيرة انه تخلص مما كان يزعبه ، ولكنه بات يخشى ان يصبح بورجوازيًا . ثم رأيتة فجأة بعد العشاء

يغادر المنزل ، فاختلقت له المآذير ولكن واحداً منها لم يقنعني : لو انه كان يحبني لما تركني وذهب . ولكن اتراه يحب شيئاً ما حباً ثابتاً ؟ لقد كان يبدو لي متوزعاً غير مستقر ، كان يضيع في صداقات صغيرة وفي هموم صغيرة ، ولا يهتم بمشكلات كانت تعذبني ، وكان بحاجة إلى الاقتناع الفكري . وسقطت مجدداً في القلق : « الأستطيع ان انتزع نفسي منه ، هو الذي اثار عليه احياناً ؟ اني احبه ، أحبه حباً جنونياً ولا أدري إذا كان قد خلق لي » . والواقع انه كان بيني وبين جاك كثير من الاختلاف . لقد رسمت صورتني في الخريف الماضي ، فكتبت ان اولي ميزاتي رصاتي : « رصانة قاسية لا تلين ، ولست أفهم سببها ، ولكنني أخضع لضرورة ساحة » . ولقد بدوت منذ طفولتي ذات شخصية متطرفة وكنت بذلك فخورة . ولقد كان الآخرون يقفون في منتصف الطريق بين الايمان والشك ، وبالنسبة لرغباتهم ومشاريعهم ، فكنت احقر فتورهم لأنني كنت انطلق مع مشاعري إلى نهايتها ومع أفكارني ومع مشاعري . ولم أكن أستخف بشيء كما لو كنت اريد ان يبرر كل شيء في حياتي بنوع من الضرورة . وكان هذا العناد يجرمني بعض المزايا ، ولكن لم يكن وارداً ان اتخلص منه ، لأن هذه الرصانة كانت « إياي » كلتي ، وكنت شديدة الحرص على شخصيتي .

ولم أكن آخذ على جاك قلة اهتمامه ولا تناقضاته ، فقد كنت أعتقد انه أكثر فناً وحساسية وتلقائية وموهبة مني . على ان بعض المظاهر كانت تزعجني فيه : « حبه للنظريات وحماسه لموضوعاتها » . لقد كان يعوزه العمق والثبات وأحياناً الاخلاص والصراحة ، وهذا ما كان يبدو لي شديد الخطورة . وكان يتفق لي ان اغتاز من أساليبه الفرارية ، فآتمه أحياناً بأنه يتعلل بتشككه ليوفر على نفسه أي جهد . وكان يشكو انه لا يؤمن بشيء ، وكنت شديدة الحماسة لأن أقترح عليه بعض الأهداف ، وكان يحيل إليّ انه جدير بالانسان ان يعمل على تنمية

نفسه وإغناء ذاته ، وعلى هذا النحو كنت أفهم فكرة « جيد » : « المهم أن يجعل المرء من نفسه شخصاً غير قابل لأن يُستبدل » ولكن حين كنت اذكره أمام جاك ، كان يهزّ كتفيه ويقول : « ولذلك ليس امام المرء إلا ان يضطجع وينام » . وكنت أحثه على الكتابة ، وكان على ثقة من انه سيكتب آثاراً جميلة إذا شاء ، فكان يجيبني « وما فائدة ذلك ؟ » وكان يواجهني بهذه الكلمات الثلاث في كل مناسبة . وقد كتبت أقول عنه : « إن جاك يصرّ على ان يبني في المطلق ، وهو لن يصل إلى أي شيء في هذا الاتجاه » . ومع ذلك ، فقد كنت لا أشك قط في ان مسلك جاك لم يكن ذا صلة بالميتافيزيقا ، فكنت احكم عليه بقسوة ، ذلك اني لم أكن أحبّ الكسل ولا الشرور ولا الخفة والطيش . وكنت شعر أنه غالباً ما كان يغتاز من ايماني وبقيني . وقد كان يمكن لصداقة ما ان توفّق بين هذه الاختلافات ، ولكن هذه الاختلافات كانت تجعل منظور الحياة المشتركة شيئاً مخيفاً .

وما كان لي ان اقلق قلقاً شديداً لو اني لاحظت معارضة بين مزاجينا . ولكنني كنت أشعر بان في الأمر شيئاً آخر : توجيه حياتنا . وحين لفظ كلمة « زواج » استعرضت لائحة الاختلافات فيما بيننا : « كان يكفيه ان يستمتع بالاشياء الجميلة ، وكان يرضى الترف والحياة السهلة ويحب السعادة . أما أنا فقد كنت بحاجة إلى حياة ملتزمة ، وإلى ان أعمل وان أنفق نفسي وان أحقق . كنت بحاجة إلى هدف أبلغه وصعوبات أقهرها ، وعمل انجزه . انني لم أخلق للترف ، ولهذا فلن يرضيني أبداً ما يرضيه » . ولم يكن في ترف آل « ليغيون » شيء منفر ، ولكن ما كنت أرفضه وآخذة على جاك هو قبوله الوضع البورجوازي . لقد كان تفاهمنا يقوم على لبس يوضح عدم اتزان عواطفني القلبية . وكان جاك يفلت من طبقتة ، على ما أرى ، لأنه كان قلقاً : ولم اكن أفكر بان القلق هو الطريقة التي كان هذا الجيل القلق يحاول بها أن يستدرك نفسه ، ومع

ذلك ، فقد كنت أشعر بان الزواج ، حين يحرره من هذا ، فانه سينسجم تماماً مع شخصيته كـرب بيت وأسرة . وكل ما كان يتمناه في الواقع هو ان يضطلع بالدور الذي رصده له مولده ، وكان يعول على الزواج ليحصل على الايمان الذي كان ينقصه . لقد أدركت انه كان يعتبر الزواج حلاً لا نقطة انطلاق . ولم يكن وارداً ان نرتفع معاً إلى القمم : فلئن أصبحت يوماً « السيدة ليغيون » فسأراني مرصودةً للعناية « بيت مغلق » . ولعلّ هذا لم يكن شديد التناقض مع امنياتي الشخصية ، ولكنني كنت أكره هذه التسويات ، فاني حين أشارك جاك حياته ، فسأجد عناءً كبيراً في أن أدافع عن نفسي تجاهه لأن عدميته تكون قد أعدتني . الم اكن اترك نفسي ، كيما اروق له ، أقبل أن أضحي بكل ما كان يشكل « قيمتي » ؟ لقد كنت أثور على هذا التشويه لشخصي ، ومن أجل ذلك كان حبي لجاك طوال هذا الشتاء مؤلماً إلى هذا الحد . فإما ان يستهلك نفسه بعيداً عني ، فأتعذب بذلك ، واما ان يبحث عن التوازن في الارتقاء في « بورجوازية » كان بإمكانها ان تقربه مني ولكنني كنت ارى فيها مع ذلك سقوطاً . لم أكن أستطيع ان أتبعه في شذوذه ، ولم أكن اريد ان أقيم معه في نظام أحقره . فاننا لم نكن نؤمن بالقيم التقليدية ، ولكنني كنت عازمة على ان اكتشف أو اخترع قيماً جديدة ، اما هو فلم يكن يجد شيئاً وراء ذلك ، ولم يكن يفكر بتغيير حياته . وكنت أنا أسعى إلى ان أتجاوز نفسي .

غير ان ذلك كله لم يكن يدفعني إلى أن أنزع جاك من قلبي . وقد ذهب في رحلة تستغرق شهراً عبر فرنسا لأعمال تخصّ تجارة الزجاج . وكان الزمن شتاء ، والبرد قارساً ، ورأيتني أعود إلى تمنّي حرارة حضوره وإلى حب هادئ ، وإلى بيت لنا ، بيت لي . وانقطعت عن طرح الاسئلة ، وأخذت أقرأ « وداعاً ايها المراهقة » لمورياك واحفظ منه مقاطع حزينة كنت انشدها في الطرقات .

ولئن ظلت حريصة على هذا الحب ، فلأني حفظت دائماً لجاك تعلقاً عميقاً عبر شكوكي كلها . لقد كان جذاباً ، وقد ترك في نفوس كثيرة آثاراً بعيدة . ولقد أحسنتي مرتبطة به بميثاق يشعري بشأن «سعادته وخلاصه» كانا شيئاً أكثر ضرورة من سعادتني وخلاصي . وإذا كان جاك لم يخلق لي ، فان احداً لم يخلق لي ، ولا بدّ من العودة إلى وحدة مريرة قاتلة !

لقد كان تشكّكه ينمّ عن تبصره . كان يجرؤ على أن يصارح نفسه بأنه ليس ثمة غاية تستحق اي جهد . هل كان يضيع وقته في المشارب ؟ لقد كان يفرّ فيها من يأسه ، وكان يتفق له ان يلتقي فيها بالشعر . ولقد كان سبب تعلقني الشديد به ان حياتي كانت تبدو لي فارغة عابثة خارج إطار ذلك الحب . إن جاك لم يكن إلّاه ، ولكنه كان يصبح كل شيء مع الزمن : كل ما لم أكن أملكه . لقد كنت مدينةً له بمباهج ومتاعب كان عنفها وحده ينقذني من الضجر القاسي الذي كنت غارقة فيه :

٦

عادت زازا إلى باريس في أوائل اكتوبر . وكانت قد قصّمت شعرها الجميل الاسود بحيث برز وجهها الهزيل برونزاً جميلاً . وفي اليوم الذي لقيتها فيه ، قضينا بعد الظهر على شاطئ السين وفي حديقة التويلري ، وكانت تحتفظ بذلك المظهر الرصين الحزين الذي أصبح مألوفاً لديها . وأخبرتني ان أباهما قد تسلّم عملاً هاماً في مصانع سيارات «سيروين» وسيربح أموالاً طائلة وانهم سينتقلون إلى منزل فخم بشارع «بيري» وانهم اشترؤا سيارة وسيكونون مدعويين إلى الخروج كثيراً وإلى استقبال الناس أكثر من ذي قبل . ولم يكن ذلك ليفتن زازا على ما يبدو ، فقد أخذت تحدّثني بنفاد صبر عن هذه الحياة الاجتماعية الواسعة التي بدأوا

يفرضونها عليها ، وأدركت انها إذا كانت تتردد إلى الأعراس وإلى حفلات الدفن والعمادة ودعوات الشاي والعشاء والاسواق الخيرية والامسيات الراقصة ، فان ذلك لم يكن بداعي المرح أو الرضى ، فلقد كانت تحكم على مجتمعتها بأقسى مما كانت تحكم عليه في السابق ، بل هو أصبح أنقل عليها من قبل . وكنت قد أعرتها بعض الكتب قبل العطلة ، فقالت لي أنها حملتها على التفكير الطويل ، وانها أعادت قراءة « مولن الكبير » ثلاث مرات ، وانها لم تقرأ من قبل رواية خلّفت لديها ما خلفته هذه من تأثير وانفعال . وخيل إليّ فجأة انها شديدة القرب مني ، وحدثتها قليلاً عن نفسي ، فاذا هي توافقني على كثير من الافكار . وقلت لِنفسي حين تركتها ذلك المساء « ها قد لقيت زازا من جديد ! »

وتعودنا أن نخرج إلى التزهة كل صباح أحد . ولم يكن ممكناً لنا ان نجتمع رأساً إلى رأس تحت سقف بيتها أو تحت سقف بيتي ، وكنا نجهل تماماً عادة ارتياد المقاهي ، فكنا ندرع ممرات حديقة الكسمبورغ أو شارع الشانزليزه ، وكنا في أوقات الصحو نجلس على الكراسي الحديدية بجانب العشب . وكنا نستعير الكتب نفسها من احدى المكتبات ونقرأ مراسلات الين فورنيه وجاك ريفيير ، ونتناقش ونعلّق على حياتنا اليومية . وكانت زازا تعاني مع أمها صعوبات جمّة ، وكانت أمها تأخذ عليها ان تكرّس أكثر مما ينبغي من وقتها للدرس والمطالعة والموسيقى وان تهمل « واجباتها الاجتماعية » . وكانت الكتب التي تقرأها زازا تبدو لها مشبوهة فتقلق عليها ، وكانت زازا تكنّ لامها الاحترام نفسه الذي كانت تكنّه في الماضي ، ولم تكن تحتمل ان تسيء اليها « ولكنّ هناك أشياء لا أريد ان أتراجع عنها » ، هذا ما قالته لي بصوت مضطرب . وكانت تخشى ان تقوم بينها وبين أمها في المستقبل الوان اعنف من النزاع . لسوف ينتهي الامر بأختها « ليلي » إلى الزواج من فرط تعدد زياراتها ومقابلاتها لاسيما وانها قد جاوزت الآن الثالثة والعشرين . وعند ذلك سيفكرون في تزويجها هي ،

وقد قالت لي في ذلك « اني لن أدعهم يفعلون ، وسوف أجدني مضطرة إلى أن أتخاصم مع أمي . » وقلت لها أشياء كثيرة من غير ان احدها عن جاك وعن تطوري الديني . وفي صبيحة تلك الليلة التي قضيتها وأنا أبكي ، بعد أن تناولت العشاء مع جاك ، أحسستني غير قادرة على أن أعيش وحدي حتى المساء ، فذهبت أطرق باب زازا ، وما إن جلست تجاهها ، حتى انفجرت باكية ، فبلغ من إشفاقها عليّ اني وجدتي أروي لها كل شيء .

وكنت أقضي معظم ساعات يومي أعمل على عادتي في الكتب . وكانت الآنسة لامبير تعطي ذلك العام دروساً في المنطق وتاريخ الفلسفة ، وبدأت باعداد هاتين الشهادتين ، وكنت مسرورة بعودتي إلى الفلسفة . فلقد ظلت شديدة التأثر لغرابة حضوري على هذه الارض ، ما هو مصدره ، وإلى أين اتجهه؟ وكنت أفكر طويلاً بذلك وأنا شبه مذعورة ، لقد سجلت في مذكراتي انه يخيل إليّ اني كنت « ضحية لعبة سحرية لا تكاد تفهم . » وبدأت اتلمس الفهم عبر أنظمة ديكرات وسينوزا ، وكانا احياناً يحملاني إلى مكان مرتفع جداً ، في اللانهاية ، فأرى الارض تحت قدمي كأنها بيت نمل ، ولا أرى احياناً الا مجموعة من التركيبات لا علاقة لها بالواقع . ودرست « كانت » فأقنعني بأن ليس هناك من يستطيع أن يكشف لي باطن الأمور : وبدا لي نقده من العمق والحكمة بحيث أزال من نفسي الحزن ، ولكنه أحقق في أن يشرح لي العالم نفسه ، فلم أعد أدري ما عساي التمس من الفلسفة .. وكانت الآنسة لامبير قد عزمت على ان تهتم بي وهذا ما سرّني : وكنت أسلّتي في أثناء دروس المنطق بأن اتأملها . وكانت ترتدي دائماً اثواباً زرقاء بسيطة ، وكنت اجد حيوية نظرها الدائمة رتيبةً بعض الشيء ، ولكن كانت تدهشني دائماً بسماحتها التي كانت تحوّل قناعها القاسي إلى وجه من لحمٍ ودم . وكان يقال إنها فقدت خطيبتها في أثناء الحرب وأنها على أثر هذا الحداد

انعزلت عن الحياة العامة . ولكنها كانت تجذب اليها الفتيات اللواتي كان عدد منهن يلتحق بدروسها حباً فيها. وكان هذا سواء لديّ . فقد كنت أرى انه لا يكفي المرء أن يفكر فقط ، ولا أن يعيش فقط ، ولم اكن أحترم تماماً إلاّ الأشخاص الذين « يفكرون حياتهم » وكانت الأنسة لامبير « لا تعيش » . كانت تعطي دروساً وتعدّ رسالة ، وكنت أعتبر حياتها جافة جداً . على انه كان يروق لي أن أجلس في مكتبها الأزرق استمع اليها ترشدني إلى بعض الكتب وتساّلي عن نفسي بالخاص من غير ان تخرجني ، وأقرتني على ان افقد الايمان ، وكنت احدها عن أشياء كثيرة وعن قلبي . وقد سألتها عما إذا كان من الواجب ان يخضع الانسان للحب أم للسعادة ؟ فنظرت إليّ بضيق وقالت :

– أتعتقدين يا سيمون ان بوسع امرأة ان تحقق نفسها خارج الحب والزواج ؟

لا شك في أن لها هي أيضاً مشكلاتها ، ولكنها كانت المرة الاولى التي تشر إلى ذلك وانما كان دورها ان تساعدني على حلّ مشكلاتي . وكنت أستمع اليها من غير حماس لأنني لم أكن أستطيع ان أنسى انها تعلق كل شيء على السماء ، ولكن ثقته كانت تشجعني .

وكنت قد سجلت اسمي في تموز في « الفرق الاجتماعية » ، فوضعتني المديرية على رأس فرقة « بيلفيل » ، واستدعت الرؤساء المسؤولين في اكتوبر لتوزع عليهم النصائح والارشادات ، وكانت الفتيات اللواتي التقيت بهن في هذا الاجتماع يشبهن بصورة مؤسفة زميلاتي القديمات في معهد « ديزير » . وكانت لي مساعدتان وكيّلت إلى احدهاها تدريسي الانكليزية وإلى الأخرى الرياضة ، وكانتا تقربان من الثلاثين ولا تخرجان قط إلاّ بصحبة ذويهما في المساء . وكانت فرقتنا تقيم في مركز للمساعدة الاجتماعية تديره فتاة طويلة جميلة في حوالى الخامسة والعشرين وتدعى « سوزان يواغ » وقد أحببتها . ولكن نشاطي الجديد لم يمنحني إلاّ قدراً يسيراً من

الرضى . وكنت مرة في الاسبوع أشرح طوال ساعتين بلزك أو فيكتور
هوغو امام عاملات صغيرات كنت أعيرهن الكتب واحدتهن طويلاً ،
على انهن كنّ يقصدن المركز ليلتقين فيما بينهن . وكان المركز يضم كذلك
فرقة من الشباب ، فكانت الحفلات الراقصة تجمع بين الفريقين غالباً ،
فاذا الذي يجذبهم هو الرقص والمغازلة وما يتبع ذلك أكثر من الدروس
والمحاضرات .. وكنت أجد هذا طبيعياً . كانت تلميذاتي يشتغلن طوال
النهار في مخازن للخياطة أو للموضة ، ولم تكن للمعارف التي تعطي لهنّ
اية صلة بتجربتهن ولم تكن تفيدهن في شيء .

والحق ان ما كنت أحبه في هذه الفرق هو انها كانت تتيح لي أن
أقضي أمسية بعيدة عن البيت . وكنت قد استعدت مع أختي علاقة
حميمة ، وكنت احدها عن الحب والصدقة وعن السعادة واشراكها وعن
مباهج الحياة الداخلية . وعلى العكس ، لم تتحسن علاقتي مع أهلي
وكان ابي يلومني على ان افقد حسّ الأسرة وأفضل عليه الاجانب ،
وكانت أمي تجد عواظني نحو زازا مبالغاً فيها . وكانت مطالعاتي موضوعاً
آخر لتزاعنا ، ولقد امتنع وجه أمي حين قلبت صفحات « الليل
الكردي » لجان ريشار بلوك ، وكانت تشكوني للجميع . وكم كانت
الامسيات تبدو لي طويلة حزينة ! وكانت أمي لا تني تسألني :

— بمّ تفكرين ؟ ما بالك ؟ لماذا تظهرين بهذه الهيئة ؟ طبعاً ، انك

لا تريدان ان تصارحي امك بشيء !

وكنت لا ألبأ إلى النوم الا مرهقة نائرة الاعصاب . وهكذا كانت
ايامي تمضي بجزن . وكنت قد مللت الكتب لأنني قرأت عدداً كبيراً منها
كانت كلّها تردّد اللازمة نفسها ولم تكن لتحمل لي أملاً جديداً . وكنت
اوثر ان أقتل الوقت في أروقة الرسم أتأمل بعض اللوحات . على ان
الملل كان يعاودني ، ومعه اليأس . وكنت انتظر ان امترج بالعالم ولكنهم
سجنوني في القفص ثم نفوني . ولقد تحررت من ذلك بأن قطعت صليتي

بماضي ، بوسطي ، ولكن أية خيبة الآن ! كان عليّ أن أخدم : ولكن
أخدم ماذا ؟ ومن ؟ لقد قرأت كثيراً وفكرت وتعلمت ، وكنت أقول
لنفسي انني أصبحت غنية ، وبدت لي الحياة من الامتلاء بحيث سعت
إلى أن استعمل كل شيء فيّ لاستجيب لنداءاتها ، ولكنها كانت فارغة
في الحقيقة . كنت احسن اني املك من القوى ما يمكنني من أن أقلب
الأرض ، ولكنني لم أكن اجد حصاة واحدة أحركها . كانت خيبيتي
شديدة : « انني أكثر جداً مما أستطيع عمله » . ولم يكن يكفي ان اعدل
عن المجد والسعادة ، بل لم أعد أطلب ان تكون حياتي خصبة ، ولم
أكن أطلب شيئاً ، وتعلمت بألم « عقم الوجود » . كنت أعمل لتكون لي
مهنة ، ولكن المهنة وسيلة : نحو اية غاية ؟ الزواج ؟ ما الفائدة منه ؟
تربية الأولاد أو تصحيح الوظائف : انها نفس المهنة المملّة . لقد كان
جارك على صواب : ما الفائدة ؟ كان الناس يستسلمون لأن يوجدوا عبثاً ،
أما أنا فلا . لقد كنت اريد مطلباً لا يترك لي أن اهتم بأي شيء آخر
ولكنني لم ألق مثل هذا المطلب ، حتى انني عمّمت حالتي الخاصة وانا
في نفاذ الصبر ذلك : « لا شيء يحتاجني ، لا شيء يحتاج احداً ، لأنه
لا شيء بحاجة لأن يوجد ! »

ولكن لماذا تراني كنت اردد بجزن بأن كل شيء كان عبثاً ؟ الحق
ان الألم الذي كنت أشكوه هو اني طردت من جنة الطفولة ولم أجد لي
مكاناً بين الكبار . لقد أقمت في المطلق ليمكنني ان انظر من أعلى هذا
العالم الذي كان يقذفني . الحب ، العمل ، التأليف الأدبي : لقد كنت
اكتفي بتحريك الافكار في رأسي وأنتهي إلى لا معنى الحقيقة . لقد
كنت تائهة عبر ضباب كثيف وكنت أظنه شفافاً ، ولم أكن أفكر بوجود
الاشياء التي كانت تفلت من نظري .

كان كل شيء يعمل على ان يقنعني بأن الأشياء الانسانية كانت
قاصرة : وضعي الخاص ، تأثير جارك ، الايديولوجيات التي كانوا

يلقنوني اياها ، أدب ذلك العهد . كان معظم الكتاب يفصلون « قلقنا وحررتنا » ويدعونني إلى يأس بصير . ولقد دفعت هذه العدمية إلى ذروتها . كان كل دين وكل أخلاق خدعة ، بما في ذلك « فكرة الأنا » ، وكان أفضل موقف يتخذه المرء هو ان يحذف نفسه . ولقد كنت في الحق معجبة بتلك الانتحارات المتيافيزيقية ، ولكنني لم أفكر بأن ألبأ اليها ، لأنني كنت أخشى الموت أكثر مما ينبغي .

ومع ذلك فقد كان الموت يتأكلني ، وكنت استفضعه لا سيما واني لم أكن اجد أسباباً وجيهة للحياة . غير اني كنت احب الحياة حباً محموداً ، وكان يكفيني شيء يسير ليعيد إليّ تقّي بها : رسالة من تلميذة ، أو ابتسامه ، أو نظرة من زازا أو كلمة لطيفة . لقد كان الافق يضيء أمامي ما ان أشعر بأنني محبوبة أو نافعة وأعود إلى التعهد بان أكون محبوبة وضرورية ولازمة . ويوم بلغت التاسعة عشرة ، كتبت في مكتبة السوربون حواراً كان يتجاوب فيه صوتان كلاهما كان لي : كان أحدهما يتحدث عن عبث الأشياء كلها ، والثاني يؤكّد ان الحياة جميلة . على ان الشعور الذي طغى عليّ طوال الخريف والشتاء هو القلق من أن أجدني يوماً وقد « قهرتني الحياة » .

كانت هذه الشكوك والذبذبات تثير جنوني ، وكان الضجر يخنقني وأنا أسير في شوارع باريس وقد غشّي نظري الدمع ، ولكنني كنت اردد عبارة « هاين » في سخرية : « مهما كانت الدموع التي يذرفها المرء ، فسيستهي به الأمر إلى أن يتمخّط . » وكنت احبّ ان أشعر بحرقة الدمع في عيني ، ولكن جميع أسلحتي كانت أحياناً تسقط من يدي ، فألتجئ إلى ركن من كنيسة لأستطيع ان أبكي في سلام ، فأظلّ منحنية ورأسي بن يدي ، تخنقني ظلمات مريرة .

عاد جاك إلى باريس في أواخر كانون الثاني . وفي اليوم التالي أقبل يطرق بابنا . وكان أهلي قد أخرجوا صوراً لي بمناسبة بلوغي التاسعة عشرة فطلب مني جاك احداها ، وكان في صوته رعشة ودّ لم أعرفها من قبل . وكنت ارتجف ، بعد ثمانية أيام حين طرقت باب بيتهم ، وكنت أخشى انتكاسة لودّه . ولكن مقابلتنا سحرتني ، وكان جاك قد بدأ كتابة رواية بعنوان « البورجوازيون الشبان » وقال لي :

— انما اكتبها من أجلك انت .

وقال انه سيهديني إيّاها . وقد عشت في نشوة كبيرة بضعة أيام ، وحدثته عن نفسي في الاسبوع التالي ، ورويت له ضجري ، واني لم أعد أجد أي معنى للحياة ، فأجاني بلهجة رصينة :

— لا حاجة لمثل هذا الاهتمام، وانما يجب أن تعيشي يوماً بكل بساطة .
ثم أضاف :

— يجب ان يكون لدى الانسان التواضع لكي يعترف بأنه لا يستطيع وحده ان يتدبر امره في هذه الحياة . وانما من الايسر ان يعيش المرء لإنسان آخر .
وابتسم لي ثم قال :

— الحلّ هو أن يحقق أنانيةً لاثنين .

ورددت هذه العبارة ، وتلك البسمة ، وانقطعت عن الشك : لقد كان جاك يحبني وسوف نتزوج ، ولكن كان هناك شيء مغلق من دون شك : ذلك ان سعادتني لم تدم أكثر من ثلاثة أيام . لقد عاد جاك لزيارتنا فقضيت معه أمسية مريحة جداً ، وبعد ذهابه تلاشيت وأنا أقول :
« ان عندي كل شيء لأكون سعيدة ، ومع ذلك فأود ان أموت ! إن حياة هناك ترصدني ، وهي على وشك ان تنفض عليّ .. اني وجيدة

لم وأنا خائفة وسأظل وحيدة ابداً ... لو كان بإمكانني ان افرّ ؟ ولكن إلى أين ؟ إلى أي مكان .. حبذا لو يأخذنا زلزال كبير .

لقد كان الزواج في رأي جاك ان يضع الانسان نهاية لنفسه ، وانا أكن أود ان انتهي بهذه السرعة . ولقد ظلت اتخبط طوال شهر ، وكنت أقنع نفسي أحياناً ان بوسعي ان أعيش إلى جانب جاك من غير أن أتسوّه . ثم يعود الذعر ليستولي عليّ : « ان احجز نفسي في حدود انسان آخر ! فظيع هذا الحب الذي يقيدني ، الذي لا يتركني حرة .. كم اودّ لو أحطم هذه الصلة ، لو أنسى ، لو أبدأ حياة أخرى ... لا ، لم يحن الوقت بعد ، اني لا أريد هذه التضحية بنفسي كلها . »

ومع ذلك فقد كنت أكنّ لجاك اندفاعات حبّ كبيرة ، ولم أكن اعترف بذلك الا باقتصاب : « انه لم يخلق لي » وكنت اوتر أن أحتجّ بأنني لم أخلق للسعادة ولا للحب .. ولقد كنت أخشى ان يقودني عطفي علي إلى أن أصبح زوجته ... وكانت لجاك هواياته أيضاً . كان يوجّه لي ابتسامات ساحرة وهو يقول :

— ان هناك كائنات غير قابلة للاستبدال .

ثم يشملني بنظرة منفعلة ، وكان يطلب مني ان أعود لرؤيته قريباً ، فاذا هو يستقبلني بفتور . وقد سقط مريضاً في أول آذار فعُدته عدة مرات ، وكنت دائماً اجد أمام سريره بعض أقربائه ، وقد قال لي مرة :

— تعالي غداً لتتحدث بهدوء .

وفي اليوم التالي توجهت إلى منزله وأنا شديدة التأثر ، واشترت باقة من البنفسج علقتها في عروة ثوبي ، ولكنني عانيت من تعليقها ، وكان ان أضعت في أثناء ذلك محفظتي . ولم يكن فيها شيء كثير ، ولكنني مع ذلك وصلت نائبة الاعصاب إلى بيت جاك . وكنت قد فكرت طويلاً بهذا اللقاء المنزل في غرفته . ولكنني لم أجده وحده ، بل وجدت عنده

« لوسيان ريبوكور » الذي سبق ان لقيته : انه شاب أنيق لا مبال يتحدث جيداً . وظلاً يتحدثان فيما بينهما عن المشارب التي كانا يترددان اليها وعن الاصدقاء الذين كانا يلتقيان بهم فيها ، وعن التزهات التي ينويان القيام بها في الاسبوع القادم . وشعرت أن وجودي كان ثقيلًا غير مرغوب فيه : لم يكن معي مال ، ولم أكن أخرج في المساء ، ولم أكن إلا طالبة صغيرة غير قادرة على أن تشارك جاك حياته الحقيقية . وكان إلى ذلك شيء المزاج ، وبدا ساخرًا ذلك المساء بل مهاجمًا . وسارعت بالفرار فودعني برضى لا شك فيه . وأخذني الغضب وشعرت انني أحترقه . أي شيء غير عادي فيه ؟ لقد كان هناك كثيرون أفضل منه ، ولقد خدعت نفسي إذ اعتبرته صنوًا لمولن الكبير. لقد كان غير مستقر ، وكان أنانياً ولم يكن يحب إلا التسلية . ومشيت غاضبة في الشوارع وانا اعاهد نفسي على أن افصل حياتي عن حياته . وفي اليوم التالي عاودتني السكنية ، ولكنني كنت قد عازمت على ان أنقطع عن زيارته مدة طويلة. ولقد بقيت على عهدي ، وقضيت أكثر من عشرة أسابيع من غير ان أراه .

٨

لم تفتح الفلسفة لي السماء ، ولم تُرسني في الارض. غير اني مع ذلك ، بدأت أهتم بها بعد ان جاوزت الصعوبة في أول العام . وقرأت برغسون وأفلاطون وشوبنهاور وليبنتز وهملن ، وخصوصاً نيتشه . وكان هناك عدد من الموضوعات يشغلني : قيمة العلم والحياة والمادة والزمن والفن . ولم تكن عندي نظرية محددة ؛ ولكنني كنت أعرف على الأقل اني اطرح ارسطو والقديس توما ومارتيان وجميع الفلاسفات الاختبارية والمادية . وكنت أنتمي بالاجمال إلى المثالية النقدية كما كان يعرضها لنا برنثفيك بالرغم من انها لم تكن تكفيني في عدة نقاط . واستعدت حبي للأدب ،

فقرأت بریتون واراغون ، واستولت عليّ السيریالیة . وباختت في نفسي
فلسفة القلق والحيرة ، في حين بدأت تسحرني مبالغات النكران : تحطيم
الفن والاخلاق واللغة ، واليأس المدفوع حتى الانتحار .

وكان بودي ان اتحدث عن هذه الأشياء وعن جميع الأشياء مع
أشخاص ينجزون عباراتهم ، على عكس جاك . وكنت اسعى إلى مضاعفة
معارفي . وكان يروق لي أن أتحدث طويلاً في « بيلفيل » مع « سوزان
بواغ » ، وكان لها شعر كستنائي قصير وجبهة عريضة وعينان زرقاوان
صافيتان ولون من الجرأة . وكانت تكسب حياتها كمديرة للمركز الذي
تحدثت عنه ، وكان عمرها واستقلالها ومسئولياتها وسلطتها تكسبها لونهاً
خاصاً من السحر والتأثير . وكانت مؤمنة ، ولكنها تركت لي ان أفهم
ان علاقتها مع الله لم تكن دائماً على ما يرام . وكان ذوقنا في الادب
متفقاً تقريباً ، وقد لاحظت برضى انها لم تكن مخدوعة لا « بالفرق »
ولا « بالعمل » بصورة عامة ، وقد اسرت لي أنها تريد ان تعيش ، لا
أن تنام : وانها هي أيضاً كانت يائسة من أن تجد على الارض شيئاً آخر
غير المخدرات . وكانت تتمنى مثلي ان تجد مكانها الحقيقي في هذا العالم .
وفي مطلع الربيع وقعت فجأة في حب زميل لها تقي من زملاء «الفرق»
فعزما على الزواج ، ولكن الظروف كانت تفرض عليهما انتظار عامين ،
غير أن الحب لا يعبأ بالزمن ، كما قالت لي . وكانت تشع اشعاعاً ، وقد
شدت حين أبلغتني بعد أسابيع انها قطعت صلتها بخطيبتها . فقد كان
بينها جاذب جسدي اعنف مما ينبغي ، وقد دُعر الشاب من كثافة
قبلاتهما ، وكان قد طلب من سوزان ان يؤمنا طهارتهما بالغياب ، فينتظر
أحدهما الآخر عن بُعد ، ولكنها فضلت ان تهني معه علاقتها . وقد
وجدت هذه القصة غريبة ولم أعرف مفتاحاً لها ، ولكن خيبة سوزان
أثرت فيّ ووجدتُ جهودها للتغلب عليها امرأً يستحق العطف والتقدير ،
وبدا لي الطلاب الذين كنت احاذيهم في السوربون ، فتيات وفتياناً ،

أشخاصاً تافهين : كانوا ينتقلون عصابات ، ويضحكون باصوات جد عالية ولا يعنون بشيء ويكتفون بهذه اللامبالاة . غير اني تنبّهت في دروس تاريخ الفلسفة إلى وجود شاب بعينين زرقاوين رصينين وثياب سوداء ، لا يكلم احداً إلا فتاة قصيرة سمراء كان يتسم لها كثيراً ، وكان يبدو أكبر مني سنّاً . وكان جالساً ذات يوم في المكتبة يترجم رسائل لانجلز ، فأخذ الطلاب يضحون ويصخبون ، فاذا بعينه ترسلان الشرر ، ثم صاح بهم يطلب السكوت بصوت نافذ حتى انهم أطاعوه فوراً ، فقلت في نفسي « انه لشخصية » . ونجحت في أن احدهه بعد ذلك كلما كانت الفتاة السمراء غائبة . وذات يوم ، سرت معه بضع خطي على شارع سان ميشال ، وسألت أختي في المساء عما إذا كانت تحكم على تصرفي بأنه غير سليم ، فطمأنني وأعدت الكرة بلقائه . وكان بيير نوديه ينتمي إلى فرقة « فلسفات » التي كان ينتمي اليها موهرانج وفريدمان وهنري لوفيفر وبولتيزر ، وكانوا قد أسسوا بفضل مساعدة احد آبائهم ، وكان غنياً ، مجلّة كانوا يعبرون فيها عن آرائهم ، ولكن هذا الأب اغتاض يوماً من مقال ضد الحرب في مراكش فقطع عنهم المساعدة . ولم يمض وقت طويل حتى بُعثت المجلّة مرة أخرى تحت عنوان « ليسبري » - الفكر - وقد أعطاني بيير نوديه جزءين منها ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتصل فيها بمثقفين يساريين . على اني لم أشعر بتغيير الجو ، وانما سمعت اللغة التي عودني عليها أدب ذلك العصر . لقد كان هؤلاء الشباب يتكلمون إن على الفكر أن يكون « متجسداً وحسيّاً » ولكنهم يقولون ذلك بعبارات مجردة . ولم تكن الفلسفة في نظرهم تميّز عن الثورة التي كان أمل الانسانية الوحيد يكمن فيها ، ولكن بولتيزر كان يرى في تلك الفترة ان « المادية التاريخية يمكن أن تنفصل عن الثورة » وكان يؤمن بقيمة الفكرة المثالية شرط ان تؤخذ في

كلفتها الحسّية ودون أن تتوقف عند مرحلة التجريد : ولم يكن للسياسة والاقتصاد في نظرهم الا دور ثانوي ، وكانوا يشجبون الرأسمالية لأنها هدمت في الانسان « معنى الكائن » ويعتبرون أن « التاريخ يخدم الحرية » عبر ثورة شعوب آسيا وافريقيا . وكان فريدمان يحطّم ايدولوجية الشبان البورجوازيين وحبهم للقلق والحيرة ، ولكنه كان يُحِلّ محلّ ذلك لوناً من التصوّف ، ويرى ان الأمر هو ان يستردّ الناس « الجزء الخالد من نفوسهم » . وقد عرف بوليتزر الحياة بعبارة أثّارت ضجة كبيرة : « إن حياة البحار المنتصرة القاسية ، حياة البحار الذي يطفئ سيجارته على جدار الكرملين تخيفك ولا تودّ ان تسمع من يتحدث عنها، ومع ذلك فهذه هي الحياة » . والواقع ان أحاديثي مع نوديه بدأت توسّع افق تفكيري . وكنت أطرح عليه كثيراً من الاسئلة ، وكان يجيبني برضى ، وقد وجدت في هذه الأحاديث من الفائدة ما حملني على التساؤل بجزن أحياناً : لماذا لم يكن من نصيبي ان أحب رجلاً كهذا يقاسمني حبي للفكر والدرس وأحرص عليه بذهني كما أحرص بقلبي ؟ وقد تولّاني الأسى حين ودعني في باحة السوربون في أواخر شهر نوار . وكان يودّ السفر إلى استراليا حيث حصل على وظيفة ، وكانت الفتاه السمراء تصحبه . وشدّ على يدي وقال لي بلهجة عميقة « اني أتمنى لك خيراً كثيراً » .

وفي أوائل آذار قدمت شهادة تاريخ الفلسفة بنجاح ، وتعرفت في هذه المناسبة إلى فريق من الطلاب اليساريين ، فطلبوا مني ان أوقع على مذكرة : كان بول بونكور قد قدم مشروع قانون عسكري يطلب فيه تجنيد النساء . وكانت مجلة « اوروبا » قد فتحت حملة احتجاج . وقد ظلت مدة حائرة . لقد كنت اقرّ مساواة الجنسين ، أو لم يكن واجباً في حالة الخطر ان تشترك المرأة في الدفاع عن وطنها ؟ وقد قلت بعد ان قرأت مشروع القانون : « حسناً ! إنه هذه وطنية طيبة » ، فضحك الشاب السمين الذي كان يطوف بالمذكرة لتوقيعها وعلّق قائلاً :

- يجب ان نعرف إذا كانت الوطنية طيبة !
وكان هذا سؤالاً لم يسبق لي ان طرحته على نفسي قط ، فلم ادر
بمَ أُجيب عليه . وشرحوا لي ان القانون سيؤدي إلى تجنيد عام للضائر ،
وهذا ما جعلني اقرر : إن حرية الفكر مقدسة على أي حال ، ثم ان
جميع الآخرين كانوا يوقعون ، فلا بد ان أوقع .

وتوقفت نشاطاتي السياسية عند هذا الحد ، وظلت افكاري يغشاها
الضباب . وكنت على يقين من شيء هو اني كنت أكره اليمين المتطرف .
وبقيت زازا صديقتي الحقيقية الوحيدة . ولكن المؤسف ان أمها بدأت
تنظر إلي نظرة سيئة ، وتعتقد ان ابنتها انما تفضل الدروس على الحياة
العامة بسبب تأثيري فيها ، ولأنني كنت اعيرها كتباً مريبة . وكانت السيدة ماييل
تكره مورياك كرهاً شديداً ، وتعتبر تصويره للبيوت البورجوازية إهانة
وشتيمة ، كما كانت تحذر كلوديل الذي كانت زازا تحبه لأنه كان يساعدها
على أن توفق بين السماء والارض . وقد أتت أمها أكثر من مرة تشكوني
إلى أمي ، ولم تُخفِ علي زازا أنها تفضل ان نباعد ما بين لقاءاتنا ،
ولكن زازا رفضت ذلك ، وكانت صداقتنا احد تلك الامور التي لم
تكن تريد ان تراجع عنها ، وكنا نتلاقى غالباً وندرس اليونانية معاً
ونقصد حفلات الموسيقى ومعارض الرسم . وكانت غالباً تعزف لي على البيانو
مقطوعات لشوبان ودوبوسي ، وكنا ننتزه كثيراً . وقد تلقيت من زازا
يوماً رسالة بعثتها إلي من « لوباردون » حيث ذهبت تقضي عطلة الفصح ،
وقد أثرت في الرسالة تأثيراً عميقاً :

« لقد عشت منذ الخامسة عشرة من عمري في وحدة كبيرة وكنت
أتألم من إحساسي بالعزلة والضياع . ولكنك انت وضعت حداً لهذه
الوحدة ... ولقد عشت طويلاً وعيناي متجهتان نحو الماضي من غير ان
أستطيع انتزاع نفسي من سحر ذكريات الطفولة . »
أما أنا فقد اراحني جداً اني انقطعت عن رؤية جاك ، لأنني لم أعد

أتألم . وقد ادفأت أشعة الشمس الاولى دمي ، وعزمت على ان أتسلى
فيما انا أواصل عملي الجاد . وكنت أقصد السينما غالباً بعد الظهر ،
وكانت أومي تصحيني مع أختي إلى المسرح احياناً ، وكانت تلك الامسيات
تنير لي حياتي . وكنت في أثناء النهار اتردد إلى المعارض وأذرع طويلاً
اروقة متحف اللوفر ، وانتزه في شوارع باريس دون أن أبكي ، وأنا
انظر إلى كل شيء . وكنت احب الامسيات التي كنت أهبط فيها ، بعد
العشاء ، إلى المترو وحدي فأخرج إلى الطرف الآخر من باريس حيث
تنبعث رائحة الرطوبة والخضرة ، وكنت غالباً ما أعود إلى المنزل مشياً
على الاقدام . وكنت ارى في شارع « لاشيل » نساء يترصدن الرجال ،
ورجالاً يخرجون من المشارب وهم يتمايلون . كان العالم حولي حضوراً
عظيماً مختلطاً ، كنت أسير على عجل وأنا أشعر بانفاسه الثقيلة تلفحني ،
وكنت أقول إن الحياة جميلة بالاجمال .

وانتعش طموحي . ولكنني ظلمت أشعر بوحدتي رغم صداقاتي ورغم
حبي المشكوك فيه . لم يكن هناك أحد يعرفني ويحبي كما انا كلياً . وكنت
أفكر انه ليس بوسع احد قط ان يكون بالنسبة لي شيئاً نهائياً وكاملاً .
وبدلاً من ان استمر في معاناة الألم من ذلك ، رأيتني ارمي بنفسي من جديد
في الكبرياء . وكانت عزلتي تكشف عن تفوقي ، ولم أعد اشك في اني
كنت شخصاً ما واني سأقوم بعمل ما . وبدأت أجمع موضوعات روايات
للكتابة . وقد بدأت ذات صباح في مكتبة السوربون تأليف « كتابي »
وقلت في نفسي اني سأجز هذه الرواية في السنة القادمة « كتاب أقول
فيه كل شيء » . وألححت في مذكراتي على هذه الرغبة بأن أقول كل
شيء بالرغم من ان هذا كان يتناقض مع فقر تجربتي . وكانت الفلسفة
قد عززت ميلي إلى التقاط الأشياء في جوهرها ، في جذورها ، تحت
مظهر الكلية ، ولما كنت اتحرك وسط تجريدات فقد حسبت اني اكتشفت
بصورة حاسمة حقيقة العالم . وكان تفوقي على الآخرين يرجع إلى اني

لم أكن اترك شيئاً يفلت مني ، ولا شك في ان كتابي سيستمد قيمته من هذه الميزة الاستثنائية .

وكنت أتذكر أحياناً ان كل شيء بلا جدوى ، ولكنني كنت اطرح هذه الفكرة ، وأخذ في الردّ على سؤال جاك « ما الفائدة ؟ » في محاورات خيالية معه . لم تكن لي إلا حياة أعيشها ، وكنت اودّ ان أنجح فيها ، ولن يستطيع احد أن يمنعني من ذلك ، حتى ولا هو . ولم أترك وجهة نظر المطلق ، ولكن لما كان كل شيء خاسراً من تلك الزاوية ، فقد عزمت على الاّ اهتمّ بها . وكنت أحب كثيراً كلمة « لانيو » : « ليس لي من سند إلاّ يأسى المطلق » فاذا قام هذا اليأس ، ما دمت مستمرة في العيش ، فيجب عليّ ان اتدبّر امري في الأرض على أفضل طريقة ممكنة ، أي ان أعمل ما يروق لي .

وقد أدهشني قليلاً ان استغني بهذه السهولة عن جاك . ولكن الواقع اني لم أكن مشتاقة اليه قط . وقد أخبرتني أمي في أواخر نيسان انه مندهش لانقطاعي عنه ، فذهبت أطرق بابيه ، ولم يحدث لي شيء . كان يخجل إليّ . ن هذا التعلق لم يكن بعد من الحب ، بل انه كان يثقل عليّ قليلاً . « اني لا أرغب حتى في رؤيته بعد » . وكان قد انقطع عن تأليف كتابه ، وأحسب انه لن ينجزه ابداً . وقد قال لي بترفع : « سيداخطني الشعور بأني انعطى البغاء ! » وقمنا بنزهة في السيارة وحدثني حديثاً بدا لي فيه مرتبكاً من نفسه ، فشعرت بأني أدنو منه من جديد . وقلت في نفسي انه لا يحق لي في آخر المطاف ان انزع منه شذوذاً هو شذوذ الحياة نفسها إذ تقذف بنا نحو غايات ثم تكشف لنا عدميتها . وآخذت نفسي على قسوتي ، واكدت لنفسي أن جاك « خير من حياته » ولكنني كنت أخشى ان تبوخ حياته آخر الامر . ولا أدري لماذا كان يداخطني احياناً ذلك الشعور : « اني أتألم حين افكر فيك ، ولا أدري لماذا تبدو حياتك مفاجئة .

وكانت دورة حزيران تقرب ، وكنت قد تعبت من العمل فلجأت إلى الاسترخاء ، وحققت فراري الاول إذ زعمت لأمي أن هناك جلسة خيرية في « بلفيل » فانتزعت منها إذناً بالسهر إلى منتصف الليل وعشرين فرنكاً . وابتعت تذكرة لمشاهدة فرقة « الباليه » الروسية في مسرح « ساره برنارد » . وبهرتني هناك الانوار والحريير والفراء والجواهر والعطور ، ورأيتني أسبح في عيد ليلى كبير كنت قد ترصدت أنواره في السماء طويلاً . واحسبني لم أبهر بمثل هذا منذ كنت في الخامسة .

وكررت ذلك الفرار وشعرت ان شيئاً جديداً يدخل في حياتي . وفي الايام التي كانت تسبق الامتحانات ، كان بعض الرفاق يقتلون الوقت في ساحة السوربون بالنقاش واللعب والحديث ، فاختلطت بهم ، ولكني ما لبثت ان نفرت منهم لما لاحظته من مسلكهم الخلقي المتحرر . والواقع اني ظلت متحفظة بالخطر والحكمة في كل تصرفاتي ، وكنت أتقلص كلما قيل لي ان فلاناً وفلاناً « كانا معاً » .. وحدث بعد ظهر احد الايام ، إذ كنا في باحة السوربون ، ان قام نقاش بيني وبين شاب ذي وجه طويل كالح ، فتأملني بدهشة وصرح بأنه لا يجد ما يرد به علي . ومنذ ذلك اليوم كان يقصد المعهد كل يوم ليتابع الحوار . وكان اسمه ميشال ريسمن ، وكان أبوه شخصية مرموقة في عالم الفن الرسمي . وكان ميشال يعتبر نفسه تلميذاً لجيد ويؤمن ايماناً بعيداً بالجمال والأدب ، وكان على وشك ان ينجز كتابة رواية يكتبها . وقد دهش اذ أخبرته اني شديدة الاعجاب بالسيرالية . وبدا لي أنه كان مملأً تافهاً ، ولكن خيّل إليّ أن روحاً تكمن وراء بشاعته ، ثم انه شجعني كثيراً على الكتابة وكنت بحاجة الى ذلك . وقد أرسل لي رسالة انيقة مكتوبة بخط جميل عرض عليّ فيها أن تراسل في أثناء العطلة ، فقبلت . كما أننا

تعاهدنا ، أنا وصديقتي بلانشيت ويس على أن ننكاتب . وقد دعيتي الى تناول الشاي عندها ، فشاهدت بيتاً فخماً في شارع كليبر ، وأعارتني مجموعات لفرهارن وفرنيس جيمس .

وكنت قد قضيت سنتي كلها وأنا أئنّ من ان جميع الاهداف كانت عابثة : غير أن هذا لم يمنعني من أن ألاحق أهدافي باصرار . وقد نجحت في شهادة الفلسفة العامة . وكان في رأس اللائحة سيمون ويل ، وكنت أنا أتبعها مباشرة مُتقدّمة شاباً يُدعى جان براديل . وقد تحمست الآتسة لامبير لنجاحي ، وابتسم أهلي لي ، وكان الجميع في السوربون والمترل يهنئونني ، وفرحت بذلك كثيراً . وكان هذا النجاح يؤكد الرأي الحسن الذي كنت أرى به نفسي ويضمن مستقبلي ، وقد علقت عليه اهتماماً كبيراً . بيد أن ذلك ذكرني بالعبارة القائلة : « اذن لقد أحالوني الى هذا ؟ ! » لقد أحالوني الى شخصية طالبة موهوبة فحسب ! وقد بكيته لذلك ... وشعرت ، عبر ضجة نهاية عام مليء ، بالفراغ في قلبي . وظلمت أنشد ذلك الشيء الآخر الذي لم أكد أعرف أن أحدّه لأنني كنت أرفض أن أسميه بالاسم الوحيد الذي يناسبه : السعادة .

وبعد أيام جاء جان براديل وفي رغبته أن يتعرف عليّ بعد أن غاظه أن تتقدم عليه فتانان في النجاح بالشهادة . وكان له وجه صاف جميل ونظرة مخملية وضحكة تلميذ ومزاج مرح . ولقد وجدته لطيفاً ودوداً ، والتقيت به بعد ذلك في أحد المعاهد فتزهرنا في حديقة الكسمبورغ . وكنا آنذاك في العطلة وقد ترك معظم أصدقائي وأصدقائه باريس ، فاعتدنا على أن نلتقي كل يوم . وكان براديل يُحسن الاصغاء . ورأيتني أعجّل في أن أكشف له عن روحي ، فوجدت انه يخالفني في عدد من مواقفي فهو لم يكن يكره « المنازل المغلقة » وكان متفاهماً كل التفاهم مع أمه وأخته بعد موت أبيه ، ولم يكن يحتقر حضور الحفلات الكبرى وكان يرقص في المناسبات ، وكان يرى ان في الناس جانب خير وجانب

شر : وقد انتقد قسوتي في الحكم على الناس . وباستثناء ذلك ، كان بيننا كثير من النقاط المشتركة . وكان يكره تصرفات رفاقه حين تتجاوز حدودها ، والاغنيات الفاجرة والدعارة واللامبالاة ، وكان يحب من الكتب مثل ما أحب تقريباً ، مع تفضيل لكلوديل . وكان ما يعنيني فيه خصوصاً أنه كان هو أيضاً يبحث عن الحقيقة ، وكان يعتقد أن الفلسفة ستمكنه يوماً من اكتشافها . وقد ظللنا طوال خمسة عشر عاماً نبحث في ذلك ، وقد أخذ عليّ أني عجلت في اختيار اليأس ، وأخذت عليه تعلقه بآمال لا جدوى منها : لقد كانت جميع الانظمة عرجاء . غير أنه كان يؤمن بالعقل البشري .

ولاحظت أنه كان بيني وبين براديل ، بالرغم من تقاربنا ، مسافة ما . فأنا لم أقع في حيرته على تمزقاتي الداخلية ، وقد حكمت عليه بأنه غير معقد . وبسبب رصانته وقيمته الفلسفية كنت أحترمه أكثر مما أحترم جاك . ولكن جاك كان يملك شيئاً لم يكن براديل يملكه . وقد قلت لنفسني وأنا أنتزه في أروقة اللكسمبورغ إنه لا هو ولا جاك كان يناسبني لو كان أحدهما يريدني زوجة له . وما كان يربطني بجاك في تلك الاثناء تلك الفجوة التي كانت تقطعه عن وسطه ، ولكن المرء لا يستطيع أن يبني شيئاً على فجوة ، وقد كنت أود أن أبني فكرة ، أن أبني عملاً . وكان براديل مثقفاً مثلي : ولكنه كان متأقلاً مع طبقته ومع حياته ، وكان يقبل المجتمع البورجوازي بكل رضى ، ولم أعد أستطيع أن أوافق على تفاوله بالباسم ، كما لم أكن أقر عدمية جاك ، والواقع اني كنت أخيف الاثنين معاً لاسباب مختلفة ، فكنت أتساءل : « هل يتزوج الرجال امرأة مثلي ؟ » لاني بتّ لا أفرق بين الزواج والحب . انني على يقين أنه ليس هناك شخص يفهمني كلياً ويكون صنوي كاملاً . والحق ان ما كان يفصلني عن جميع الآخرين انما هو لون من العنف لم أكن أجده في غيري . وهذه المقارنة مع براديل عمقت اعتقادي بأنني

كنت مرصودة للوحدة .

على اننا كنا متفاهمين ما دام الامر لا يتعدى الصداقة ، فقد كنت أقدر حبه للحقيقة ومنطقه . وهو لم يكن يخلط العواطف مع الأفكار ، وقد أدركت ، تحت نظره التزيه المتجرد ، أن حالاتي النفسية كانت غالباً ما تقوم مقام أفكارى . وعاهدت نفسي على ألا انخدع بعد الآن . وطلبت من براديل ان يساعدني على أن أحذر جميع الاكاذيب ، بحيث يكون « ضميري الحي » . وعزمت على أن أكرس الاعوام المقبلة للبحث بجدّ وحماس عن الحقيقة . ولقد أدّى لي براديل خدمة كبيرة إذ أنعش رغبتى في الفلسفة ، وخدمة أكبر اذ ردّ لي حسّ المرح ، انا التي لم أكن أعرف أي انسان مرح . وكان يحتمل ثقل العالم برضى وحبّ حتى ان هذا العالم كفّ عن أن يسحقني ، فاذا بي أرى الصباح وزرقة السماء والتلال الخضراء والشمس وكل شيء في اللكسمبورغ يلتمع كأجمل ما تلتمع الايام . « إن الأغصان هي الآن عديدة وجديدة ، وهي تقنّع الهوة التي تحتها . » وكان هذا يعني اني كنت سعيدة بأن أعيش واني بدأت أنسى قلقي الميتافيزيقي .

وحدث يوماً أن صحبني كلاديل الى البيت ، فالتقت أُمي به وأعجبها ووقعت هذه الصداقة موقع الرضى منها .

١٠

كانت زازا قد فازت بشهادة اللغة اليونانية ، فسافرت الى « لوباردون » وفي أواخر تموز ، تلقيت منها رسالة قطعت أنفاسي . لقد كانت شقية الى حد اليأس ، وقد شرحت لي في رسالتها الأسباب ، اذ روت أخيراً قصة تلك المراهقة التي عاشتها الى جانبي وكنت أجهل منها كل شيء . فمنذ خمسة وعشرين عاماً قبل ذلك ، كان قريباً لأبيها قد سافر الى

الارجتين التماساً للرزق ، فاغتنى فيها غنىً كبيراً . وكانت زازا في الحادية عشرة حين عاد الى مسقط رأسه في « لوباردون » ، وكان متزوجاً وله صبي « منزل ، حزين ، لا يخلو من فظاظة . » اتخذها له صديقة حميمة . وقد ألحقه ذووه في مدرسة داخلية ، ولكنها كانا يلتقيان في أثناء العطل ، ويقومان بتلك التزهات على ظهر الفرس ، تلك التزهات التي كانت زازا تحدثني عنها مشرقة العينين . وحين بلغا الخامسة عشرة أدركا أن أحدهما كان يحب الآخر . وكان أندريه معزولاً ، فلم يكن يعرف غيرها في الدنيا ، وكانت هي تعتقد أنها قبيحة محترقة فارتمت بين ذراعيه ، وسمحا لأنفسهما يتبادل قبلات شدتها الى بعض شدة عميقاً . وأخذتا يتبادلان الرسائل كل أسبوع ؛ وكانت تحلم به هو في أثناء الدرس ... غير أن أهل زازا وأهل أندريه - وهم أغنى بكثير - كانوا مختصمين ، فهم لم يعارضوا من قبل ان تقوم بينهما الصداقة ، ولكنهم حين رأوا أنها قد كبرا تدخلوا لوقف هذه الصداقة . ولم يكن وارداً ان يسمحوا بزواجهما قط . وقررت السيدة ماييل ان يكفياً عن اللقاء . وقد كتبت لي زازا في ذلك تقول :

« في عطلة رأس السنة عام ١٩٢٦ ، قضيت هنا يوماً واحداً لأرى أندريه وأقول له إن كل شيء بيننا قد انتهى . ولقد صارحته بأقسى الأمور ، ولكن ذلك كان عبثاً ، فاني لم أستطع أن أمنعه من ان يزي كم كان عزيزاً عليّ ، وكان من نتيجة هذا اللقاء أن عمق حبنا وشد رباطنا . والواقع أنهم حين قسروني على ان أقطع علاقتي بأندريه ، تأملت ألاماً شديداً حتى اني كنت على قاب قوس من الانتحار . واني أذكر مساء رأيت المرو مقبلاً فهممت بأن ألقي نفسي تحت عجلاته . لقد كنت فاقدة آنذاك أية رغبة في « الاستمرار بالعيش . »

ومرت بعد ذلك ثمانية عشر شهراً من غير أن ترى أندريه ، ولم يتبادلا أية رسالة . وعادت يوماً الى لوباردون فالتقت به فجأة :

« طوال عشرين شهراً لم يعرف أحدنا شيئاً عن الآخر ، وكنا قد سلطنا دربين جدّ مختلفين حتى أننا شعرنا ، اذ تقاربنا فجأة بشيء مؤلم وفضيع . لقد تمثّلت بكل وضوح جميع المشقّات وكل التضحيات التي ينبغي أن ترافق عاطفة تقوم بين كائنين مثلنا ، ولكني لم أكن أستطيع أن أتصرف على غير ما تصرفت ، ولم يكن بوسعي أن أعزف عن حلم شبابي كله وعن مثل تلك الذكريات العزيزة ، ولم أكن أستطيع أن أدع انساناً كان في مثل تلك الحاجة الشديدة اليّ . إن اسرة أندريه وأسرتي شديدتا الزهد بتقارب من هذا النوع . وقد سافر هو في شهر أكتوبر الى الارجتين لمدة عام يعود بعدها ليؤدي الخدمة العسكرية في فرنسا . وإذن فان أماننا بعد كثيراً من المصاعب وفراقاً طويلاً . وإذا قدر لاهدافنا أن تتحقق أخيراً فسوف نعيش عشر سنوات على الأقل في أميركا الجنوبية . وهكذا ترين ان هذا كله غامض مظلم ، ولا بد لي من ان أحدث أُمي هذا المساء ، فمنذ عامين قالت « لا » بكل قوة ، وأنا الآن مضطربة مقدّماً من الحديث الذي سوف أعقده معها . أنت تعرفين أنني أحبها حباً يصعب عليّ معه أن أسبّب لها هذا الهمّ وأن أخالف ارادتها . لقد كنت أدعو دائماً في صلواتي وأنا صغيرة : أن لا يتألم أحدٌ بسببي . وأسفاه ! ما أبعد هذه الرغبة عن امكانية التحقيق ! »

قرأت هذه الرسالة عشر مرات ، والغصة في حلقي . واني لأفهم الآن ما طرأ من تغيير على زازا في الخامسة عشرة من عمرها ، وشرودها ورومنطيقيتها واستشعارها العجيب للحبّ : لقد تعلّمت أن تحبّ بدمها ، ومن أجل هذا كانت تضحك حين يصفون بالأفلاطونية حب تريستان وإيزولت ، ومن أجل هذا كانت فكرة الزواج المسادي توحى لها بالكره والرعب .. كانت تقول : « أودّ لو أنام فلا أستيقظ أبداً . » فلا أهتم بهذا المعنى ، اذ كان مستحيلاً عليّ أن أنخيل زازا

واقفة بقبعتها عند محطة مترو وهي تحديق بالقضبان الحديدية ..
وتلقيت منها رسالة أخرى بعد أيام ، روت لي فيها أن المحادثة
مع أمها انقضت على أسوأ وجه ، وقد حرمت على زازا مرة أخرى
أن ترى قريبها. وكانت زازا من شدة الايمان بمسيحيته أنها لم تكن
تفكر في عصيان أمرها : ولكن ذلك المنع لم يبد لها بشعاً كما بدا لها
في تلك اللحظة ، حين كان يفصلها عن الفتى الذي تحبه خمسمئة متر
فقط . وان ما كان يجلب لها أعظم العذاب تفكيرها بأنه انما كان
يتألم بسببها ، في حين انها لا تكف عن التفكير به لحظة من نهار أو
ليل . ولقد ظل هذا الشقاء يعتمل في نفسي ولا أحسب أنني عرفت
أعمق منه . وكان منتظراً أن أقضي مع زازا ذلك العام ثلاثة أسابيع
في منزلها ، وكنت أتعجل هذا اللقاء .

١١

حين وصلت الى «ميرينيك» أحسنتي « هادئة كما لم أحسني منذ ثمانية عشر
شهرًا . » بالرغم من ان مقارنة براديل بجك لم تكن في صالح هذا
الأخير الذي كنت أتذكره بلا رحمة : « آه ! تلك الخفة ، وذلك
النقص في الرصانة ، وحكايات المشارب تلك ... ان فيه من الصفات
النادرة ما ليس في غيره ، ولكن يتقصه كذلك شيء هام .. ! » كنت
قد انفصلت عنه وتعلقت ببراديل وتبادلنا رسائل كثيرة . وكتبت أيضاً
لريسمن وبلانشيت ويس والآنسة لامبير وسوزان بواغ وزازا . وبفضل
هذه الرسائل ، ولا سيما رسائل براديل ، كفت عن ان أشعر بالوحدة
وكنت أعقد مع أخي محادثات طويلة ، وكانت قد نجحت في بكالوريا
الفلسفة فتقاربنا كثيراً . ولم أكن أخفي عنها شيئاً ، باستثناء موقفي
الديني ، وقالت لي يوماً بغيظ :

— ان ما يسوعني ان تُفتح أمامي رسائلي ، فلا أجد بعد ذلك رغبة في قراءتها .

ثم رجونا أننا ان تكفّ عن مراقبة رسائلكم بعد ان بلغنا انا التاسعة عشرة وهم سابعة عشرة . فأجابت أمي أنه كان من واجبها أن تسهر ولكنها ما لبثت أن استجابت لرغبتنا ، وكان هذا نصراً

والواقع أن علاقتي مع أهلي كانت قد تحسّنت بالاجمال ، فقضيت أياماً هادئة وفكرت في أن أكتب ، ولكنني ترددت في ذلك . ذلك ان براديل كان قد أفنعي بأن المهمة الاولى هي البحث عن الحقيقة : أترى الأدب يمكن ان يصرفني عن ذلك ؟ أو ليس في موقفي بعض التناقض؟ كان بودي أن أسجل عبث كل شيء، ولكن الكاتب يخون يأسه بمجرد ان يكتب عنه كتاباً ، فمن الخير له أن يظل صامتاً . وكنت أخشى كذلك اذا كتبت ، أن أكون مسوقة لثمني النجاح والشهرة ، وهذا ما كنت أحقره . على أن هذه الوسوس لم تكن من النقل والأهمية بحيث توقفتني . ولقد استشرت بالمراسلة عدداً من أصدقائي فشجعوني على الكتابة كما كنت أتمنى . وبدأت كتابة رواية طويلة : وكانت البطله تجتاز كل تجاربي ، وتستيقظ على « الحياة الحقيقية » وتدخل في صراع مع وسطها وتطوف بكل شيء في مرارة : العمل والحب والمعرفة . ولم أعرف قط نهاية هذه القصة ، لأنني افتقرت الى الوقت فتركتها في منتصف الطريق .

ولم تكن لهجة الرسائل التي تلقيتها من زازا في هذه الفترة تشبه لهجتها السابقة . وقد قالت لي انها لاحظت بانها خلال السنتين الاخيرتين قد نمت نمواً فكرياً خاصاً ، فنضجت وتغيرت . وقد شعرت في لقائها الأخير بأندرية أنه لم يتطور ، وأنه بقي طفولياً رخسناً . وبدأت تتساءل عما اذا لم تكن أمانتها « عناداً في ملاحقة أحلام لا تود ان

تلاشى ، ونقصاً في الصدق والجرأة . « ولا ريب أنها استسلمت استسلاماً شديداً لتأثير « مولن الكبير » : « لقد استوحيت منه حباً وورغبة في الحلم لا يسندها أي واقع » . وهي لم تكن نادمة بالطبع على حبها لقريبها : « فان هذه العاطفة التي أحسستها في الخامسة عشرة كانت قطني الحقيقية على الوجود ، فمنذ أحببت بدأت أفهم عدداً لا يُحَدّ من الأمور ، وأعد أجد أي شيء مضحكاً . » ولكن كان لا بد لها أن

على اثر الانقطاع الذي تم عام ١٩٢٦ ، قد خلّدت ... صبي وطاولته بصورة مصطنعة لفرط ما حملت به . ومهما يكن ، فقد كان على اندريه أن يسافر لمدة عام الى الارجلتين : فحين يعود ، لا بد من اتخاذ قرار ما . أما الآن ، فقد ضجرت من التساؤل ، وكانت تقضي عطلة كثيرة الحركة مرهقة . وقد كتبت تقول لي : « أما الآن ، فأني لا أريد ان افكر بغير التسلية . »

وقد أدهشتني هذه العبارة وعبرت عن هذه الدهشة في جوابي ، فدافعت عن نفسها بان التسلية لم تكن لتحلّ شيئاً ، وكتبت تقول : « لقد نظمت أخيراً رحلة كبيرة مع أصدقاء ، ولكنني كنت آنذاك بحاجة الى الوحدة شديدة حتى اني ضربت قدمي بالفأس لأتجنب المشاركة في هذه التزهة . وكان ان قضيت ثمانية أيام على الكرسي الطويل وسمعت كثيراً من عبارات الشفقة ، غير اني حصلت على بعض الوحدة التي كنت أنشدتها وعلى حق الصمت وحق عدم التسلية . »

وقد انقبض صدري لذلك ، وكنت أعرف كيف يمكن لليأس أن يدفع الانسان إلى تمنّي الوحدة : « وحق عدم الكلام » ، ولكنني لم اجرؤ قط على ان اجرح قدمي . لا ! لم تكن زازا بليدة ولا مستسلمة : لقد كانت على عنف أصمّ يخيفني ، وما كان ينبغي الاستخفاف بأية كلمة من كلماتها ، لأنها كانت أبجل مني بالكلام . ولو لم أحرّضها على ذلك لما أشارت في رسالتها إلى هذا الحادث .

ولم ارد ان أخفي عليها شيئاً بعد ، فاعترفت لها بأني فقدت الايمان وأجابني بأنها قد أدركت ذلك ، وانها هي أيضاً قد اجتازت في أثناء

العام ازمة دينية .

« حين كنت أقارن بين الايمان وطقوس طفولتي والعقيدة الكاثوليكية وبين جميع افكاري الدينية ، كنت أجد عدم انسجام كبير كان يؤدي بي إلى نوع غريب من الدوار . وقد وجدت في كلوديل عوناً كبيراً وأنا مدينة له بما لا أستطيع تعدادة ، وأنا مؤمنة بالقلب أكثر مما أنا مؤمنة بالعقل ، كما كان شأني في السادسة من عمري . وأعتقد خصوصاً ان الله غير مفهوم منا تماماً وان الايمان الذي يهبنا إياه هو هبة فوق الطبيعة ، هو نعمة من عنده . ومن أجل هذا لا أستطيع الا أن أرثي من كل قلبي لأولئك الذين حرموا هذه النعمة ، واعتقد أنهم إذا كانوا صادقين ومتعطشين للحقيقة ، فسوف تنكشف لهم هذه الحقيقة عاجلاً أو آجلاً . والحق ان الايمان لا ينقذ الظلم ، فيستوي في الصعوبة إدراك أمن القلب حين يؤمن المرء وحين لا يؤمن . وكل ما هناك انه يأمل إدراك ذلك في حياة أخرى . »

وهكذا فان زازا لم تكن تكفي بقبولي كما كنت ، وانما كانت تهتم بأن ترفض أي ظل لتفوقها ، فاذا كان في السماء قشّة تلتمع في نظرها ، فان ذلك لم يكن يمنعها من أن تتلمس طريقها على الأرض فوق مثل الظلمات التي كنت أعانيها ، ولم يحل ذلك دون أن نمضي في السير جنباً إلى جنب .

وفي العاشر من أيلول سافرت إلى « لوباردون » ، فقادتني زازا إلى الغرفة التي كان عليّ ان أقاسمها إياها مع جنيفاف دو برافيل وهي فتاة نضرة وعاقلة كانت السيدة ماييل تحبّها حباً كبيراً . وحين تركت وحدي لأبدل ثيابي ، وقع نظري على دفتر أسود فتحته بالمصادفة فقرأت فيه : « سيمون دو بوفوار تصل غداً ، ويجب أن أعترف ان هذا لا يروق لي لأنني ، بصراحة ، لا أحبها . » وظللت مشدوهة : كانت هذه تجربة جديدة ومزعجة ، فأنا لم أفكر يوماً بأن من الممكن أن يكنّ

لي أحدٌ كراهية عميقة . وقد أرعيني قليلاً وجه تلك الفتاة التي كنتها
في نظر جنيف . وطرق الباب فجأة ، ودخلت السيدة ماييل تقول :
- اودّ ان اتحدّث اليك يا صغيرتي سيمون .

ففوجئتُ برقة صوتها لأنها كانت منذ وقت طويل قد انقطعت عن
الابتسام لي . وسألنتي بارتباك عما إذا كانت زازا قد « روت لي
الخبر » فأجبتها بالإيجاب ، وكان يبدو أنها كانت تجهل ان عواطف
ابنتها كانت قد بدأت بالتفور ، فأخذت تشرح لي لماذا كانت تحاربهما ،
لقد كان أهل اندريه يعارضون ذلك الزواج ، ثم انهم كانوا ينتمون إلى
وسط غني وفاسد لا يلائم زازا على الاطلاق . فكان لا بدّ لها من
ان تنسى قريبها ، وكانت السيدة ماييل تعتمد عليّ لمساعدتها في ذلك .
وقد احتقرت المشاركة التي تقترحها عليّ ، على ان نداءها قد اثر فيّ ،
فأكدت لها اني سأقوم بكل ما في وسعي .

وفي بدء إقامتي ، تتابعت الحفلات والدعوات بلا هدنة ، وكان
المنزل مفتوحاً على مصراعيه ، وكانت موجات من الاقرباء والاصدقاء
تدلف اليه لتتناول الغداء أو الشاي أو لتلعب بكرة المضرب أو البريدج .
وكانت السيارة تقودها السيدة ماييل أو زازا أو ليلى ، تقودنا لرقص
في منزل مجاور ... وبعد العشاء ، كان بعضهم يجلس إلى البيانو ، فتأخذ
الاسرة كلها في الغناء . أما الصباح ، فكانت تلتهمه الاعمال المنزلية ،
فلم أكن أرى زازا في الصباح قط ، وكان هذا يبعث في نفسي
الضجر . وبالرغم من اني كنت متجرّدة من الحسّ البسيكولوجي
فقد كنت أشعر ان أسرة ماييل واصدقاءها كانوا يحترسون مني . ولم
أكن أحسن مجاملة السيدات العجائز ، ولم أكن أقيس حركاتي أو
ضحكاتي ، وكنت مفلسة ، وكنت أبحث عن عمل : كل هذا كان
لا يروق لأحد ... وفوق هذا ، سأكون مدرسة في مدرسة علمانية .
وكان جميع هؤلاء الاشخاص يحاربون منذ أجيال النزعة العلمانية ،

وكنت أعدّ لنفسي في نظرهم مستقبلاً شريراً . وكنت الترم الصمت ،
ما امكنتني ذلك وراقب نفسي ، ولكن عبثاً : فقد كانت كل كلمة من
كلماتي ، وحتى صمتي ، ناشراً . وكانت السيدة ماييل ، تفسر
نفسها على اللطف . وكان السيد ماييل والسيدة العجوز لاريفير
يتجاهلاني بأدب . وكان كبير الأولاد قد التحق بالدير ، وكانت
بييل ، اخت زازا ، ذات نزعة دينية ، فلم تكن تهتمّ بي . أما
الصغار ، فكنت اثير دهشتهم بغموض ، أي أنهم كانوا ينتقدوني
بغموض . وكان الحديث يوماً يدور حول اقتراع النساء ، فبدا منطقياً
للجميع ان يكون للسيدة ماييل حق الاقتراع أكثر من عامل سكر .
ولكن ليلى ذهبت إلى القول بأن النساء ، في الاحياء الدنيا ، كن أكثر
« احمراراً » من الرجال ... وبدأت هذه الحجة حاسمة في نظر المجتمعين ،
وانا التزمت الصمت ، ولكن هذا الصمت بدا ، في جوقة الموافقة ،
وكأنه عمل هدام !

وصارحتني زازا ، ذات لحظة ، بان صداقتها لجانفياف كانت
محدودة جداً ، وإن كانت هي تعتبرها صديقتها الحميمية : وقد تعزيت
حين سمعت ذلك . ثم سافرت جانفياف وهدأ البيت قليلاً ، فاستأثرت
بزازا . وذات ليلة ، بينما كان المنزل كله نائماً ، ألقينا على كتفينا
شالين وخرجنا إلى الحديقة ، فجلسنا تحت شجرة صنوبر وأخذنا
نتحدث . وكانت زازا قد تأكّدت من انها لم تعد تحبّ قريبها ، وقد
حدّثتني مفصلاً عن قصتها . وليلتذاك فقط وقفت على طفولتها وعلى
ذلك الهجر الطويل الذي كانت ضحيته ، وقد قلت لها :

— أما أنا ، فقد كنتُ أحبك .

فهبطت من الغيوم ، وصارحتني بأنني لم أكن احتلّ إلاّ مركزاً
مشكوكاً فيه في سلّم صداقاتها التي لم يكن وزن اي منها ثقيلاً على أي
حال . وكان في السماء قمرٌ يختصر ، فأخذنا نتحدث عن طفولتنا

ونستشعر الحزن لحماقتنا . وكانت هي شديدة التأثر لتجاهلها إياي ولما سببته لي من مشاق . ووجدت مريراً ان أقول لها هذه الاشياء اليوم فحسب بعد أن فقدت حقيقتها . على انه كان ثمة عذوبة في تبادل هذه التأسفات . ولم يسبق لنا قبل الآن ان كنا متقاربتين هذا التقارب ، ولقد انتهى مكوثي نهاية سعيدة . فلقد كنا نجلس في المكتبة ونتحدث وحوّلنا مؤلفات الأدباء الكبار . وقد قرأت لزازا بضع صفحات من روايتي ، فشجعتني على الاستمرار ، وقالت انها تود هي أيضاً أن تكتب ، فحشنتها على ذلك . وافترقنا بلا حزن ، لأن لقاءنا بعد ذلك كان وشيكاً في باريس .

١٢

كنت في سن أو من فيها بفعالية الرسائل المتبادلة . وقد كتبت لأمي من « لوباردون » أطلب أن تمنحني ثقتها ، وأؤكد لها أنني سأكون في ما بعد « أحداً » . فأجابتي بكل لطف . وحين رجعت الى البيت شعرت لحظة بضيق مفاجيء : لا يزال أمامي ثلاثة أعوام أقضيها بين هذه الجدران ! ولكن الأشهر الأخيرة كانت قد خالفت عندي ذكريات طيبة دفعني الى التفاؤل . وكانت الآنسة لامبير تمنى أن أتولى عنها صف البكالوريا في معهد سانت ماري ، فقبلت أن أدرس علم النفس لأربح بعض المال ولأتدرب على التدريس . وكنت أنوي أن أنجز ليسانس الفلسفة في نيسان ، وليسانس الأدب في حزيران . وان تتطلب مني هذه الشهادات الأخيرة عملاً كثيراً ، بحيث يبقى عندي وقت كاف للكتابة والقراءة وتعميق المسائل الكبرى . وقد وضعت خطة واسعة للدراسة ، ووجدت لذة كبيرة في أن أنظم المستقبل على شكل قصاصات من الورق . وكنت مشوقة لرؤية رفاقي في السوربون .

وقصدت جاك وشرحت له نظريتي . كان لا بدّ للمرء من تكريس حياته لبحث عن سبب حياته : وفي انتظار ذلك ، ينبغي له الا يأخذ أي شيء على أنه مبتوت فيه ، بل عليه أن يؤسس قِيمَه بأعمال حب وإرادة متجدّدة أبداً . واستمع إليّ بطيبة خاطر ولكنه هزّ رأسه وقال :
— لن يكون هذا قابلاً للحياة .

ولما ألححت ابتم وقال :

— ألا تعتقدان أن ذلك شيء مجرد جداً بالنسبة لأشخاص في العشرين

من العمر ؟

وكان يتمنى أن تظل حياته ، لمدة أخرى من الزمن ، لعبة كبيرة للصدف . وفي الايام التالية صوّبت نظريته تارة وخطأها تارة أخرى . وعزمت اني كنت أحبه ، ثم عزمت اني لم أكن أحبه ، كنت ممزقة ، وبقيت شهرين من غير أن أراه .

ورحت أنتزّه مع جان براديل حول بحيرة غابة بولونيا . وكنا نتفرّج على الاشخاص الذين كانوا يجذّفون وبتناقش بحرارة أدنى . وكنت شديدة التعلق ببراديل ، ولكن كم كان قليل التبرّم ! كان هدوؤه مجرّحي . وقد أعطاني ريسان روايته التي حكمت عليها انها صيبانية وقرأت له بعض صفحات من روايتي أضجرتة كثيراً . وكان جان ماليه يحدثنا دائماً عن « ألين » وسوزان بواغ عن قلبها والآنسة لامبير عن الله . وكانت أختي قد التحقت بمدرسة للفنون التطبيقية لم تعجبها على الاطلاق ، فكانت تبكي من جراء ذلك . وكانت زازا تمارس الطاعة وتقضي الساعات وهي تختار النّادج في المخازن الكبرى . ولقد سقط عليها الضجر مجدداً والوحدة . حين سبق لي أن قلت ، ونحن في حديقة الكسمبورغ ، بأنه ستكون نصيبي ، كان في الهواء من المرح والجدل ما حال بيني وبين ان أنفعل أكثر مما ينبغي ، ولكن المستقبل أخافني ، عبر ضباب الحريف . انني لن أحب أحداً وليس ،

هناك من هو كبير حقاً بحيث أحبه ، اني لن ألقى حرارة منزل وأسرة ، وسوف أفضي أيامي في غرفة بالضاحية لا أعادها إلا لالقاء دروسي : وأية قسوة ستكون ! بل اني كفتت عن ان أرجو أن اعرف مع أي كائن بشري أي تفاهم حقيقي . لم يكن في أصدقائي من كان يتقبلني بلا تحفظ : لا زازا التي كانت تصلي من أجلي ، ولا جاك الذي كان يجذني تجريدية أكثر مما ينبغي ، ولا براديل الذي كان يعنى عليّ حماسي وآرائي العاطفية . وان ما كان يفتّهم مني هو ما كان عندي من عناد : رفضي لهذه الحياة العادية التي كانوا يقرّونها بصورة أو بأخرى ، وجهودي اللامنظمة للخروج منها . وحاولت أن أتمسك السبب لذلك : « اني لست كالأخرين » علي اني لم أقتنع . فاذا انفصلت عن الآخرين ، انقطع ما بيني وبين العالم من صلة ، وأصبح العالم مشهداً لا يعنيني : نقد زهدت ، علي التوالي ، بالمجد والسعادة وبخدمة الناس ، وهأنذا الآن لا أهتم حتى بأن أعيش . وكنت أخسر أحياناً حسّ الواقع ، فلا تبدو الشوارع والسيارات والمارة في نظري الا موكباً من المظاهر كان وجودي بينها يرفرف بلا اسم . وكان يتفق لي أن أعتبر نفسي مجنونة ، بلا اعتزاز ، بل بخوف : والحق ان المسافة لم تكن طويلة بين وحدة قائلة وبين الجنون . لقد كانت لي أسباب وجيهة في أن أتبه . اني منذ عامين أنخبط في شرك لا أجسد له مخرجاً . وكنت لا أني أصطدم بعقبات كأداء ، وانتهى بي الأمر الى الدوار . وقد ظلت يداي فارغتين ، وكنت أخدع خيبي اذ أوكد لنفسي في وقت واحد أنني سأمتلك ذات يوم كل شيء وانه ليس ثمة شيء يستحق أي اهتمام : هكذا كنت أنخبط في هذه التناقضات . وكنت علي الأخص ذات صحة جيدة وشباب طافح ، وكانت هذه الحيوية التي لم أكن أنفقها تتسلسل في تيارات لا مجدبة تملأ رأسي وقلبي . لقد كفت الأرض عن أن تكون شيئاً بالنسبة لي ، وكنت « خارج

الحياة ، ، بل اني لم أعد أتمنى أن أكتب ، فقد عادت لاهبئة كل شيء تأخذ بخناقني ، ولكن كان حسبي ما عانيته ، لقد بكيت فسي الشتاء المنصرم أكثر مما ينبغي ! واخترعت لنفسي أملاً ... ففي لحظات الانفصال الكامل الذي يبدو فيه الكون وقد تقلص الى لعبة أو هام وانهدمت فيه « الأنا » ، كان هناك شيء ما يبقى قائماً : شيء غير قابل للانهدام ، شيء خالد . ولقد بدا لي ان لامبالاتي كانت تكشف عن حضور لم يكن من المستحيل الاندماج فيه . ولم أكن أفكر بالله المسيحيين ، غير اني كنت متأثرة بالآنسة لامبير وبيراديل اللذين كانا يؤكدان امكانية بلوغ الكائن . ولقد قرأت افلوطين ودراته عن علم النفس الصوفي ، فجعلت اتساءل عما اذا كانت بعض التجارب قادرة ، خارج حدود العقل ، على ان تمنحني المطلق ، وصرحت بقولي : « أودّ أن ألمس الله أو أصبح الله . » واستسلمت طوال العام الى هذا الدهول . غير اني كنت قد بدأت أضجر من نفسي . فانقطعت عن كتابة مذكراتي ، وشاغلت نفسي . ووجدت تسلية في التدريس ، هولكني تابعت كتابة روايتي ، وكنت أذهب الى المسرح مرة في الاسبوع مع زازا أو وحدي . بيد اني لم أكن أتحمس لشيء بعد .

وحين عدت الى جاك ، استعاد بساطته وحركاته القديمة ، فانتعش الماضي في نفسي . وترددت عليه مراراً ، وكان يتكلم كثيراً : إن بإمكان المرء ان يلتقي في مكان ما مجهول أشخاصاً مختلفين عن الآخرين ، فتقع أشياء : أشياء غريبة ، فاجعة بعض الشيء ، وقد تكون أحياناً جميلة جداً . ولكن ما أن يُغلق الباب حتى تنطفئ الكلمات . غير اني لمحت بعد أسبوع طريق المغامرة . المغامرة ، الفرار ، الرحلات الكبيرة : لعل في ذلك الخلاص . ولم يكن جاك قد اجتاز المحيط ، ولكن عدداً من الروائيين الشباب كانوا يؤكدون ان بإمكان المرء أن يقوم برحلات مدهشة من غير أن يغادر باريس ، وكانوا يتحدثون

عن الشاعرية المحركة التي كانت ترفرف على تلك المشارب التي كان جاك يجرجر فيها ليليه . واستعدت حبي له . وكنت قد أوغلت في اللامبالاة بل وفي الاحتقار بحيث أن هذه العودة أدهشتني . غير اني أحسب أن بإمكانني ان أعلمها . فقد كان الماضي أولاً غنياً وثقيلاً ، فأنا أعود الى حب جاك لأنه سبق لي أن أحببته . ثم انه قد أتعبني ان يبقى قلبي جافاً وأن ييأس . فقد كان ثمة رغبة في الحنان والسلام تراودني . وكان جاك يبدي لي من اللطف ما كنت أحسبه صادقاً ، وكان ينفق عليّ ويسليني . ولكن ذلك كله لم يكن كافياً لردني إليه ، وإنما الذي كان حاسماً في ذلك هو أنه قد ظلّ غير مستقر في جلده ، وبقي متردداً شاكاً ، فكنت أجدني أقل شذوذاً الى قربه مني الى قرب جميع الاشخاص الذين كانوا يتقبلون الحياة . ولم يكن شيء يبدو لي أهم من أن أرفض هذه الحياة ، وقد استنتجت من ذلك اننا كنا ، هو وأنا، من نوع واحد ، ولذلك عدت الى وصل مصيري بمصيره مرة أخرى . والواقع ان ذلك لم يحقق لي كثيراً من العون والغزاء ، فقد كنت ادرك مدى الاختلاف بيننا ، ولم أكن أتوقع ان يحرنني الحب من الوحدة . وإنما كنت أشعر بأني أخضع لقدّر ، لا أنني أمضي بحرية نحو السعادة .

وكان احساسني حين بلغت العشرين رغبةً في أن أتذوق أنا أيضاً هذه الحياة التائهة اللامجدية التي كان جاك والروائيون الشباب يمدحون سحرها . ولكن كيف كان لي أن أدرج في حياتي ما لم يكن متوقفاً؟ كنا ننجح أنا وأختي ، في أن نسرق من تبتّه أمنا أمسية فترة بعد فترة ، فنذهب الى المسرح لمشاهدة تمثيلية طابعية أو نستمع الى موريس شفالبيه . وكنا نذرع الشوارع ونحن نتحدث عن حياتنا وعن الحياة ، وكانت المغامرة ترصدنا بحضورها ، وان كانت لا تُرى . وقد استمرت الرقابة اليومية ترهقني : « أوه ! يقظات كثية ، وحياة بلا رغبة

ولا حب ، كل شيء قد استنفد بسرعة ، ويا للضجر المخيف ! إن هذا لا يمكن ان يستمر ! ما الذي أريده ؟ ما الذي أستطيعه ؟ لا شيء . كتابي ؟ عبث ! الفلسفة ؟ لقد امتلأت بها . الحب ؟ تعبت منه أكثر مما ينبغي . ومع ذلك ، فأنا في العشرين وأريد أن أعيش ! « لم يكن ممكناً ان يدوم ذلك : ولم يدم . لقد عدت الى كتابي والى الفلسفة ، والى الحب . ثم عدت الى البدء : « أبداً ذلك الصراع الذي يبدو أنه لا مخرج له . ووعي عميق لطاقتي ولنفوتي عليهم جميعاً ولما يمكنني أن أفعل والاحساس بلاجدوى جميع هذه الأشياء ! لا ! لا يمكن لذلك ان يدوم على هذا الشكل . »

وكان ذلك يدوم ! ولعله ان يدوم أبداً . لقد كنت كرقاص الساعة اهتزّ يجنون بين الجمود والفرحة . وكنت أتسلق في الليل درج كنيسة القلب المقدس ، وكنت أتطلع الى باريس ، الواحة العابثة ، تنوس في صحارى المدى ، وكنت أبكي لأن هذا كان جميلاً الى هذا الحد ، ولأنه كان لا مبدياً . غير أنني حين كنت أهبط الشوارع الصغيرة بعد ذلك كنت أضحك لجميع الأنوار . كنت أسقط في الجفاف ، فأقفز الى السلام ، وأستنفد قواي .

وكانت صداقتي تخيبي أكثر . فأكثر ولقد خاصمتني بلانشيت وايس ولم أعرف السبب قط ، فلقد أولتني ظهرها فجأة ولم تجب على الرسالة التي طلبت فيها ايضاحات . وعلمت أنها تصفني بالدساسة وتتهمني بأني أحسدها حتى اني أتلفت غلاف الكتب التي أعارنتي اياها . أما الآخرون الذين كنت أحبهم كثيراً ، وذلك الذي كنت أحبه ، فانهم لم يكونوا يفهموني ، ولم يكونوا يكفونني ، ولم يكن وجودهم محل شيئاً .

وكانت الوحده قد ألفت بي منذ وقت طويل في الكبرياء . وكنت قد كتبت دراسة أعطيستها الى « باروزي » ، فردّها إليّ وأثنى عليها كثيراً ، فقلت في نفسي : « اني واثقة بأني سأصعد أعلى منهم جميعاً . »

أهذه كبرياء ؟ نعم ، لو لم أكن أملك عبقرية . أما واني أملك كما
أظن أحياناً ، وكما أو من أحياناً أخرى ، فليس هذا الا تبصراً .
هذا ما كتبه في مذكراتي . وفي اليوم التالي ، حين خرجت من السينما ،
ذهبت أتتزه في حديقة التويلري ، وكانت شمس برتقالية تحرق زجاج
اللوافر . وتذكرت مناظر شمسية أخرى ، فصعقت فجأة بذلك المطلب
الذي كنت أنادي به أبداً : يجب أن أكتب كتابي . ولم يكن في هذا
المشروع شيء جديد ، ولكن لما كنت أرغب في أن يحدث لي شيء ،
ولم يكن يحدث شيء على الاطلاق ، جعلت من انفعالي حدثاً . فنظقت
تجاه السماء والأرض برغبات كبيرة مرة أخرى . لن يحول هناك شيء
دون أن أكتب كتابي . والذي حدث بعد ذلك اني لم أثر هذا
القرار مرة أخرى . فقد وعدت نفسي أيضاً بأن التمس بعد الآن
الفرحة ، وبأن أمتلكها .

١٣

وبدأ ربيع جديد . وتقدمت لشهادتي الاخلاق وعلم النفس . ونفرت
من فقه اللغة نفوراً شديداً حتى اني انصرفت عنه . غير اني كنت
أعلم ان دراستي في السوربون ستنتهي بعد عام ونصف ، فأصبح حرة
وتبدأ أشياء جديدة . وحينما ذهبت أستشير السيد برانشفيك نصحتني أن
أعالج موضوع « الفكرة عند نيستز » فوافقت على ذلك .
على ان الوحدة ظلت تتأكلني ، بل هي قد عمقت في مطلع نيسان .
وذهب جان براديل يقضي بضعة ايام في « سوليم » مع بعض زملائه ،
ولقيته بعد عودته في « دار أصدقاء الكتب » حيث كنا مشتركين . وهناك
صارحني براديل ، بصوت متردد ، أنه قد « تناول » في « سوليم » :
فحين رأى زملاءه يقتربون من المائدة المقدسة شعر بأنه منفي ، معزول .

وفي اليوم التالي ذهب يعترف ، وقرر أنه كان مؤمناً : وكنت أستمع إليه ، والغصة في حلقي : فأحسستني مهجورة ، مخوثة ، مبعدة .
كان جاك يلتمس له ملجأ في مشارب مونبارناس ، وكان براديل قائماً في بيت القربان المقدس : وهكذا لم يبق الى جانبي أحد . وبكيت تلك الليلة .

وبعد يومين قرر أبي أن يسافر الى « لاغريير » ليرى أخته . فجعلت أحلم بتمزق الوداع اذ ذكرت شكوى محركات القطار واحمرار الدخان ، فقلت لأبي :
- أود أن أذهب معك .

فاعترض بأني لا أملك حتى فرشاة أسنان ، ولكنه قبل أخيراً أن يصحبنى . وقد ظلمات طوال الرحلة ، أتمل بالظلمة والهواء وأنا منحنية على باب القطار . ولم أكن قد رأيت الريف في الربيع قط . وانفعلت عواطفني اذ ذكرت طفولتي وفكرت في حياتي وفي الموت . ولم يكن الخوف من الموت قد فارقني ، فاني لم أتعود عليه . فقد كان يتفق لي أن أرتجف وأبكي من فرط الذعر . على ان مجرد كوني أعيش هنا في تلك اللحظة ، كان يتخذ بريقاً ساطعاً . وفي تلك الايام قذفتني الطبيعة غالباً في الخوف تارة وفي الفرح تارة أخرى . وقد أوغلت في رحلتي . وفي تلك الحقول والاحراج حيث لم أكنه ألحظ أي أثر لانسان ، حسبتني ألمس تلك الحقيقة فوق البشرية التي كنت أصبو إليها . فكنت أنحني لأقطف زهرة ، فأحسستني فجأة مسمرة الى الأرض رازحة تحت عبء السماء ، فيعجزني أن أتحرّك بعد : كان ذلك ضيقاً وكان نشوة بمنحاني الخلود . وعدت الى باريس وانا مقتنعة بأني اجتزت تجارب صوفية ، وحاولت أن أجدد هذه التجارب . وكنت قد قرأت كتب سان جان دولاكروا : « لكي تذهب الى حيث لا تدري ، فيجب ان تذهب من حيث لا تدري . » وقلبت هذه العبارة ، فرأيت في

ظلام دروبي علامةً بأني كنت أسير نحو الكمال . واستغرقت في أعماق أعماق نفسي ، وحملت ذاتي كلياً نحو سممت كنت أعانق فيه كل شيء . ولقد كان في هذا الشرود والذهول صدق وحرارة . كنت قد استغرقت في وحدة عميقة حتى اني أصبحت ذات لحظة غريبة على العالم كله ، وكان يرعبي بغيرته لقد فقدت الاشياء معناها ، وكذلك الوجوه ، وأنا : ولما رأيتني لا أتعرف الى شيء ، فقد كان مغريباً أن أتصور اني بلغت المجهول . ولقد عُنيت بهذه الحالات عناية فائقة . غير أنني ألم أكن أودّ أن أخدع نفسي . فسألت براديل والآنسة لامير في ذلك . فكان جوابه حاسماً :

— هذا لا أهمية له .

أما هي فقد قالت :

— انه نوع من الحدس الميتافيزيقي .

فخرجت من ذلك بأن المرء لا يستطيع ان يبني حياته على مثل هذا الدوار ، وكففت عن التماس تلك الحالات .

ومضيت في الاشتغال بالدراسة بعد ان حصلت على الليسانس ، وكنت أتردد غالباً على مكتبة السوربون التي كانت تضم مجموعة كبيرة من كتب الفلسفة ، فأمضي فيها نهاري وأكتب روايتي بلا انقطاع . وكنت أقرأ ليينتر وكتباً مفيدة في الاستعداد للمباراة . حتى اذا أقبل المساء يكون التعب قد أخذ مني مأخذه فأتمدّد في غرفتي ، ولو أنني أحسست ان بوسعي أن انتزه بجزية على الأرض لكنت تعزيت بالألا أستطيع مغادرتها . كم كنت أود أن أستغرق في الليل واسمع الجاز وأحاذي الناس .. ولكن لا ! كنت مسجونة ضمن جدران ، وكنت أحتق وأحترق ، وتأخذني الرغبة في أن أدقّ رأسي بهذه الجدران !

كان جاك على أهبة السفر الى الجزائر ليقوم بخدمته العسكرية لمدة ثمانية عشر شهراً . وكنت اراه غالباً ، وكان أوفر ودأً من أي وقت مضى ، وكان يحدثني كثيراً عن أصدقائه . وكنت أعرف أن « ريوكورا » كان على علاقة بامرأة شابة تُدعى « أولغا » ، وقد صور لي جاك غرامياتها بألوان رومانتيكية ، حتى اني للمرة الاولى نظرت الى امكانية علاقة غير شرعية نظرة رغبة ... وأشار كذلك الى امرأة أخرى جميلة جداً اسمها « ماغدا » كان يودّ لو يعرفني عليها ، وقد قال في ذلك :
- انها قصة كلفتنا غالباً جداً .

وكانت « ماغدا » احدى تلك العجائب المحيرة التي يلتقي بها الناس ليلاً في المشارب . ولم أتساءل عن الدور الذي لعبته في حياة جاك . فقد كنت على ثقة الآن بأن جاك حريص عليّ ، وان بوسعي أن أعيش الى جانبه في الابتهاج . وكنت أخشى فراقنا ، ولكنني كنت لا أكاد أفكر فيه لفراط السعادة التي خلفها هذا التقارب بيننا .

وقبل ثمانية أيام من سفر جاك ، ذهبت أتناول العشاء مع الاسرة عندهم . وبعد انتهاء الطعام أتى صديقه « ريكة بريسون » ليصاحبه ، فاقترح جاك ان يأخذاني معها لمشاهدة فيلم « الفرقة » . ولكن أمسي كانت غاضبة من أن كلمة « الزواج » لم تُلفظ قط ، فلم تعد توافق على استمرار صداقتنا ، ولهذا رفضت أن أصحبه الى السينما . غير اني ألححت وأيدت عمي قضيتي ، فاضطرت أمي الى التغاضي .

ولم نذهب الى السينما ، وانما قادني جاك الى مشرب « ستريكس » حيث كان يتردد ، فجلست على مقعد مرتفع بينه وبين « ريكة » . ونادى صاحب المشرب باسمه ، ميشال ، وطلب لي كأس مارتيني . ولم يكن قد سبق لي أن وضعت قدمي في مقهى ، وهأنذا الآن

ليلاً في مشرب مع شابين : إن هذا لشيء رائع حقاً . كان كل شيء يدهشي : الزجاجات ذات الألوان الخجولة أو العنيفة ، وصحون الزيتون واللوز المملح ، والطاولات الصغيرة . غير أن أشد ما أدهشني أن هذا الديكور كان بالنسبة لجاك مألوفاً جداً . ولقد شربت كأساً بسرعة وحيث أنني لم أكن قد شربت من قبل نقطة خمر ، لم يطل بي الوقت لأغادر الأرض . وكنت أدعو ميشال باسمه وأقوم بالتمثيل . وجلس جاك وريكه الى طاولة ليلعبا البوكر ، وتصنعا انهما لا يعرفاني . وجعلت أنادي الزبائن الذين كانوا شباباً هادئين من الشال ، فقدّم لي أحدهم كأساً أخرى من المارتيني أفرغته وراء المشرب بناء على اشارة من جاك . وحتى أكون على مستوى الظروف ، حطّمت كأسين أو ثلاثاً . وكان جاك يضحك من كوني أسبح مع الملائكة . ثم توجهنا الى مقهى « فيكنغز » . وفي الطريق أسلمت ذراعي اليمنى الى جاك واليسرى الى ريكه ، ولكن اليسرى لم تكن موجودة ، بينما وجدت شيئاً رائعاً أن أعرف مع جاك صميمية جسدية كانت ترمز الى امتزاج روحينا . وعلمي البوكر وطلب لي كأساً من « الجن » ، وكنت أخضع لارادته بكل استسلام . ولم أكن أشعر بالزمن : وكانت الساعة قد بلغت الثانية حين شربت في متهى « لاروتوند » كأساً من النعناع الأخضر . وكانت ترفرف حولي وجوه قد انبعثت من عالم آخر ، وكانت العجائب تنفجر في جميع الأروقة . وأحسستني مشدودة الى جاك بمشاركة لا تنفصم كأنما ارتكبنا معاً جريمة قتل أو اجتزنا الصحراء على الأقدام .

وتركني بالقرب من شارع « رين » ، وكان مفتاح المنزل في جيبي . ولكن والدي كانا ينتظراني : أمي وهي تبكي وأبي بوجهه العابس . وكانا قد عادا من شارع مونبارناس حيث كانت أمي قد أخذت تصيح حتى ظهرت عمتي على النافذة ، فطالبتها أمي بأن يردوا لها ابنتها وآهمت جاك بتلطيح سمعة شرفها . وشرحت لوالدي أننا

شاهدنا فيلم « الفرقة » ثم شربنا فنجان قهوة في « لاروتوند » ، ولكن والدي لم يهدأ ، ثم حدث اني أنا أيضاً انخرطت في البكاء وأخذني الشيخ . وكان جاك قد واعدني على اللقاء في اليوم التالي عند مدخل « سلكت » ، وقد رأيت حزيناً عندما شاهد عيني المحمرتين ، ومتبرماً مما روت له أمه ، فاذا هو يكسب نظرتة مزيداً من الحنان . وأنكر أن يكون قد عاملني بلا احتشام ، فأحسستني أشدّ اتحاداً به مما كنا في ليلتنا السابقة العاصفة . وبعد أربعة أيام كنت أودّعه وأسأله عما اذا كان شديد الحزن لمغادرته باريس فأجابني : « ليست بي رغبة لأن أقول وداعاً لك أنت . » وصحبنى بالسيارة الى السوربون ، فترجّلت وأخذنا نتبادل النظر لحظة طويلة ، ثم قال بصوت زرع الاضطراب في نفسي :

— وإذن ؟ ألن أراك بعد ؟

ثم انطلق فجأة بسيارته ، وبقيت مشدوهة على حافة الرصيف ، ولكن ذكرياتي الأخيرة أمدّني بالقوة على أن أتحدّى الزمن . وفكّرت « الى السنة القادمة . » ثم مضيت أقرأ لبيتز .

١٥

كان جاك قد قال لي : « اذا رغبت يوماً ان تقومي بدورة ما ، فأومئي الى ريكه » وأرسلت كلمة الى بريسون ، فنقيته ذات مساء في « الستريكس » حوالي السادسة . وتحدثنا طويلاً عن جاك الذي كان معجباً به ، ولكن المشرب كان خالياً ، ولم يحدث شيء . وفي أمسية أخرى ، حدثت أشياء قليلة حين قصدت « لاروتوند » لأتناول خميراً متقبلاً ، فكان هناك بضعة شبان يتحادثون حديثاً حميماً . وحين أردت أن أدفع لمن كاسي ، رفض الخادم دراهمي . وقد اعتبرت هذا الحادث

الذي لم أجُلْ غامضه قط ذا صلة مباشرة بالعجبية ، وأمدني بالشجاعة
فجعلت أتدبر أمري ، كلما غادرت انيت مبكرة أو وصلت متأخرة
الى معهدي لكي أقضي ساعة في « انفيكتر » . وقد شربت ذات مرة
كأسين من « الجن » وكان هذا أكثر مما ينبغي لأنني ما لبثت أن تقيأتها
في المترو . وحين دفعت باب المعهد ، كانت ركبتي تصطكان ،
وكانت جبتي مغطاة بالعرق البارد : وحسبوني مريضة ، فمددوني على
ديوان وهم يهتفونني على شجاعتي اذ جئت لألقي الدروس .

وأنت ابنة عمي مادلين لقضاء بضعة ايام في باريس فانتهزت الفرصة
وكانت في الثالثة والعشرين ، وقد سمحت لنا أمي أن نذهب نحن
الاثنين الى المسرح ذات مساء ، وكنا في الواقع قد تأمرنا من أجل أن
نتردد على الأمكنة « السيئة » . وكادت الأمور تفسد إذ أخذت مادلين ،
قبيل مغادرتنا البيت ، تتسلى بأن تضع على خدي المسحوق الوردية ؛
وقد وجدت ذلك جميلاً . وحين طلبت مني أمي أن أمسح
المسحوق ، أخذت أحتج . ولعلها قد رأت على وجتي أثر
الشيطان وانتهى بي الأمر الى الخضوع . وحين خرجنا توجهنا الى
مونمارتر ، وشردنا طويلاً تحت أنوار اللافتات ، ولم نقرر الاختيار ،
فضلنا في مشربين ثم استقر بنا المقام في مشرب صغير كان بعض الفتيان
اللاأخلاقين ينتظرون فيه زبوناً . وقد جلس اثنان منهم على طاولتنا
وقد أدهشها دخولنا اذ لم يبد علينا اننا كنا نريد منافستها . وقد
تتابعنا فترة طويلة من الزمن ، وشعرت بالاشمزاز في صدري .

على اني لم أكف . وادعيت أمام والدي ان معهد « بلفيل » كان
يهنيء بمناسبة ١٤ تموز حفلة أنس ، واني كنت أشرف على تمثيل
مسرحية يقوم بها تلاميذي ، وان هذا يقتضي أن أتأخر عدة أمسيات
في الاسبوع ، كما زعمت اني أنفق ما كنت أحصله من دراهم لصالح

« الفرق الاجتماعية » و كنت أقصد مقهى « جوكي » في مونبارناس ،
و كنت أحبه بعد أن أرشدني إليه جاك ، وأحب فيه خصوصاً رائحة
التبغ والخمر والاصوات والضحكات والساكسون . وكانت النساء
تثير اعجابي : فانه لم يكن في قاموسي كلامٌ أصف به القماش الذي
صُنعت به أثوابهن ، ولون شعرهن . و كنت أستمع اليهن يناقشن
الرجال في « تعريفة » ليايهن .. ولم تكن مخيلتي لتصدر أي رد فعل
وخصوصاً في الأوقات الأولى ، إذ لم يكن حولي ناس من لحم ودم ،
بل صفات ونعوت : الحيرة ، العبث ، اليأس ، العبقرية ، ولا سيما
الاثم بوجوهه المختلفة ، وكان جاك قد قال لي : « يكفي أن تفعل
أي شيء في المشارب ، ثم تحدث أشياء . » و كنت أفعل أي شيء .
وكان إذا دخل زبون ما وعلى رأسه قبعة ، كنت أصيح : « قبعة ! »
وأتناولها عن رأسه وألقي بها في الهواء . و كنت أحطم كأساً هنا وآخر
هناك : و كنت أحطب وأعظ وأنادي المعتادين على المشرب الذين كنت
أحاول بسداجة أن أتلاعب بهم : كنت أزعم اني « موديل » أو بغبي
ولكني لم أكن أخدع أحداً بثوبي الكالنج وجوربي السميكين وحذائي
المنبسط ووجهي الذي لم تكن عليه آثار الفن . وقد قال لي أعرج ذات
يسوم :

— انك لا تملكين الطابع الذي ينبغي ، فأنت بورجوازية صغيرة
تريد ان تقلد البوهيميين .

وواقفه على ذلك رجل كان يكتب الروايات المتسلسلة . ولكني
احتججت على ذلك ، فاذا بالأعرج يرسم شيئاً ما على قصاصة من
ورق ويقول :

— هذا ما يجب عمله وقبوله في مهنة البغايا .

واحتفظت بيروديتي وقلت :

— ان هذا الرسم رديء جداً .

فأجاب :

- ولكنه يشبهه .

وسارع يتزع ثيابه ، فصرفت عنه نظري وأنا أقول :

- ان هذا لا يهمني .

فضحكا ، وقال الروائي :

- أترين ؟ ان البغي الحقيقية تنظر الى ذلك وتقول « لا مجال

للافتخار ! »

وهكذا كنت أتقبل البذاءات بفعل تأثير الخمر . على ان الجميع كانوا يدعوني وشأنني . وكل ما كان يحدث ان يدعوني أحدهم الى شرب كأس معه ، أو الى مراقبته ، وكنت طبعاً لا أشجع الفسق والدعارة .

وقد اشتركت أختي عدة مرات في هذه « الغزوات » . وكانت تضع قبعتها على رأسها بالقلوب لتوهم الناس بأنها فتاة طائشة ، وتشبك ساقها بحيث تبين بشرتها . وكنا نتحدث بصوت عال ونتضاحك بصخب أو أننا كنا ندخل المشرب واحدة بعد اخرى ونتصنع أننا لا نعرف بعضنا ثم نتخاصم فنتنازع شعر رأسينا ، وتبادل الشنائم ، ونشعر بالسعادة اذا اهتم الحاضرون لنا .

وكنت اذا لزمتم المنزل مساء لا أكاد أتحمّل هدوء غرفتي ، فألتمس من جديد دروباً صوفية . وذات ليلة تحدّيت الله اذا كان موجوداً ان يعلن عن نفسه ، فظلّ صامتاً لا يجيب ، فلم أعد أوجه اليه أية كلمة ، وكنت في أعماق نفسي مسرورة انه لم يكن موجوداً . فقد كنت احتقر ان يكون حل اللعبة التي تلعب هنا على الأرض هناك في الابد . ومهما يكن من أمر ، فقد كان على الأرض الآن مكان أشعر فيه بالاطمئنان : الجوكي الذي ألفته وكنت ألقى فيه وجوهاً أعرفها وأجد مزيداً من المتعة فيه . وكان حسبي أن أتناول كأساً من « الجن »

حتى تذوب وحدتي ، فيغدو جميع الرجال أخوة لي ، ويحلّ بيننا التفاهم والحب ، وتنتفي أية مشكلة ويزول كل أسف وانتظار ؛ لقد كان الحاضر يملأني آنذاك . وكنت أرقص ، وتشدني الأذرع فيستشعر جسمي ألواناً من الهرب والاستسلام أشدّ تهديّة ومتمعة من ألوان ذهولي ، وقد كنت أجد تعزية في ان تستطيع يد مجهولة ان تكون لها على عنقي حرارة وعذوبة تشبهان اللطف ، وهذا بخلاف النفور الذي كنت أشعر به في السادسة عشرة . ولم أكن أفهم شيئاً عن الاشخاص الذين كانوا يحيطون بي ، ولكن ذلك كان عندي سواء . لقد كنت أجد الضياع ، وكان عندي شعور بأنني لمست الحرية أخيراً لمس اليد . وكنت قد تقدمت كثيراً منذ ذلك العهد الذي كنت أتردد فيه بأن أمشي في الشارع الى جانب شاب : كنت أتحدّى بكل فرح المواضعات والسلطة . وكان مصدر السحر في المشارب والمراقص انها كانت محظورة ، وان أمسي ما كانت لتقبل قطّ ان تضع فيها قدميها . وان أبي كان يثور غضباً لو رأي فيها ، وان براديل نفسه كان يحزن لذلك . لقد كنت أشعر برضى غامر أن أعرف أي خارج القانون .

كنت أزداد جرأة يوماً بعد يوم . وكنت لا أرفض أن يمشيني بعضهم في الشارع ، وأن أذهب لأشرب قدحاً مع مجهولين . وذات مساء صعدت الى سيارة كانت قد تبعتني طول الطريق ، فاقترح عليّ السائق :

— هل نقوم بنزهة الى ضاحية روبنسون ؟

ولم يكن فيه ما يروق ، فما الذي يحدث اذا تركني عند منتصف الليل في وسط الطريق ، على بعد عشرة كيلومترات من باريس ؟ ولكن كانت لي مبادئي : « أن أعيش في خطر وألا أرفض شيئاً » هكذا يقول جيد وريفير والسرياليون وجاك . وقلت للسائق « موافقة » وفي باحة الباستيل ، شربنا قدحين من الكوكتيل في أحد المقاهي . وحين صعدنا ثانية الى السيارة ، لامس الرجل ركبتي ، فابتعدت عنه بجويبة

ماذا هو يقول :

— ماذا ؟ انك تتزهين في السيارة ولا تريدان ان يلمسك أحد ؟
وكان صوته قد تغير ، فأوقف السيارة وحاول ان يقبلي ، فلذت
بالفرار تبغني شتائم ، وأدركت آخر قطار الى باريس ، وأبقت اني
نجوت بأعجوبة ، غير اني كنت سعيدة بأن أقوم بعمل مثل هذا مجاني .
وذات مساء آخر ، كنت ألعب في احدى الحفلات العامة بلعبة
تمثل كرة القدم . وكان شريكى رجلاً بشعاً في وجهه ندب أحمر ،
ثم لعبنا في إطلاق البندقية ، فأصرّ على ان يدفع جميع النفقات ، ثم
عرفني على صديق له ودعاني الى تناول فجان قهوة مع الحليب . وحين
رأيت آخر أوتوبيس بهمّ بالمسير ، ودّعته وانطلقت أعدو ، فاذا بهما
يدركانني حين أوشكت أن أقفز الى الاوتوبيس ، وأمسكاني من كتفي
يقولان :

— هذه أعمال لا تجوز !

وتردد قاطع تذاكر الاوتوبيس لحظة ويده على الجرس ، ثم شدت
على المقبض وانطلق الاوتوبيس . وأزبدت من الغضب . وأكد لي
الشابان اني كنت مخطئة ، فليس من اللائق الانصراف عن الناس قبل
إبلاغهم . وتصلحنا ، فأصرّا على اصطحابي مشياً على الاقدام الى البيت .
وهنا حرصت على إفهامهما بالألا ينتظرا شيئاً مني . وحين بلغنا منعطف شارع
« رين » أخذني الرجل ذو الندب من قامتي وسألني .

— متى أراك ؟

فأجبت بنذالة :

— متى شئت .

وحاول أن يقبلي ، فتخبّطت . وظهر آنذاك أربعة من رجال
الشرطة على الدراجات ، فلم أجروا على مناداتهم ، ولكن الرجل تركني
فخطونا خطوات نحو البيت . حتى اذا قطعنا المنعطف ، قبض علي

مجدداً وقال :

— انك لن تأتي الى الموعد ! انك تخدعيني ! وأنا لا أحب ذلك
وأنت تستحقين درساً !

ولم تكن هيئته هادئة : كان يهيم بأن يضربني أو يقبلني في فمي ،
ولم أعرف أيهما كان يخيفني أكثر . وتدخّل صديقه فقال :

— هيا ! بوسعنا ان نتفق . انه يهدي لأنكِ كلّفته مالاً . هذا
كل ما في الامر .

وأفرغت محفظتي ، فقال الرجل :

— ان المال لا يهمني ! أودّ ان أعطيها درساً .

ومع ذلك فقد انتهى به الامر إلى أن يسلبني ثروتي : خمسة عشر
فرنكاً . وعلّق قائلاً :

— إن هذا لا يكفي حتى لامتلاك امرأة !

وعدت إلى البيت . حقاً لقد كنت خائفة .

١٦

كانت السنة المدرسية توشك على الانتهاء . وكانت سوزان بواغ
قد قضت بضعة أشهر ضيفة على إحدى شقيقاتها في مراكش ، فالتقت
هناك برجل حياتها . وقد أقيمت مأدبة الزواج في حديقة كبيرة بالضاحية ،
وكان العريس بشوشاً ، وكانت سوزان جنلى ، فبدت لي السعادة شيئاً
ساحراً . والحق اني لم أكن أشعر بأني شقية : فقد كانت غيبة جاك
وايماني بحبه يهدتان قلبي الذي لم تكن تهدده صدمات لقاء ما أو
مصادفات مزاج ما . وكنا نذهب للتجذيف في بحيرة الغابة أنا واختي
وزازا وليزا وبراديل : وكان أصدقائي متفاهمين جداً ، وقد قدّم لي
براديل زميلاً له يحترمه كل الاحترام ، وكان أحد رفاقه الذين أقنعوه

بان يتناول القربان في «سوليم». وكان اسمه بير كليرو، وكان قصيراً شديداً السمرة. وكان ينوي ان يتقدم في العام التالي إلى شهادة «الاعريغاسيون» في الفلسفة، حيث يكون زميلاً لي. ولما كان ذا شخصية قاسية، مترفعة، واثقة من نفسها، فقد عازمت أن أحاول كشف ما يخفيه لدى عودتنا إلى المعهد. وقد ذهبت معه ومع براديل لنشهد الامتحان الشفهي للمباراة، فوجدنا الناس يتراحمون لسماع دروس ريمون اروون الذي كان ينتظر له مستقبل لامع في الفلسفة. والتقينا كذلك بدانيال لاغاش الذي كان يتخصص في علم النفس التطبيقي. وقد فوجئ الجميع بسقوط جان بول سارتر في الامتحان الكتابي. وبدا لي أن المباراة صعبة، ولكن لم أفقد شجاعتي، فسوف أعمل ما وسعني ذلك لكي أنتهي بعد عام، ويبدو لي انني غدوت منذ الآن حرة. واطنٌ كذلك انه كان من الخير لي ان أتسلت وأجن وأغير الهواء. وكنت قد استعدت توازني إلى حدٍ اني انقطعت عن كتابة مذكراتي: «لا أريد إلا صميمية متزايدة مع العالم، وإلا ان اتحدث عن هذا العالم في كتاب». هذا ما كتبت له لزا. وكان مزاجي ممتازاً حين وصلت إلى «ليموزان» وتلقيت فوق هذا كله رسالة من جاك، يحدثني فيها عن «بيسكرا» وعن الحمير الصغيرة وعن الصيف، ويذكرني بقاءتنا التي كانت «تحذيراتي الوحيدة آنذاك»، ووعدي بقوله «في السنة القادمة سنقوم بأشياء جميلة». فسألتنى اخي معنى هذه العبارة الأخيرة، فأجبتها بلهجة انتصار:

— هذا يعني اننا منتزوج:

وما كان أجمله صيفاً! لا دموع بعد ولا عواطف متوحدة ولا عواصف... كان الريف يملأني غبطة كما لو كنت بعد في الخامسة أو في الثانية عشرة، وكان الشفق كافياً لأن يملأ السماء. انني اعرف الآن معنى ندى الصباح. وفي الدروب الجوفاء وعبر سنابل القمح

والحشائش والنصون ، تذكرت جميع الوان متاعبي ومسراتي .
وتزهت كثيراً مع أختي ، وكنا غالباً ما نغتسل ، دون أن نخلع
التنورة ، في مياه نهر « فيزير » ، ثم نجفف جسمينا في الحشائش التي
كانت رائحة النعناع تنبعث منها . وكانت هي ترسم وأنا أقرأ . وكان
أهلي قد استعادوا صلتهم باصدقاء قدامى كانوا يقضون الصيف في
قصر مجاور ، وكان هؤلاء الاصدقاء ثلاثة أبناء من الشباب كانوا
يدرسون الحقوق وكنا نذهب معهم أحياناً للعب التنس . وكنت أتسلى
بكل غبطة . وقد أخبرت أمهم أننا لن تقبل لأولادها إلا فتيات
مملكن مهرأ محترماً : وقد أضحكنا ذلك كثيراً لأننا لم نكن نطمع بهؤلاء
الشبان ذوي المراكز الرفيعة .

وقد دعيت تلك السنة أيضاً إلى « لوباردون » . وكانت امي قد قبلت
برضى أن التقي في « بوردو » ببراديل الذي كان يقضي عطلة في المنطقة .
وكان يوماً جميلاً ، ولا شك في ان براديل كان ذا أهمية كبيرة
بالنسبة لي . وكذلك زازا . وحين وصلت لوباردون كان قلبي
يفيض فرحاً .

وكانت زازا قد حققت نصراً نادراً حين نجحت منذ الدورة الأولى
في شهادة فقه اللغة ، بالرغم من أنها لم تعلق تلك السنة كبير أهمية
على الدروس . فقد كانت أمها تشتد في طلبها وفي استخدامها ،
وكانت تعتبر التوفير فضيلة رئيسية ، ونجد انه من اللاأخلاق ان تشتري
من بائع ما يمكن صنعه في البيت : من مثل الحلويات والمربيات والأثواب
والمعاطف . وكانت غالباً ما تقصد السوق في الصباح الباكر مع بناتها
لتشتري الفاكهة والخضار بثمان أدنى . وحين تكون احدى الفتيات
بحاجة إلى ثوب جديد ، كان على زازا أن ترور عشرة دكاكين وتأخذ
منها عينات ونماذج تقارن السيدة مايل ما بينها لتختار أحسنها وأرخصها ،
ثم توفد زازا مرة ثانية لشراء المطلوب . وكانت هذه المهمات ترهق

زازا . ولا ريب في أن واجبها كمسيحية كان في أن تطيع أمها ، ولكنها قرأت ذات يوم في كتاب ان الطاعة قد تكون شرّاً من شرك الشيطان . فاذا ارتضت ان تدتي نفسها أفلا تعاكس في ذلك إرادة الله ؟ وكيف يمكن معرفة هذه الارادة بكل يقين ؟ لقد كانت تخشى ان تأثم إذا التجأت إلى حكمها الذاتي أو إذا خضعت للضغط الخارجي . وكان هذا الشك يعمق النزاع الذي كان يمزقها منذ وقت طويل : كانت تحب أمها ، ولكنها كانت تحب كذلك أشياء كثيرة لم تكن أمها تحبها . وكانت كثيراً ما تستشهد أمامي بعبارة « لراميز » : « إن الأشياء التي أحبها لا تحب بعضها . » ولم يكن في المستقبل ما يعزبها ، فقد كانت أمها ترفض رفضاً باتاً ان تباشر في العام القادم باعداد شهادة للتعليم ، إذ كانت تخشى أن تصبح ابنتها « مفكرة » ، أما الحب ، فقد كفت زازا عن ان ترجو لقاءه . وكان يحدث في محيطي ، ولو نادراً ، ان تتزوج الفتاة بدافع الحب ، وقد كان هذا شأن ابنة عمي تينيت ، ولكن السيدة ماييل كانت تقول :
 — ان اسرة « بوفوار » هي خارج طبقتنا .

والواقع ان زازا كانت أكثر من اندماجاً بوسطها البورجوازي حيث كانت جميع الزيجات تتم بين الأمر . وجميع هؤلاء السيدين كانوا يقبلون ان يتزوجوا على غير هذه الاسس كانوا دون مستوى الوسط .

لقد كانت زازا تحب الحياة بكل حمياً ، ولهذا كان التفكير بحياة لا فرحة فيها ينزع منها أحياناً كل رغبة في الحياة . وكانت تدافع عن نفسها ، كما كان يحدث في طفولتها ، بمتناقضات ضد مثالية وسطها المزيّفة . وكانت السخرية والجفوة والتشكك سرعان ما تجدد أصداء في نفسها . وقد صارحتني في رسالة بعثت إلي بها في أوائل العطلة انها كانت تحلم أحياناً بأن تنسحب نهائياً من هذا

العالم ..

« فبعد فترات من حب الحياة ، فكراً وجسدياً ، كانت تأخذني فجأة أحاسيس عبثية هذا كله بحيث كنت أشعر بأن كل شيء وكل انسان يتقلص عني . اني أشعر نحو الكون كله بلامبالاة غريبة حتى يخيل إليّ اني أصبحت في الموت . إن الزهد في الذات وفي الحياة وفي كل شيء ، زهد الرهبان الذين يحاولون ان يبدأوا حياة فوق الطبيعة — إن ذلك كله يغريني اغراءً شديداً . ولقد قلت لنفسي غالباً إن هذه الرغبة في إيجاد الحرية الحقيقية في « الصلات » كان علامة موهبة . على ان الحياة والأشياء كانت في فترات أخرى تستولي عليّ إلى درجة ان حياة الدير تبدو لي لوناً من التشويه وانّ هذا ليس هو ما يطلبه الله مني . ولكن مهما كانت الطريق التي كان عليّ ان أسلكها ، فاني لا أستطيع مثلك ان أمضي مع الحياة بكل ما في نفسي ، فسي اللحظة التي اوجد فيها بكل كثافة ، لا انقطع عن الإحساس بطعم العدم في في .»
وقد أفرغتني هذه الرسالة قليلاً . لقد كانت زازا تردّد لي فيها ان جحودي لم يكن يفصل ما بيننا . ولكنني سأفقدتها حتماً إذا دخلت الدير يوماً ، وأعتقد أنها ستفقد نفسها أيضاً .

وأصبتُ بخيبة يوم وصولي إلى منزلها . فاني لم أتم في غرفتها ، وانما في غرفة الآنسة ادفيكوفتش وهي طالبة بولونية تعاقبت مع اسرة زازا للعمل في فترة العطلة ، وللعناية بالاطفال . والذي عزاني قليلاً اني وجدتها ساحرة ، وكانت زازا قد حدثتني عنها بودّ كبير في رسائلها . كان لها شعر أشقر جميل ، وعينان زرقاوان ضاحكتان ، وثغر مفتوح وجاذبية مغرية لم أجد لها آنذاك اسمها الحقيقي : جاذبية جنسية . وكان ثوبها الشفاف يشي بكتفين ساحرتين ، وفي المساء ، جلست إلى البيانو وأخذت تغني بعض الأغاني الاوكرانية الغرامية وتخلّلها بحركات سررنا لها أنا وزازا بينما وجدها الآخرون جريئة أكثر مما ينبغي . ورأيتهما

في الليل ترتدي منامة بدلاً من قميص نوم ، وقد فتحت لي قلبها فوراً :
كان أبوها يملك في « لوان » مصنعاً كبيراً للسكاكر ، وفيما كانت تتابع
درسها ، اشتركت في النضال من أجل استقلال اوكرانيا وقضت بضعة
أيام في السجن . وكانت قد ذهبت تواصل درسها في برلين أولاً
حيث بقيت ثلاث سنوات ، ثم في باريس . وكانت تحضر دروساً في
السوربون وتتلقى مساعدة من ذويها ، وقد شاءت أن تستغل العطلة
لتدخل إلى صميمية أسرة فرنسية ، وقد دهشت حين دخلت أسرة
زازا . وقد لاحظت في اليوم التالي انها تثير بمسلكتها وحركاتها انتقاد
الأشخاص الرصينين بالرغم من تربيتها الجيدة . فقد كنا نبدو أنا وزازا
والاخرى كالراهبات ازاءها ، هي الجميلة التي تفيض أنوثة . وبعد
الظهر أخذت تتسلّى بمعرفة حظّ الحضور بواسطة أوراق اللعب ، بما
في ذلك الخوري الذي كانت تغازله بطرف خفي ، غير مكترثة بثوبه
الديني . وكان هو يتسم لها ولا يبدو انه غير متأثر بجهاها ، وقد
تنبأت له بأنه سيلتقي عما قريب بسيدة أحلامه ، فاغناظت الامهات
والفتيات الكبار من ذلك ، واهمتها السيدة ماييل بأنها لا تجلس في المكان
الذي ينبغي أن تجلس فيه ، وعابت زازا بعد ذلك بأن تكن لها عاطفة
عميقة .

أما أنا ، فأتساءل لماذا وافقت على دعوتي ؟ لعلها لم تشأ ان تجرح
عاطفة ابنتها ، ولكنها كانت تجهد في الّا تركني اجتمع وحدي مع
زازا التي كانت تقضي صباح كل يوم في المطبخ حيث كانت تعمل في
تهيئة الطعام . وفي أثناء النهار لم تكن وحيدة لحظة من الزمن . وكانت
السيدة ماييل تضاعف الاستقبالات والدعوات والزيارات ، على أمل أن
تجد ليلي خطيباً . وقد توجهت اليها في أثناء عشاء دعيت اليه بعض
الناس ، وكانت ستيفا البولونية حاضرة :

— انها السنة الأخيرة التي أهتم بك ، فقد كلفتني حتى الآن غالباً ،

وقد أتى دور اختك .

وكان بعض الشبان يرغبون في الزواج بليلى . وكنت أتساءل عما إذا كانت زازا ستقتنع يوماً بأن واجبها المسيحي هو أن تؤسس بيتاً ، ولكنني لم أكن أحبذ لها زواجاً مفروضاً باهتاً .

وبعد بضعة أيام من وصولي ، اجتمعت جميع أسر المنطقة في نزهة كبيرة على شاطئ نهر « الأدور » . وقد أعارتني زازا احد أثوابها الجميلة ، وكانت هي ترتدي ثوباً من الحرير الابيض مع نطاق أخضر وعقد ثمن ، وكان جسمها قد هزل قليلاً ، وكانت تصاب بالصداع بين آن وآخر وتنام نوماً مؤرقاً : وبالرغم من انها كانت تسمح خديها بالأحمر ، فقد كانت النظارة تعوزها . ولكنني كنت أحب وجهها ، وكان يشق عليّ ان تمنحه للجميع بمحبة : لقد كانت تمثل دورها كفتاة يهتمها رأي الناس . ولقد وصلنا إلى مكان الاجتماع قبل الآخرين ، ثم بدأ المدعوون يفدون ، وكنت أشعر بالأسى لكل بسمة احترام تقدمها زازا للناس . ثم شغلنا باعداد موائد الطعام .. وانتحت بي ستيفا جانباً وطلبت مني أن أشرح لها فلسفة ليينتز ، فإذا بي أنسى ضجري لمدة ساعة . ولكن النهار مضى بعد ذلك ثقيلًا ، وكانت جميع السيدات قد قمن بواجباتهن الاجتماعية في إعداد الطعام ، وأكل الناس وضحكوا من غير مرح ، حتى بدا لي انه لم يكن هناك من شخص مسرور . وعند الأصيل سألتني السيدة مايل عما إذا كنت أعرف أين اختفت زازا ، فذهبت معها للبحث عنها ، فوجدناها تغتسل في « الأدور » . ووبختها أمها بصوت ضاحك ، وأدركت أن زازا كانت بحاجة إلى الوحدة وإلى الأحاسيس العنيفة ، بل ربما إلى تطهر بعد هذه الرحلة الزرجة .

على اني لاحظت أن أمها ما تزال تحتفظ بتأثير شديد عليها . وكانت

السيدة ماييل تتبع مع بناتها سيامة مرنة ، فتعاملهم وهم صغار بلطف وعطف ، وفيما بعد تبدو متحررة في الأمور الصغيرة . أما إذا كانت القضية تتعلق بالأمور الهامة فان سلطانها عليهم عجيب . وقد حدث يوماً أن ثارت زازا . وكنا على المائدة ، فقالت السيدة ماييل :

– اني لا أفهم ان تعاشر فتاة مؤمنة أشخاصاً غير مؤمنين .
فأحسست بالدم يصعد إلى وجنتي وشعرت بالضيق . ولكن زازا أجابت بغيظ :

– لا حق لأحد بأن يحكم على أحد . إن الله يسوق الأشخاص في الدروب التي يختارها .
فقالت الأم ببرودة :

– اني لا أحكم . ويجب أن نصلي للأرواح الضالّة ، ولكن يجب ألاّ نتعرّض لعدواها .

وكانت زازا تكاد تحتق من الغضب ، وهذا ما هدأ نفسي ، ولكنني كنت أشعر ان جوّ «لوباردون» كان أشدّ عداءً لي من جوّ السنة الماضية . وروت لي ستيفا في باريس ، بعد ذلك ، ان الأولاد كانوا يضحكون إذ يرونني رديئة الثياب ، كما ضحكوا يوم أعارتني زازا أحد أثوابها دون أن تطلعني على السبب . والواقع اني لم أكن أنانية ولم أكن ألاحظ لباسي ، فلم أكن أهتمّ لمثل هذه الانتقادات . غير انه كان يتفق لي أن أشعر بالأسى . وقد خطر لستيغان ان تذهب إلى «لورد» فأحسنني أشدّ وحدة .

وذات مساء ، جلست زازا إلى البيانو بعد العشاء ، وعزفت بعض قطع شوبان ، فقلت إن هذه الموسيقى هي التي كانت تعبّر عن حقيقتها ، ولكن كانت هناك أمّها وكل تلك الاسرة ما بيننا ، وقد يأتي يوم أفقدها فيه . ولقد أحسست في تلك اللحظات بألم عنيف ، فنهضت وغادرت القاعة وأويت إلى فراشي وأنا أبكي . وفتح الباب

بعد قليل ، فاقتربت مني زازا ، وانحنت فوقى وقبلتني . وكانت صداقتنا حتى تلك اللحظة قاسية جداً بحيث ان بادرتهـا تلك ملائتي فرحاً .

وحيث عادت ستيفا من « لورد » جلبت معها كيساً من السكاكر للأولاد ، فقالت لها السيدة ماييل :
- هذا لطيف منك يا آنسة ، ولكن كان بوسعك أن توفري هذا الإنفاق ، فليس الاولاد بحاجة إلى سكاكرك .

ومنذ تلك اللحظة أخذنا ، هي وأنا ، نمزق بأسناننا اسرة زازا وأصدقاءها ، وكنت أجد في ذلك بعض العزاء . غير ان نهاية إقامتي هناك كانت ، ذلك العام أيضاً ، أرحم من بدايتها . فلا أدري إذا كانت زازا قد تفاهمت مع أمها ، أم انها كانت تتصرف بحكمة : فلقد استطعت أن أجتمع بها وحدي ، فقمنا معاً بتزهات طويلة وتحدثنا كثيراً . وكانت تحدثني عن « بروست » التي كانت تفهمه خيراً مني ، وقالت لي ان الرغبة في الكتابة تستولي عليها كلما قرأته . وأكدت لي انها لن تخضع في السنة القادمة لرتابة الحياة اليومية ، وانما ستقرأ كثيراً وستحدث طويلاً . وجاءتني فكرة طربت لها وهي أن نلتقي صباح كل أحد لنلعب التنس : أنا وهي وأختي وجان براديل وبيير كليرو وأحد الأصدقاء الآخرين .

وكنا متفاهمين حول كل شيء تقريباً . ولم تكن تنفر من أي تصرف يقوم به الجاحدون ، شريطة ألا يؤذوا أحداً . ولقد كانت تقرأ اللاأخلاقية « الجيدة » ، ولم يكن المجون ليثيرها . ولكنها بالمقابل ، لم تكن تتصور ان من الممكن عبادة الله وعصيان أوامره في الوقت نفسه . وقد وجدت هذا الموقف منطقياً بالرغم من انه يخالف رأبي : فقد كنت أسمح بكل شيء للآخرين . ولكنني كنت أستمر في تطبيق قواعد الأخلاق المسيحية على وضعي ووضع أهلي ولا سيما وضع جاك ،

ولقد تأثرت وحزنت قليلاً حين سمعت ستيفا تقول لي يوماً :
- يا إلهي ! كم هي ساذجة ، زازا !
وكانت ستيفا قد صرّحت انه ، حتى في الاوساط الكاثوليكية ،
لم يكن أيّ شاب يصل إلى الزواج ، وهو لا يزال بكرّاً ! فاحتجت
زازا على ذلك : إذا كان المرء مؤمناً فانه يعيش وفق إيمانه ، فقالت
لها ستيفا :

- انظري إلى أبناء عمك من أسرة «دي مولين»!
فأجابت زازا :

- ما شأنهم ؟ انهم يتناولون القربان كل يوم أحد ! وأنا أوكد لك
انهم لا يقدرّون أن يعيشوا في حالة الإثم المميت.
فلم تُلحّ ستيفا بعد ذلك ، ولكنها روت لي انه قد سبق لها مراراً
ان التقت بهنري وادغار في مونبارناس وهما بصحبة نساء لا يشك
بأمرهنّ .. والواقع ان هذين الشابين لم يكن عليهما مظهر صبيان الجوقة
الدينية . ولقد فكّرت آنذاك بـجـاك : كان له مظهر آخر تماماً ، وكان
من المستحيل الافتراض بأنه كان يضاجع النساء . ومع ذلك ، فان
ستيفا ، إذ كشفت لي سذاجة زازا ، كانت انما تشكّ في تجربتي أنا
أيضاً . وقد كان طبيعياً جداً في رأيها التردّد إلى المشارب وإلى المقاهي
التي كنت أبحث فيها عن الأشياء الخارقة . ولا شك في انها كانت تنظر
إلى هذه المشارب والحانات من زاوية أخرى . وأدركت اني انما كنت
أنظر إلى الناس كما يظهرون لي ، ولم أكن أهتمهم بأن لهم حقيقة غير
الحقيقة الرسمية . وقد ذكرني ستيفا بأن لهذا العالم المراقب المنظم
أروقة وكواليس . ولقد أقلقني هذه المحادثة .

ولم تصحّبني زازا ، ذلك العام ، إلى المحطة لتوديعي . ولقد
تنزهت قليلاً في انتظار القطار وأنا أفكر فيها . وكنت عازمة على أن
أناضل بكل قواي لتتغلب الحياة فيها على الموت .

القسم الرابع

ولم تشبه هذه العودة إلى السوربون اية عودة سابقة . فاني حين عزمت على الاستعداد للمباراة ، نجوت أخيراً من التيه الذي كنت أدور فيه منذ ثلاثة أعوام : لقد بدأت السير نحو المستقبل . وقد كان لأيامي بعد الآن معنى خاص : انها تقودني إلى التحرر النهائي . على أن صعوبة المشروع كانت تقلقني ، فليس ثمة مجال بعد للتيه والشروء ، ولا للضجر والملل . لقد كانت الارض التي أجد فيها الآن شيئاً أعمله تكفيني تماماً . لقد تحررت من القلق واليأس وجميع الوان الكتابة . « لن أسجل على هذا الدفتر صراعات مأساوية ، وانما القصة البسيطة لكل يوم . » كان عندي شعور بأن حياتي الحقيقية تبدأ ، بعد تدريب شاق ، فألقيت فيها نفسي بفرح .

وفي اكتوبر ، كانت مكتبة السوربون لا تزال مغلقة ، فأمضيت أيامي في المكتبة الوطنية . وكان قد سُمح لي بالآلأ أعود ظهراً إلى البيت لتناول الغداء ، فكنت أشتري بعض الخبز والكبد وآكل في حدائق « الباليه رويال » وانا أنظر إلى آخر الورود تموت . وكان بعض الناس جالسين على المقاعد بمضغون الطعام ويشربون الخمر . فاذا اكفهر الجو كنت الجأ إلى مقهى قريب وأنا سعيدة بأن أفلت من رسميات الوجبات العائلية . وكان نجيل إليّ إذ أقبلت الطعام وأردّه إلى حقيقته اني أخطو خطوة أخرى نحو الحرية . وبعد أن أنتهي أعود إلى المكتبة

وأدرس نظرية النسبية وأبتهج لذلك . وبين فترة وأخرى ، كنت أنظر إلى القراء الآخرين وأستقرّ راضية في مقعدي : لقد كنت في مكاني الحقيقي بين هؤلاء الباحثين والعلماء والمفكرين . ولم أعد أشعر أن وسطي يطرحني عنه ، فأنا أنا التي تركته لأدخل هذا المجتمع الذي تتواصل فيه ، عبر المدى والقرون ، جميع الأذهان التي تهتمّ بالحقيقة ، وأنا كذلك كنت أسهم في الجهد الذي تبذله الإنسانية لتعرف وتفهم وتعبّر عن نفسها : لقد انضويت تحت راية عمل جماعي عظيم ، وأفلت من الوحدة إلى الابد . فأني نصر هذا !

وعدت إلى عملي . وفي الساعة السادسة إلا ربعاً صاح حارس المكتبة « أها السادة سنغلق المكتبة عما قريب » . ثم تكون مفاجأة لي ، كل يوم ، إذ أخرج من المكتبة ، أن ألقى المخازن والانوار والمارة والقزم الذي كان يبيع البنفسج إلى جانب « التياتر فرانسيه » . وكنت أسير على مهل ، مستسلمة لكآبة المساء والعودة .

وعادت ستيفا إلى باريس بعدي بأيام وكانت تتردد على المكتبة الوطنية لتقرأ جوته ونيتشه . وكانت عيناها وابتسامتها دائماً بالمرصاد ، ولهذا كانت تروق للرجال أكثر مما ينبغي ، وكانوا هم يشغلونها إلى حدّ أنها لم تكن لتعمل بثبات وجدّ . فما تكاد تأخذ مقعدها ، حتى ترمي معطفها على عاتقها وتخرج لتلقي أحد مغازليها : الأستاذ الألماني أو الطالب البروسي أو الدكتور الروماني . وكنا نتناول الغداء معاً ، وبالرغم من أنها لم تكن غنيّة ، فإنها كانت تقدّم لي بعض الحلويات في مخبز أو مقهى . وعند الساعة السادسة كنا ننتزّه في الشوارع أو غالباً ما نأخذ الشاي عندها . وكانت تنزل في فندق بشارع « سان سوليس » في غرفة صغيرة زرقاء ، وكانت قد علّقت على الجدران رسوماً لسيزان ورنوار وغريكو ورسوم صديق اسباني كان يتدرب على الرسم . وكانت تروقي صحبتها ، وكنت أحب رقة فروها وأثوابها وعطرها

وتسجييعها وحركاتها الملائمة . لقد كانت علاقاتي مع أصدقائي - زازا ، جاك ، براديل - على جانب كبير من القسوة . أما ستيفا فقد كانت تتناول ذراعي في الشارع ، وكانت في السينما تضع يدها في يدي وتقبلني في كل مناسبة . وكانت تروي لي قصصاً كثيراً وتحمّس لنيته وتهاجم السيدة مايل ، وتسخر من محبيها : وكانت تنجح نجاحاً عظيماً في التقليد وتقطع قصصها بتمثيلات فكاهية كانت تسليني كثيراً .

وكانت ستيفا تصفّي في تلك الاثناء رصيماً قديماً من التدين . وكانت قد اعترفت في « لورد » وتناولت القربان . وفي باريس اشترت كتاب قداس صغيراً وركعت في كنيسة بشارع سان سوليس محاولة أن تصلّي ، ولكنها لم توفق . وظلت طوال ساعة تذرّع باحة الكنيسة جيئة وذهاباً دون أن تعزم على دخولها ثانية أو على الابتعاد عنها . ولقد رأيتها تقلّد هذه الأزمة التي عانتها ، واضعة يديها وراء ظهرها ، مجمّدة جبينها ، مندفعة ، حتى شككت في صدق ذلك . فالواقع ان الآلهة التي كانت ستيفا تعبدها انما هي الفكر والفنّ والعبقرية ، فاذا لم توجد ، فقد كانت تقدّر الذكاء والموهبة . وكلما كانت تجد أثر رجل « هام » كانت تتدبر امرها لتتعرف عليه ولتضع « رجليها فوقه » . وقد أوضحت ان هذا هو « الانوثة الخالدة » ، وانها كانت تفضّل على هذه المغازلات المحادثات الفكرية والزمالة . وكانت تناقش كل اسبوع جماعاً من الاوكرانيين الذين كانوا يدرسون في باريس . وكانت ترى كل يوم صديقها الاسباني الذي كانت تعرفه منذ سنوات والذي كان قد اقترح عليها ان يتزوجها . وقد لقيته عدة مرات عندها ، وكان يسكن في الفندق نفسه ، ويُدعى فرناندو ، وهو سليل احدى تلك الأسر اليهودية التي فرّت من اسبانيا بسبب التعذيب منذ اربعة قرون ، وكان يقوم بدراسته في باريس . وكان ذا رأس أصلع ويتحدث عن « شيطانه » بلهجة رومانتيكية ولكنه كثير السخرية ، وقد راق لي كثيراً . وكانت ستيفا معجبة بأنه كان يتدبر امره

ليقوم بالرسم من غير ان يملك فلساً ، وكانت تقاسمه جميع أفكاره ، وكان اتجاهها عالمياً مسالماً وثورياً . وهي لم تكن تتردد في الزواج به الا لأنها كانت شديدة الحرص على حريتها .

وقد عرفتني على اخي فأسرعا إلى تبنيها ، كما عرفتني على أصدقائي وكان براديل قد سقط فكسر رجله ، وكان ما يزال يعرج حين لقينته في مطلع تشرين في حديقة اللكسمبورغ . وبدا في نظري عاقلاً جداً ، بينما افزعته هي بجيوتيتها . وكانت أكثر تفاهماً مع ليذا . وكانت هذه تسكن آنذاك بيتاً للطالبات يشرف على حديقة اللكسمبورغ الصغيرة ، وتكسب حياتها من اعطاء الدروس الخاصة . وكانت تعد شهادة في العلوم ودبلوماً عن « مين دو ميران » ، ولكنها لم تكن تفكر بأن تتقدم لشهادة « الاغريغاسيون » إذ كانت صحتها ضعيفة ، وكانت تمسك رأسها بين يديها وتقول « يا لعقلي المسكين ! تصوروا اني لا أستطيع ان أعتمد الا عليه ، وان علي ان استمد كل شيء منه ! إن هذا غير انساني : ولا بد ان يهزئ ذات يوم ! »

وكنت أتحدث كثيراً مع ستيفا عن زازا التي كانت تمدد إقامتها في « لوباردون » . وكنت قد ارسلت اليها من باريس عدة كتب ، فغضبت السيدة ماييل ، كما أبلغتني ستيفا ، وقالت : « اني اكره المفكرات والمفكرين ! » وبدأت زازا تقلقها حقاً ، ولن يكون من السهل ان يفرض عليها زواج مدبر . وكانت السيدة ماييل نادمة على انها تركتها تتردد إلى السوربون ، وكانت تعتبر ضرورياً ان تعجل باستعادة ابنتها ، وان تزيل عنها تأثيري . وكتبت لي زازا انها صارحت أمها بمشروعنا الذي حدثتها عنه بشأن التنس فنارت امها : « وقالت انها لا تقر أخلاق السوربون هذه ، وانها لن تتركني أذهب إلى لعبة تنس تنظمها طالبة في العشرين للقاء شبان لا تعرف حتى أسرهم . وأنا أقول لك ذلك بكل جفاف ، لأنني اوثر ان تدركي هذه الحالة الذهنية التي أصطدم بها بلا انقطاع والتي

تجبرني على إطاعتها فكرة مسيحية . ولكنني اليوم نائرة الاعصاب إلى حد البكاء ، إن الاشياء التي أحبها لا تحب بعضها ، ولقد سمعت أشياء تثيرني بحجة المبادئ الاخلاقية . ولقد اقترحت بتهكم ان اوقع ورقة أتعهد بها ألا اتزوج براديل ولا كليرو ولا أحداً من أصدقائهما ، ولكن ذلك لم يهدئي امي .»

وفي الرسالة التالية أبلغتني ان أمها قد عزمت ، لكي تجبرني على ان تقطع صلتها بالسوربون ، على ان توفدها لقضاء الشتاء في برلين ، وقالت لي : إن أسر البندة قد اعتادت في الماضي ، إذا شاءت ان تضع حداً لعلاقة تثير الفضيحة أو الارتباك ، على ارسال ابنائها إلى اميركا الجنوبية . وكتبت إلى زازا رسائل مطولة ، في الاسابيع الاخيرة ، كما لم اكتب من قبل قط ، ولم يسبق لها ان اعترفت لي بمثل هذه الصراحة . ومع ذلك ، فان صداقتنا بدت مضطربة حين عادت إلى باريس في منتصف اكتوبر . ولم تكن زازا تحدثني الا عن الصعوبات وعن ثوراتها فأشعر اني حليفها ، ولكن موقفها كان في الحقيقة غامضاً : ذلك انها كانت تحتفظ لامها بكل احترامها وكل حبها وتظل متضامنة مع وسطها . ولم أعد أستطيع إقرار هذه القسمة . وكنت قد فكرت بمدى عداة السيدة مايل ، فأدركت انه لم يكن بين المعسكرين اللذين تنتمي اليهما أي مجال لتسوية : فان انصار المجتمع المصطنع كانوا يريدون إبادة « المفكرين » والعكس بالعكس . وحين لا تتحاز زازا إلى جانبي ، فانها تتعاقد مع منافسين يجهدون في تهديمي ، وإني لأعتب عليها في ذلك . وكانت تخشى الرحلة التي فرضت عليها وتبرم بها ، ولقد عبرت عن ضعفتي إذ رفضت مشاركتها همومها ، وتصنعت مزاجاً بشوشاً ألمها وأحزنها . وتظاهرت بتعلق شديد بستيفا ورحت اجارها في ضحكها وثرثرتها . وكانت أحاديثنا غالباً ما تثير حسّ الاخلاق عند زازا . وقد قطبت جبينها حين أعلنت ستيفا ان الناس هم عالميون بقدر ما هم اذكاء . وكان

ردّ فعلها على تصرفاتنا « كفتيات بولونيات » انها أخذت تسلك مسلك
« الفتاة الفرنسية الرصينة ». وهذا ما ضاعف سخاوفي : فربما انحازت بعد
ذلك إلى صف الاعداء . ولم أعد اجروء على ان اتحدث اليها بحرية حتى
اني أصبحت اوثر ان اراها مع براديل وليزا واختي وستيفا على ان اراها
وحدها . ثم إن معدات سفرها كانت تستغرقها : ولقد تبادلنا الوداع ،
من غير اقتناع كبير ، في مطلع شهر نوفمبر .

وفتحت الجامعة أبوابها من جديد ، وكنت قد قفزت عاماً ، فلم
اعرف من رفاقي الجدد غير كليرو ، ولم يكن بينهم أي هاوٍ ، إذ كانوا
جميعاً « حيوانات مباراة » مثلي تماماً . وكنت ألاحظ ان لديهم هيئة منفرة
ومزاجاً مدعياً ، فعزمت على ان أتجاهلهم ، ومضيت أعمل باجتهاد .
وكنت أتابع في السوربون جميع دروس « الاغريغاسيون » وأقصد مكتبة
سانت جانفياف والمكتبة الوطنية في أوقات الفراغ . وفي المساء كنت اقرأ
الروايات أو أخرج . كنت قد شخت ، وسوف اتركهم عما قليل : وقد
سمح لي والدي ذلك العام ان أخرج مساء لاحضر المسرح بين وقت
وآخر وحدي او بصحبة صديقة . وتحت تأثير ستيفان ، غدوت اقل
إهمالاً للمبسي ومظهري من ذي قبل . وقد أبلغتني ان الاستاذ الالمانى
كان يأخذ عليّ ان أمضي وقتي كله في الكتب : فان من المبكر جداً ان
تظهر فتاة في العشرين بمظهر النساء العالمات ، واني سأغدو قبيحة على مرّ
الأيام . وقد احتجّت على هذا القول ، ولم تكن تريد ان تفقد أفضل
صديقة لها مزايهاها . وكانت تؤكد لي اني كنت املك رصيذاً طيباً من
الناحية الجسمية وان عليّ ان أفيد من ذلك ، فاعتدت بعد هذا ان اتردد
على المزيّن واهتمت بشراء قبعة وتفصيل ثوب ، وعدت أعقد بعض
الصدقات . ولم تعد الآنسة لامبير تثير اهتمامي ، وكانت سوزان بواغ
قد تبعت زوجها إلى مراکش ، ولكنني عدت أجتمع بريسمان واسترجعت
ودّي لجان ماليه الذي أصبح معيداً في معهد سان جرمان ، وكان يهيبىء

دبلوماً تحت اشراف « باروزي » . وكان كليرو يأتي غالباً إلى المكتبة الوطنية ، وكان يراديل يحترمه حتى انه اقنعني بقيمة الكبيرة . وقد أكد لي أنني سأنجح في امتحان « الاغريغاسيون » :

— يبدو انك تنجحين في كل عمل تقومين به .

فغرّنتني هذه العبارة . وكانت ستيفاً تشجعني كذلك :

— ستكون لك حياة جميلة وستحصلين دائماً على ما تشائين .

ومضيت واثقة من نجمي ، راضية عن نفسي . وكان الخريف جميلاً وكنت أشعر بسعادة إذ أرى السماء رقيقة ساجية ، عندما أرفع انفي عن كتبي .

وكنت أحياناً افكر بباك لأتأكد من اني لست « جرد مكتبة » . وكنت اكرّس له صفحات مذكراتي ، وأكتب له رسائل كنت أحتفظ بها لنفسي . وحين رأيت امه في مطلع نوفمبر ، بدت لي شديدة الود ، وقالت لي إن جاك يسألها دائماً عن « الكائن الوحيد الذي يعني امره في باريس » . وابتسمت لي وهي تقول ذلك .

وكنت أعمل بجِد واتسلى . وكنت قد استعدت توازني ، وتذكرت بدهشة حركاتي المماجنة في الصيف . إن تلك الحانات والمراقص التي قضيت فيها امسيات لم تعد توحى لي بغير الاشمئزاز ، بل بنوع من الاستفزاز .

وكانت ستيفاً تقول لي غالباً :

— كم انت مثالية !

وكانت تحرص على ألاّ تنفّرني . وذات يوم ، أشار فرناندو إلى صورة امرأة عارية كانت معلقة على جدران الغرفة الزرقاء وهو يقول :

— انها ستيفاً وقد تعرّت للرسم .

فارتعت لذلك ، ورأيتته ورأيتها تقذفه بنظرة غاضبة وهي تقول :

— لا تنطق بمثل هذه الحماقات !

فاعترف على عجل بأنه كان يمزح .. إنه لم يخطر على بالي قط ان
تستطيع ستيفا تبرير حكم السيدة مايبل عليها : « انها ليست فتاة رصينة »
على انها كانت تحاول باعتدال ان تحررني قليلاً :
— أوكد لك يا عزيزتي ان الحب الجسدي شيء هام جداً ، وخصوصاً
بالنسبة للرجال .

و ذات ليلة ، رأينا ونحن خارجتان من احد المسارح في ساحة « كليشي »
اناساً متجمعين حول شرطي قد أوقف شاباً أيقاً كانت قبعته قد سقطت
في الساقية ، وكان يتخبط باهت الوجه ، وكان الجمهور يصيح به
« عك .. قدر » وحسبت اني سأسقط على الرصيف مغمي عليّ ،
وجذبت ستيفا ، وكانت الانوار وصخب الشارع والنساء المزينات ، كل
ذلك كان يحدوني إلى أن أصبح . وسمعت ستيفا تقول لي :
— ولكنها الحياة يا سيمون !

وأخذت تشرح لي بصوت هادئ ان الرجال ليسوا قديسين . صحيح
أنّ هذا يثير « الاشمزاز » قليلاً ، ولكنه موجود ، بل هو ذو أهمية
كبيرة للجميع . وروت لي ، لتأييد ذلك ، طرفاً من الأقايصيص التي
صلبت أعضائي . على اني كنت بين آن وآخر أبذل مجهوداً من
الصراحة : ما هو مصدر مقاومتي هذه ؟ « أتكون هي الكاثوليكية قد
خلقت في نفسي حساً عميقاً للطهارة بحيث أن أدنى إشارة إلى شوون
الجسد كانت تترك في ضيقاً لا يُعبّر عنه ؟ اني اتذكر « كولومب »
بطلة الين فورنيه التي قذفت بنفسها في البحيرة حتى لا تخون طهارتها ؟
أم لعلها الكبرياء ؟ »

ولم أكن أزعم طبعاً أنّ على الفتاة ان تلح إلى ما لا نهاية على
الاحتفاظ ببيكارتها ، ولكنني كنت أقنع نفسي بأن من الممكن الاحتفال
في السرير باقامة قدّاس أبيض : فان الحب الحقيقي يسمو بالعناق
الجسدي ، وان الفتاة الطاهرة تتحول بجذل ، وهي بين ذراعي رجلها

المختار ، إلى امرأة مشرقة . وقد كنت احب فرانسيس جامس لأنه كان يصور الشهوة بألوان بسيطة كأنها ماء ينبوع ، وكنت احب على الاخص كلوديل لأنه كان يمجّد في الجسد حضور الروح حضوراً حسيّاً مدهشاً ، وقد طرحت كتاب جول رومان « الرب في الجسد » لأن اللذة لم تكن مصوّرة فيه على انها تحوّل للفكر . وقد أغازني كتاب « آلام المسيحي » لموريالك الذي كانت تنشره مجلة « ن . ر . ف » . لقد كان الجسد المنتصر عند أحدهم ، والدليل عند الآخر يتخذ من الالهية في الحالين أكثر مما ينبغي ، وقد حنقت على كليرو الذي هاجم ، في اجابة له حول تحقيق قامت به « الاخبار الادبية » ، هاجم « بوّس الجسد وسيادته الفاجعة » . وكذلك حنقت على « نيزان » وعلى زوجته لأنهما كانا يدعوان إلى اباحية جنسية تامة بين الزوجين .

وكنّت أبرّر نفوري كما كنت ابرره وأنا في السابعة عشرة : إن كل شيء يسير على ما يرام إذا أطاع الجسم الرأس والقلب ، ولا ينبغي له ان يتقدّم عليهما . وقد كانت هذه الحجة تزداد ضعفاً إذ كنت ارى ان ابطال « رومان » كانوا في الحب اراديين ، وان نيزان وزوجته يدافعان عن الحرية في الجنس . والحقق ان الاحتراس العاقل الذي كنت أحمله وأنا في السابعة عشرة لم يكن ذا علاقة « بالاستفضاع » العجيب الذي كان غالباً ما يثلجني . فاني لم أكن احسني مهددة بصورة مباشرة ، لقد عبرت احياناً بعض لحظات الاضطراب الجنسي : حين كنت مثلاً بين ذراعي بعض الراقصين في ملهى « جوكي » أو حين كنت أنا واختي في حدائق « مارنيك » نتعانق فوق الاعشاب ، ولكن ذلك الدوار كان يروق لي ، وكنّت راضية عن جسدي ، وكنّت عندي رغبة فضولية في ان اكتشف يناييعه وأسراره ، وكنّت انتظر بنفاد صبر ، ومن غير كراهية ، اللحظة التي أصبح فيها امرأة . وكنّت اجدني بطريقة غير مباشرة ، موضوعاً للمناقشة عبر جاك : فاذا لم يكن الحب الجسدي غير لعبة بريئة ،

فليس هناك أي سبب لعدم قبوله . ولكن لا بدّ ان محادثتنا كانت بلا أهمية ولا وزن ثقيل إزاء المشاركات الجذلة العنيفة التي عرفها مع نساء أخريات : لقد كنت معجبة بسموعلاقتنا وصفائها . والحقيقة أنها كانت علاقات غير كاملة باهتة ، كما ان الاحترام الذي كان جاك يكتنه لي يصدر عن المفهوم التقليدي للأخلاق ، لقد كنت اسقط في الدور العاق الذي يمكن ان تلعبه ابنة عم صغيرة محبوبة : وما كان أبعدها مسافة بين هذه العذراء ، وبين رجل غنيّ بتجاربه كرجل ! ولم اكن راغبة في الاستسلام لمثل هذه الدونية ، وانما كنت أفضل ان ارى في المجون لطخة فيمكنني اذ ذاك ان ارجو ان يحترس منه جاك ، والاّ فانه لن يوحى إلي بالرغبة بل بالشفقة . كنت أفضل ان أغفر له بعض نقائصه على ان أبعده عن ملذّاته . غير ان هذه الفكرة كانت أيضاً ترعجني . كنت أنشد امتزاجاً شفافاً لروحينا ، فاذا سبق له ان اقررف اخطاء سوداء ، فانه سيفلت مني ، في الماضي والمستقبل . لأن قصتنا التي شوّهت منذ البدء لن تنسجم ابداً مع القصة التي اخترعتها أنا . وقد كتبت في مذكراتي : « انني لا أريد ان تكون للحياة ارادات غير ارادتي . » وهذا على ما احسب هو المعنى العميق لقلقي . كنت أجهل كل شيء تقريباً عن الواقع . فقد كان هذا الواقع ، في وسطي ، مقنناً بالمواضعات والطقوس ، وكانت هذه المواضعات تبعث فيّ الضجر ، ولكنني لم أكن احاول ان ادرك الحياة في جذورها . بل كنت على العكس افرّ إلى الغيوم : لقد كنت روحاً ، مجرد نفس ، ولم أكن اهتم الا بالارواح والنفوس . وكان تدخّل القضية الجنسية يفجّر هذه الملائكية ، فيكشف لي فجأة ، في وحدتها التي تبعث على الخوف ، الحاجة والعنف . لقد عانيت في ساحة « كليشي » صدمة عنيفة لأنني شعرت ان بين تجارة العكا .. ووحشية الشرطي أوثق صلة . لم أكن أنا موضوع القضية ، بل العالم كله : فاذا كان البشر أجساداً جائعة ذات وزن ثقيل ، فان العالم لم يكن يستجيب

قطّ للفكرة التي كوّنتها عنه ، الشقاء والجريمة والضغط والحرب : ان هذه آفاق كانت ترعيني إذ أتخيّلها .

ومع ذلك ، فقد عدت ، في منتصف نوفمبر ، إلى مونبارناس . فلقد تعبت من النظام الدراسي والثروة والذهاب إلى السينما . أهذه هي الحياة ؟ اتراني انا التي كنت أعيش على هذا النحو ؟ لقد كانت هناك دموع وحمّيات ، وكانت هناك المغامرة والشعر والحب : حياة رقيقة ، ولم أكن أريد ان اسقط . وكنت اتفقت مع أختي ذلك المساء ان نحضر مسرح « الاوفر » ، ولكنني حين لقيتها في مقهى « الدوم » سحبتها إلى « الجوكي » . ورطبّت نفسي في الدخان والخمر والتبغ ، كما يغرق المؤمن في رائحة البخور والشموع حين يخرج من ازمة جفاف . وما لبثنا ان تذكرنا مواقفنا السابقة في مثل هذه الامكنة ، فأخذنا نتبادل أنا وأختي الشتائم الصاخبة كما تبادلنا شدّ الشعر . وتمنيت ان أجرح قلبي جرحاً أعمق فقُدت أختي إلى « الستريكس » والتقىنا هناك بريسون وأحد أصدقائه ممن يبلغون الاربعين . وقد بدا هذا الرجل يغازل بوييت ، وقدم لها ضمّة من البنفسج بينما كنت أتحدث مع ريكيه الذي كان تمتدح لي جاك ويقول عنه « لقد عانى صدمات شديدة ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها كلها » . وحدثني عن القوة التي تكمن في ضعفه ، وأي اخلاص تختفي تحت ادّعائه ، وكيف كان يحسن الحديث عن الاشياء الرصينة المولّدة ، وكيف قدّر عبثية كل شيء بتبصّر عظيم . وانتهى إلى القول باعجاب :

— ان جاك لن يكون أبداً سعيداً .

فانقبض قلبي لذلك وسألته :

— واذا أتى من يعطيه كل شيء ؟

فكان جوابه « ان ذلك يُدلّه » . فعاد الخوف والأمل إلى صدري . وعلى طول شارع راسباي ، كنت انتحب وأنا أخفي وجهي في ضمة

البنفسج .

كنت أحب الدموع والامل والخوف . وحين قال لي كليرو في اليوم التالي وهو يحدّق في :

- ستكتبين رسالة عن سبينوزا ، فليس في الحياة غير ذلك . ان يتزوج الانسان وان يكتب رسالة .

شعرت بالتمرد . ان يمتن الانسان مهنة ، وان يتزوج : طريقتان للتخلّي والاستقالة . وأقرّني براديل على ان العمل أيضاً يمكن ان يكون مخدّراً . وشكرت باخلاص جاك الذي انتشطني طيفه من تبلّدي المجد . صحيح ان عدداً من أصدقاء السوربون كانوا أكبر منه قيمة فكرية ، ولكن هذا كان عندي سواء . لقد كان يخيّل إليّ ان مستقبل كليرو وبراديل مرسومٌ مقدّماً ، أما حياة جاك وأصدقائه فقد كانت تبدو لي كأنها سلسلة من ضربات الزهر : فقد ينتهون إلى تحطيم أنفسهم أو إفساد حياتهم . وكنت أفضل هذه المجازفة على جميع التصلّبات .

وطوال شهر جعلت أصطحب مرة أو مرتين في الاسبوع كلاً من ستيفا وفرناند وصحافياً اوكرانياً من أصدقائهم إلى ملهى « ستريكس » ، وكذلك اختي وليزا وماليه . ولا أدري اين كنت أجد المال تلك السنة لأنني كنت انقطعت عن اعطاء الدروس . لا شك اني كنت اوفر بعض الفرنكات الخمسة التي كانت أمي تعطيني اياها كل يوم للغداء . على أي حال ، كنت أنظّم ميزانيتي على ضوء هذه الجلسات الصاخبة . وكانت ستيفا تتنكر بزيّ خادم المقهى وتساعد ميشال على خدمة الزبائن ، مازحة معهم باللغات الأربع وتغني ألحاناً اوكرانية . وكنت أتحدّث مع ريكيه وصديقه عن جيروودو وجيد والسينا والحياة والنساء والرجال والصداقة والحب . وفي اليوم التالي كنت أسجّل : « أمسية رائعة » ولكنني كنت اقطع مذكراتي بعبارات معترضة ذات لهجة مختلفة تماماً . كان ريكيه قد قال لي عن جاك :

— سيركب رأسه يوماً ويتزوج ، ولعله سيكون أباً صالحاً لأسرة :
ولكنه سيحزن دائماً إلى المغامرة .

ولم تكن هذه النبوءات تزيد في اضطرابي ، وإنما الذي كان يزعجني هو ان جاك قد قضى طوال ثلاثة أعوام حياة شبيهة بحياة ريكيه . ولقد كان هذا يتحدث عن النساء بتحرر يزعجني : فهل كان بوسعي ان أعتقد ان جاك كان أخاً لمولن الكبير ؟ لقد كنت اشك في ذلك . ومهما يكن ، فقد خلقت له هذه الصورة دون ما اعتراف منه ، وبدأت أقول انه ربما لم يكن يشبهه قط . إلا أن ذلك كله كان يؤلمني .. واذا كان العمل مخدراً ، فإن الخمر والقمار ليسا خيراً من ذلك . إن محلي لم يكن في الحانات ولا في المكتبات ، فاين هو إذن ؟ اني لم أكن أجد الخلاص بكل تأكيد الا في الأدب ، وقد بدأت افكر برواية جديدة ، وسأجعل بطلتها فتاة هي أنا ، وبطلاً يشبه جاك « بكبريائه ورغبته الجنونية في التهديم » . ولكن ضيقي استمر . وذات مساء رأيت في ركن من « الستريكس » كلاً من ريكيه وصديقه اولغا التي كنت أجدها أنيقة جداً . وكانوا يعلقون على رسالة جاءتهم من جاك ، فكتبوا له بطاقة ، ولم أستطع إلا ان اتساءل : « لماذا يكتب لهم ولا يكتب لي قط ؟ » ورحت أسير طوال ساعات في الشوارع ، احس الموت في روحي ، ثم انتهى بي المطاف إلى قاعة سينما ، فانخرطت هناك في البكاء .

وفي اليوم التالي أقبل براديل يتناول العشاء عندنا ، وكانت له علاقات طيبة بالدي ، ثم ذهبنا معاً إلى احدى دور السينما . ولكني طلبت منه فجأة ، ونحن في منتصف الطريق ، أن يأخذني إلى «الجوكي» . فوافق بلا حماسة ، وجلسنا إلى طاولة ، كالزبائن الرصينين ، ثم أخذت أشرح له من هو جاك الذي لم أكن حدثته عنه الا حديثاً خاطفاً . فاستمع إلي يتحفظ . وكان واضحاً انه منزعج من ذلك . وقد سألته عما إذا كان

لا يروقه أن اتردد إلى مثل تلك الامكنة ، فقال إن ذلك شخصياً
يزعجه . وفكرت في انه لم يعرف هذا المطلق من الوحدة واليأس الذي
يبرر كل التصرفات الشاذة . على اني في ذلك اليوم ، رأيت المرقص
بعين جديدة ، وأنا جالسة على مقربة من المشرب الذي طالما أظهرت
عنده المجون والجنون : فان نظر براديل الحكيم قد أطفأ في هذا المرقص
كل شاعريته . ولعلني لم أصحبه إلى هناك الا لكي أسمعه يقول لي
بصوت مرتفع ما كنت أقوله لنفسي بصوت منخفض : « ماذا أتيت
أفعل هنا ؟ » ومهما يكن من أمر ، فقد رأيت انه على حق ، بل اني
قد حولت قسوتي إلى جاك : لماذا يضيع وقته في التشرّد ؟ وقطعت
صلتي بالمجون ، ولم انتهز فرصة غياب اهلي بضعة أيام في « اراس » ،
ورفضت ان أتبع ستيفا إلى مونبارناس ، بل رفضت بانزعاج اقتراحاتها ،
وظللت قريبة من مدفأتي اقرأ « ميريديث » .

وكففت عن التساؤل عن ماضي جاك . فلئن اقرت بعض الاخطاء،
في آخر المطاف ، فان وجه العالم لم يتغير بسبب ذلك. وحتى في الوقت
الحاضر ، كففت عن الاهتمام به ، فانه صموت أكثر مما ينبغي ،
وإن هذا الصمت أصبح يشبه العداء . وحين حملت إليّ جدّته السيدة
فلاندان بعض أخباره ، تلقيت هذه الاخبار بلا اكتراث . غير أنني
كنت أكره ان اسقط من يدي شيئاً ، فزعمت لنفسي ان حبنا لا بدّ
ان يبعث من جديد يوم يرجع جاك .

٢

وظللت أعمل بجدّ ، وكنت أقضي عشر ساعات كل يوم بين كتبي .
وفي كانون الثاني بدأت أقوم بالتدريب في معهد « جانسون دوسايبي »
تحت مراقبة « رودريغ » وهو لإنسان كهل لطيف جداً ، كان يرأس

عصبة حقوق الانسان ، وقد انتحر عام ١٩٤٠ حين دخل الالمان إلى فرنسا . وكان بين زملائي ميرلو بونتي وليفني ستروس ، وكنت أعرفهما قليلاً من قبل ، وكان اولهما قد اوحى لي دائماً بالود ، وكان الثاني يخيفني بخموله ، ولكنه كان يتلاعب به بمهارة ، وكنت أراه عجبياً حين يشرح بصوت محايد ، وسحنة ميتة ، نظرية جنون الشهوات . وقد كانت تمرّ أوقات باهتة ارى انه كان مضحكاً فيه أن يشرح مثل ذلك أمام أربعين طالباً لا يهتمون ظاهراً بالموضوع . أما في الايام المشرقة الأخرى ، فكنت احسب اني أرى في بعض العيون أشعة ذكاء . وكنت اذكر انفعالي حين كنت أتردد في معهد ستانيسلاس إلى صفّ كان فيه صبيان ! اما الآن ، فاني على الطاولة أعطي الدروس ، ولا يبدو لي شيء في الدنيا خارج الإدراك .

ولم يكن يؤسفني طبعاً ان أكون امرأة ، بل لقد كنت استمدت من ذلك الواناً كثيرة من الرضى . وكانت تربيّتي قد أقتعتني بأنّ جنسي كان دون جنس الذكور في الذكاء ، وكانت الآنسة رولان تقول لي « إن المرأة لا تأمل ان تنجح في امتحان الاغريغاسيون قبل ان تسقط فيه خمس مرات » . وكانت هي قد سقطت مرتين . وكانت هذه العقبة تُكسب نجاحي إشراقاً أندر مما كانت تُكسبه لنجاح الطلاب الذكور ، وكان حسبي ان أساويهم لأحس اني فذّة . والواقع اني لم ألق بينهم احداً أدهشني ، فقد كان المستقبل منفتحاً لي كأني فرد منهم ، ولم يكن لهم عليّ اية ميزة ، والحق انهم لم يكونوا يدعون ذلك ، وكانوا يعاملونني بلطف خاص لأنهم لم يكونوا يعتبرونني منافسة لهم ، وكنت فخورة بأن أحصل على تقديرهم . وقد دعا براديل إلى منزله ذات مساء احسن أصدقائه مع اخواتهن . وقد صحبتني اختي ، فاذا بجميع الفتيات ينسحبن إلى غرفة مجاورة ، وأبقى أنا مع الشباب .

غير اني لم أكن أنكر انوثتي . وكنا ذلك المساء بالذات قد عشنا ،

أنا وأختي ، بملبسنا ومظهرنا عناية شديدة . وكنت قد التقيت في أثناء سهراتي بمونتهارت فرتيات ، جميلات انيقات ، وكانت حياتهن تختلف عن حياتي بحيث لا تصح المقارنة . بيد انه لم يكن ثمة ما يمنعني من تقليدهن حين كان المال يتوفر لي . ولم أكن قد نسيت ان جاك قال عني بأني جميلة ، كما ان ستيفا وفرنان أملاني كثيراً في هذا الموضوع . وكنت أقف كثيراً أمام المرأة في تلك الفترة ، فأروق لنفسي . ولم أكن أعتبر نفسي ، في الحقل الذي كان مشتركاً بيننا ، دون سائر النساء ثقة ، ولهذا لم أكن أشعر نحوهن بأي حسد ، ولم أكن أجهد في أن احتقرهن . وكنت أضع زازا وأختي وستيفان وحتى ليزا فوق كثيرين من أصدقائي الشباب ، إذ كن أشد حساسية وكرماً وأوفر موهبةً للحلم والدموع والحب . وكان يغرتني ان أجمع في نفسي « قلب امرأة وعقل رجل » وهكذا كنت استرد ايماني بأني « فريدة » و « فذّة » .

على ان ما كان يُعدّل من هذا الغرور اني كنت احبّ خصوصاً في نفسي ما كنت أوحيه للآخرين من عواطف ، واني كنت اهتم للآخرين أكثر من اهتمامي بنفسني . وفي العهد الذي كنت أنتخبط فيه في الأشراك التي كانت تعزلني عن العالم ، كنت أحسنني مفصولة عن أصدقائي ، ولم يكونوا يستطيعون مساعدتي في شيء . أما الآن ، فاني مشدودة اليهم بهذا المستقبل الذي استوليت عليه مجدداً وأصبح مشتركاً بيننا . وهذه الحياة التي عدت أجدها فيها كثيراً من الوعود ، انما كانت تتجسد فيهم . وكان قلبي يخفق لهذا ولذاك وللجميع معاً : كان مشغولاً ابداً . كانت اختي تأتي في المرتبة الاولى من حبي . وكانت تدرس في هذه الفترة فن الاعلان في احدى المؤسسات ، وكانت بذلك راضية . وفي احدى الحفلات التي أقامتها مدرستها ، تنكرت بلباس راعية وغنت أغاني فرنسية قديمة ، فوجدتها ساحرة باهرة . وكانت أحياناً تذهب إلى السهرة ، وحين كانت تعود شقراء موردة منتعشة ، في ثوبها

الازرق الجميل ، كانت غرفتنا تشع إشعاعاً . وكنا نزور معاً معارض الرسم ، وصالون الخريف ، ومتحف اللوفر ، وفي المساء كانت تعالج الرسم في مرسم بمونتمارتر ، وكنت غالباً ما أذهب لاصطحابها فنجتاز باريس ونحن نواصل الحديث الذي كنا قد بدأناه ونستمر فيه ونحن نأوي إلى فراشنا ونستيقظ في الصباح . وكانت تشارك في جميع صداقاتي وهوأياتي ورغباتي . ولم يكن هناك من أتعلق به معها سوى جاك . وكانت أقرب إليّ من أن تستطيع مساعدتي على الحياة ، ولكنني كنت أفكر بأن حياتي تفقد نكهتها من دونها . وحين كنت أدفع عواظفي إلى حدود الفاجعة ، كنت أقول اني سأقتل نفسي إذا مات جاك ، أما إذا اختفت أختي ، فاني لن أكون حتى بحاجة إلى أن أنتحر لأموت . وكنت أقضي أوقاتاً طويلة مع ليزا ، بسبب انها لم تكن لها أية صديقة . وقد طلبت مني ذات صباح ممطر من ديسمبر ان أصحبها إلى معيها ، ولكنني فضلت ان أعود إلى البيت لأعمل فرفضت . وحين وصلنا إلى ساحة ميديسيس ، كنت على وشك أن أفارقها لأستقل الاوتوبيس فقالت لي بلهجة غريبة : « حسناً ! سأروي لك يوم الخميس ما كنت أود أن أقول لك الآن . » فأرهفت اذني أقول : « بل تكلمي الآن . » فمضينا إلى اللكسمبورغ ، ولم يكن ثمة احد في الممرات المبللة فقالت لي : « لا تكرّري ما سوف أقوله : اسمعي ! انني أود أن اتزوج براديل ! » وجلست على خيط من الحديد ، عند كتيب من الأعشاب ، ونظرت اليها مشدوهة ، فقالت لي :

— انه يروق لي كثيراً ، بل لا يروق لي احد مثله !

وكانا يُعدّان شهادة واحدة في العلوم ، ويتابعان معاً دروس الفلسفة . ولم أكن قد لاحظت أي شيء عليهما حين كنا نخرج جميعاً ، ولكنني كنت أعرف ان براديل كان يُسقط الثنيات في حباله بنظرته الناعمة وبسمته اللطيفة . وكنت قد علمت من كليرو ان اثنتين على الاقل من

شقيقات اصدقائه كانتا مغرمتين به . وقد ظالت ساعة استمع إلى ليزا في الحديقة الخالية الاشجار التي تقطر الماء ، وهي تحدثني عن المذاق الجديد الذي أصبحت تجده للحياة . وكما كانت تبدو رخصة القامة في معطفها المخطّط ! ولقد رأيت ان وجهها ساحر تحت قبعته الصغيرة التي كانت تشبه برعم زهرة ، ولكنني شككت في أن يكون جمالها الجاف قليلاً قد أثر على براديل . وفي المساء ذكّرني ستيفان ان براديل كان قد لوى الحديث بلامبالاة حين كنا نتكلم يوماً عن وحدة ليزا وحزنها . وحاولت ان أسبر غوره ذات مساء ، وكان عائداً من حفلة زفاف ، فتناقشنا قليلاً ، وكان يجد سحراً لهذه الحفلات التي كنت اعتبرها منفرة ، إذ هي استعراض عام لقضية خاصة . وسألته عما إذا كان يفكر أحياناً بالزواج فأجابني :

— افكر فيه بغموض .

ولكنه لم يكن يأمل قطّ ان يستطيع ان يحب امرأة . لقد كان شديد التعلّق بأمه . وكان ينسى على نفسه بعض الجفاف حتى في علاقات الصداقة التي كان يعقدها . وحدثته عن تلك الالوان من فيض الحنان التي كانت أحياناً تصعد الدمع إلى عيني ، فهزّ رأسه وقال :

— إن هذا هو أيضاً مبالغ فيه !

ولم يكن هو يبالغ قط ، وراودتني الفكرة انه لن يكون من السير ان يحب . ومهما يكن من أمر ، فان ليزا لم تكن موضع اهتمامه وقد قالت لي إنه لم يكن يوجه إليها في السوربون أدنى عناية . وقضينا ساعات طويلة في حانة «الروتوند» ونحن نتحدث ذلك اليوم عن الحب وعن غرامياتنا . وكان يتصاعد من المرقص موسيقى جاز وتتهامس اصوات في الظل . وقالت ليزا :

— لقد اعتدت الشقاء . هكذا يولد الانسان !

والحق انها لم تحصل قط على شيء مما كانت تتمناه .

- ومع ذلك ، فليتني أستطيع أن أمسك هذا الرأس بين يدي ..
إذن لو وجدت تبريراً لكل شيء ، والى الابد !
وكانت تفكر في ان تطلب وظيفة في المستعمرات وان تسافر الى
سايجون او تانانريف .

وظلت أجد تسلية كبيرة مع ستيفا ، وحين كنت أصعد الى غرفتها
كنت دائماً أجد فرناندو ، وكان يطلعني على رسوم نسخها عن سوتين
وسيزان ، بينما تُعدّ هي بعض المشروبات . وكانت هذه النسخ تروقي
بالرغم من عدم اتقانها ، وكان يعجبني انه كان يكرس حياته كلها
لرسم ، دون ما اهتمام بالمادة . وكنا نخرج أحياناً نحن الثلاثة . وكانت
ستيفا تدعوني ، حين أخرج من المعهد ، لتناول الطعام في أحد
المطاعم ، وقد سألتني يوماً عما اذا كنت أنصحها بأن تتزوج فرناندو ،
فأجبتها بالإيجاب لأنني لم أر رجلاً وامراً على مثل ما كانا عليه من التفاهم
النام ، فكاننا يستجيبان للمثل الاعلى في نظري . وترددت كثيراً :

- ان في الدنيا كثيراً من الاشخاص « المهمين » .
فأزعجتني تلك الكلمة ، فاني لم أشعر بأية جاذبية تجاه أولئك
الرومانين أو البلغاريين الذين كانت ستيفا تلعب معهم لعبة « صراع
الاجناس » . وكانت « شوفينيبي » تستيقظ أحياناً . وقد تناولنا الغداء
يوماً مع طالب ألماني ، في المطعم المقام داخل المكتبة ، فأخذ يتكلم عن
عظمة بلاده بلهجة استعدادية . ففكرت فجأة : « ربما تقايل يوماً مع
جارك أو مع براديل . » وأخذتني الرغبة في أن أغادر المائدة .

على اني عقدت صداقة مع الصحفي الهنغاري الذي اقتحم حياة ستيفا
في أواخر ديسمبر . وكان ذاقامة طويلة وجسم ممتلئ ، ولم تكن
بسمته جذابة . وكان يتكلم ببشاشة عن الأب الذي تبناه والذي كان
مدير أكبر مسرح في بودابست . وكان يشغل بكتابة رسالة عن الدراما
الفرنسية ، ويبيدي اعجابه الشديد بالثقافة الفرنسية .. وكان يثور اذا رأى

ستيفا تتحدث مع روماني ، وكان سريع الغضب ، ترتجف يسداه
وتخفق رجله الأرض ويتمم . وكان يزعجني بما كان فمه الكبير يدير
من كلمات : اللطف والجمال والرقّة . غير أنه لم يكن بليد الذهن ، بل
كنت أستمع بفضول الى آرائه عن الثقافات والحضارات . ولكنني بالاجال
لم أكن أتذوق حديثه الا بتدر ، وكان هذا يغيظه ، وقد قال لي
يوماً :

– ليتك تعلمين كم أنا خفيف الروح باللغة الهنغارية !
وحين حاول أخيراً أن يتوسطني ليلقي الحظوة لدى ستيفا ، أهملت
مطلبه ، فقال بصوت تقطر منه الكراهية :
– ان هذا سخيف ! إن جميع الفتيات تحب ان تتوسط حين
تكون إحدى صديقاتهن في مأزق . «
فأجبتة بجفاف :

– إن حبك لستيفا لا يؤثر فيّ ، لأنه نوع أناني من الامتلاك
والسيطرة . والحق اني أشك في متانته . فهل أنت مستعد لبناء حياتك
معها ؟

فارتعشت شفتاه وقال :
– اذا أعطوك تمثالاً صغيراً ، هل ترمينه أرضاً لثري اذا كان
ينكسر أم لا ؟
فلم أخف على باندي – وكان هذا اسمه – اني كنت حليفة
فرنان في هذا الأمر . فأجابني باندي :
– اني أحقر فرنان هذا ! انه قبل كل شيء يهودي !
فأغاظتني هذه الحجة .

وكانت ستيفا تشكو منه كثيراً ، وكانت تجده لامعاً أكثر مما
ينبغي بحيث لا بد ان يحاول السيطرة عليها ، ولكنه كان يلاحقها
بالحاح شديد . وقد لاحظت بهذه المناسبة اني كنت ساذجة ، كما

كانت تقول .

وذهبت ذات مساء مع جان مالميه الى مسرح الشانزليزيه ، فرأيت هناك ستيفا جالسة وعلى مقربة منها باندي يضمها عن كسب وهي لا تمتنع عليه . وكان مالميه يحب ستيفا كثيراً ويشبه عينيها بعيني نمر لُقح بالمورفين ، فعرض ان يذهب لنسلم عليها . وابتعد الهنغاري عنها وابتسم لي من غير ارتباك . وفهمت أنها كانت تعامل الراغبين فيها برصانة أقل من التي أوحتها لي ، فأخذت عليها ما اعتبرته تضليلاً لأنني لم أكن أفهم شيئاً من شؤون المغازلة . وقد سررت جداً حين قررت أن تزوج فرنان ، وعند ذلك بدأ باندي يضايقها ويلاحقها حتى غرفتها ، ثم هدأ . وانقطعت عن المجيء الى المكتبة الوطنية . ودعاني هو مرة أخرى الى تناول القهوة في مقهى ولكنه كفّ عن ان يحدثني عنها . ومضى يعيش في فرنسا مراسلاً لجريدة هنغارية . وبعد عشر سنوات لقيته في « الدوم » عشية اعلان الحرب . واخبرني انه سيلتحق في اليوم التالي بفرقة مؤلفة من المتطوعين الأجانب ، وأودعني شيئاً كان يحرص عليه كثيراً : ساعة زجاجية كروية الشكل . وصارخني بأنه كان يهودياً وأنه ابن زنا وأنه كان ذا رغبة جنسية خاصة : فانه لم يكن يحب النساء اللواتي تزن احداهن أكثر من مئة كيلو . أما ستيفا ، فقد كانت في حياته شيئاً شاذاً : وكان قد تأمل أن تمنحه ، بالرغم من صغر قامتها ، شعوراً بالامتلاء بفضل ذكائها . ولقد ابتلعت الحرب ولم يرجع لاستعادة ساعته .

٣

كسبت لي زازا من برلين رسالة طويلة قرأت مقتطفات منها على ستيفا وبراديل . وقد وضعت قدمها على أرض الأعداء في كثير من الكراهية :

كان وصولي الى « فيوبيل هوسبز » يدعو الى الرثاء . فقد كنت انتظر أن أرى فندقاً للسيدات ، فوجدت سرايا كبيرة مملأى بالألمان المحترمين ، وحين دخلت غرفتي أعطتني الخادمة سلسلة من المفاتيح لجميع أقفال خزائن الغرفة والابواب الخارجية للفندق في حالة ما اذا كنت أرغب في العودة بعد الساعة الرابعة صباحاً . وكنت تعباً جداً من السفر ، ومدعورة من مدى حربي وضخامة برلين ، حتى اني لم أملك الشجاعة للهبوط من أجل العشاء ، واستغرقت في سرير غريب لم يكن عليه الا وسادة ، فجعلت أجنف بها دمعي . ونمت ثلاث عشرة ساعة ثم قصدت كنيسة كاثوليكية للقداس ، وأجلت بعدها فضولي عسير الشوارع واستعدت توازني عند الظهر . ومنذ ذلك اليوم وأنا أعود شيئاً فشيئاً وتراودني لحظات أشعر فيها بحاجة عجيبة إلى أسرتي واليك وإلى باريس ، ولكن حياة برلين تروق لي ، وأنا لا ألاقي أية صعوبة مع أحد ، وأشعر أن الاشهر الثلاثة التي سأفضيها هنا ستكون طريفة جداً .

ولم تجد صداقات لها في الجالية الفرنسية التي كانت تتألف من الدبلوماسيين فقط ، ولم يكن في برلين الا ثلاثة طلاب فرنسيين . وكان الناس يجدون أمراً عجباً أن تأتي زازا الى برلين لتقضي فيها ثلاثة أشهر وتتابع بعض الدروس .

« وقد سلمني القنصل رسالة توصية الى معلم الماني انهاها بعبارة طريفة حقاً : أرجوك بكل حرارة ان تشجع بادرة الأنسة مايل . فكأنني كنت أخلق فوق القطب الشمالي ! » ثم قررت ان تشق لها طريقاً بين السكان المحليين .

« تعرّنت يوم الاربعاء على مسارح برلين ، وكان مرافقي في ذلك شخصاً له قصة غريبة . تصوّري اني رأيت مدير الموسيز الرجل الكهل الهر بولاك يقرب مني حوالى الساعة السادسة ويقول لي ببسمة لطيفة : - ايتها الأنسة الفرنسية الصغيرة ، هل تريدن أن تصحبيني الى المسرح هذا المساء ؟

ودهشت أول الأمر فسألته عن أخلاقية المسرحية ، ثم لاحظت هيئته الرصينة فعزمت على القبول . وفي الساعة الثامنة ، كنا نسير في شوارع برلين ونحن نتحدث كأننا صديقان قديمان . وكلما كان الأمر يحتاج إلى دفع شيء ، كان المهر بولاك يقول في لطف : « هذا بالمجان ، فانت ضيفتي » وقد قال لي بعد الفصل الثالث - وكان قد شرب فنجاناً من القهوة أطلق لسانه - إن زوجته ترفض دائماً أن تصحبه إلى المسرح وان ذوقها يختلف كل الاختلاف عن ذوقه ، وانها لم تحاول قط أن ترضيه طوال خمسة وثلاثين عاماً من الزواج ، الا منذ عامين ، لأنه كان على وشك أن يموت ، وأضاف يقول لي « ولكن لا يستطيع المرء ان يكون دائماً على وشك الموت ! » وقد تسليت معه كثيراً ، وبعد انتهاء المسرحية ، أصر أن يدعوني الى العشاء .

وضحكت أنا وستيفا ونحن نفكر بأن السيدة ماييل انما فضلت أن تنفي زازا على ان تسمح لها بالاشترك في لعبة للتنس مع الشباب ، وها هي ذي الآن تخرج وحدها مساء مع رجل : مع مجهول ، غريب ، ألماني ! وانتعشت زازا في الايام التالية ، فأخذت تتابع الدروس في الجامعة وتتردد الى المسارح والمعارض والمتاحف وتتعرف على الطلاب وعلى صديق لستيفا اسمه « هانس ميلر » كانت قد أعطتها عنوانه . ولقد وجدها أول الأمر شديدة الرصانة والتكلف فقال لها ضاحكاً :

- انك تأخذين الحياة وأنت تلبسين قفازين من جلد الماعز الثلج ! فتأملت لذلك كثيراً ، وقررت ان تنزع قفازيها .

« اني أرى كثيراً من الاشخاص الجدد ، ومن الاوساط والبلاد المختلفة عن أوساطنا وبلادنا حتى اني أشعر بأن جميع عاداتي المألوفة لتخلتني عني فلا أعرف اذا كنت قد انتميت حقاً الى وسط معين ، وأي هو . ويتفق لي أن أتناول طعام الفطور في السفارة مع أشخاص مشهورين في السلك الدبلوماسي ومع سفيرات البرازيل أو الارجنتين ، ثم

أتناول العشاء وحدي في مطعم « أشنجر » الشعبي جداً حيث تزدهم المرافق . اني لست مسجونة في أي فريق ، ولا يأتي أي سبب بليد ليمنعني فجأة من أن أعمل شيئاً يهمني ، وليس هناك شيء مستحيل أو غير مقبول ، واني أتقبل بدهشة واعجاب وثقة جميع ما يحمله لي كل يوم جديد من أمور غير منتظرة . وفي البدء ، كانت تشغلني هموم شكلية فأسأل الناس « ما الذي يُعمل » و « ما الذي لا يُعمل » وقد ابتسم الناس وأجابوني : « إن كل انسان يعمل ما يروقه » فاستفدت من هذا الدرس . وهأنذا الآن اردأ من طالبة بولونية ، فأنا أخرج وحدي في كل ساعة من ساعات النهار أو الليل ، وأذهب الى الحفلات الموسيقية مع هانس ميلر ، وأتتره معه حتى الساعة الواحدة صباحاً . ويبدو أنه يجد هذا أمراً طبيعياً جداً حتى اني أخجل أحياناً من أن أشعر بالدهشة بسبب هذا . »

وتغيرت أفكارها كذلك ، فذابت « شوفينيتها » .

« إن أكثر ما يدهشني هنا الدعوة الى السلام ، بل نزعة جميع الالمان الى ادعاء الصداقة الفرنسية . وقد حضرت منذ أيام فيلماً ذا نزعة سلمية يصور فظائع الحرب : وكان الجميع يصفقون ، ويبدو ان الجوقة الموسيقية قد عزفت في السنة الماضية نشيد المارسيلياز بمناسبة عرض فيلم « نابوليون » الذي نجح نجاحاً عظيماً . وقد كنت أفقر من الدهشة لو قيل لي قبل أن أترك باريس ان بإمكانني أن أحدث ألمانياً عن الحرب بدون انزعاج . وفي ذلك المساء حدثني هانس ميلر عن الفترة التي كان فيها معتقلاً وأنهى كلامه بقوله : « ربما كنت صغيرة جداً ، فأنت لا تتذكرين ذلك ولكن ذلك العهد كان مريعاً ، في الجانبين ، وينبغي ألا يعود ! » وكنت أحدثه يوماً ما عن كتاب « سيفريد والليموزين » وأنصحته بقراءته فسألني قائلاً « أهو سياسي » أم « انساني » ؟ لقد

تحدثوا الينا مطولاً عن الأمم والاجناس ، فليحدثونا الآن عن الانسان عامة ! وأعتقد ان هذا اللون من التفكير منتشر جداً في أوساط الشبيبة الألمانية . »

وقضى هانس ميلر أسبوعاً في باريس ، وخرج مع ستيفا وأخبرها ان صديقتها زازا قد تغيرت كثيراً منذ وصولها الى برلين . وقد زار أسرة ماييل ذات يوم ، فاستقبل بفتور ، وعجب من الهوة التي تفصل زازا عن باقي اسرتها . وكان وعيها بذلك ، هي أيضاً ، يعمق يوماً بعد يوم . وكتبت لي أنها بكت من فرط السعادة حين لمحت أمها على باب القطار ، اذ أتت لرويتها في برلين ، ومع ذلك فقد كانت فكرة العودة الى منزلها تُرعبها . وكانت أختها ليلي قد قبلت أخيراً بأن تتزوج استاذاً ، وكان البيت آنذاك ، على ما روى هانس ميلر ، متلوباً عاليه أسفله . وقد كتبت زازا على ذلك معلقة تقول :

« أعتقد ان الجميع في البيت مشغولون بتجهيزات العرس وتقبل التهاني والهدايا والخاتم والجهاز ولون ثياب أنسات الشرف ... وهذا الصخب كله لا يوحى لي بأية رغبة في العودة الى البيت ، فقد بدأت أفقد عادة هذا كله ، أنا هنا أعيش حقاً حياة حلوة هامة ... وإذ أفكر بعودتي ، فانما أحس بسعادة كبيرة لألفاك ثانية . لكنني أصارحك بأن الرعب يأخذني اذ أتصور اني أستعيد حياتي التي كنت أعيشها منذ ثلاثة أشهر . لقد غدوت لا أطيق الطابعية التي يعيش عليها معظم أفراد وسطنا . »

ولست أدري اذا كانت السيدة ماييل تدرك ان هذا المكوث في برلين لم يوت النتيجة التي كانت تتوقعها ، ومهما يكن من أمر ، فقد كانت تهيب نفسها لاستعادة ابنتها تحت إشرافها . وقد لقيت أمي نفي إحدى السهرات ، وكانت بويت بصحبتها ، فحدثتها بجفاف . ولفظت أمي اسم ستيفا ، فقالت لها السيدة ماييل : « أنا لا أعرف ستيفا ،

وانما أعرف الآنسة أفديكوفتش التي كانت مربية لاولادي . «
ثم أضافت تقول :
- انك تربين سيمون كما تشائين . أما أنا ، فان لي مبادئ
المختلفة .

ثم عادت تشكو من تأثيري على ابنتها وانتهت الى القول :
- من حسن الحظ ان زازا تحبني كثيراً .

٤

في ذلك الشتاء ، أصيب معظم سكان باريس بداء « الكريب » .
وقد كنت ما أزال في فراشي حين عادت زازا الى باريس ، فجلست
بالقرب من سريري وأخذت تصف لي برلين والأوبرا والحفلات الموسيقية
والمتاحف . وكانت قد سمت وتلون وجهها : وقد دهش براديل
وستيفا ، مثلي ، بما أصابها من تغير . وقلت لها ان تحفظها في شهر
أكتوبر كان قد أفلقي ، فأكدت لي بمرح انها قد استبدلت بجلدها
جلداً جديداً . ولم يقتصر هذا التغير على كثير من أفكارها ، ولكنها
كانت تفيض حيوية بدلاً من أن تمضي في التفكير بالموت ونشدان الزهد .
وكانت تأمل ان يؤدي ذهاب أختها الى تسهيل حياتها في البيت الى حد
كبير . على أنها كانت مشفقة على مصير ليبي ، ذلك ان السيدة مايل
قالت لها :

- هذا هو حظك الأخير !

فهرعت ليبي تستشير جميع صديقاتها ، فنصحتها بالقبول المتزوجات
الخاضعات والعزباوات اللواتي ينشذن الزواج .. وقد انقبض قلب زازا
حين سمعت حديث الخطيبين . ولكنها كانت على يقين ، من غير أن
تعرف السبب ، بان مثل هذا المستقبل لن يهددها أبداً . وكانت آنذاك

تهم بالتدرب على كتابها وتقرأ كثيراً وتثقف نفسها . وكانت تنوي ترجمة رواية لستيفان زفايغ . ولم تكن أمها تجرؤ على ان تسترد منها حريتها بطريقة قاسية ، فسمحت لها أن تخرج مرتين أو ثلاثاً معي في المساء . وقد حضرنا حفلة موسيقية استمعنا فيها الى « الامير ايغور » وقد قامت بتمثيلها فرقة الاوبرا الروسية . كما حضرنا أول فيلم لآل جونسون « مغني الجاز » ... وبينما كنت أشغل في مكتبة السوربون ، كنت غالباً ما أشعر بيد ذات قفاز تستريح على كتفي ، ثم أرى زازا تبسم لي ، فأذهب معها الى حيث نتناول فنجاناً من القهوة أو نقوم بنزهة . ومن سوء حظي انها ما لبثت أن سافرت الى « بايون » حيث ظلت طوال شهر الى قرب ابنة عم لها مريضة .

واشتقت لها كثيراً . وكانت الصحف تقول ان باريس لم تعرف منذ خمسة عشر عاماً ما عرفته تلك الأيام من برد قارس . وكان نهر السين مجلداً في عدة أماكن ، فانقطعت عن التنزه وانصرفت الى الكتب لأنهي دبلومي ، وكنت أحرر بحثاً عن « هيوم » و« كانت » لاقدمه الى أستاذ يُدعى « لابورت » . وكنت ألزم مقعدي من التاسعة صباحاً حتى السادسة مساء في المكتبة الوطنية ، ولا أكاد آخذ أكثر من نصف ساعة لآكل رغيف ساندويتش ، وكان يتفق لي أن أنعس بعد الظهر فأنام أحياناً . وكنت أحاول مساء ، اذ أعود الى البيت ، أن أقرأ غوته وسرفانتس وتشيكوف وسترانديبرغ ، ولكنني كنت أشعر بالصداع . وكان التعب يبعث في أحياناً رغبة البكاء . ثم ان الفلسفة كما كانوا يطبقونها في السوربون لم تكن تحمل أيّ عزاء . كان « برييه » يعطي محاضرات ممتازة عن الرواقين . أما برنشفيك فكان يكرر كلامه . وكان لابورت يحطم جميع الانظمة باستثناء نظام هيوم ، وكان أصغر أساتذتنا وكان له شاربان صغيران ، وكان يتبع النساء في الشارع . وقد حدث يوماً أن لاحق فتاة ، وحين حاذاها تبين انها كانت احدى طالباته . ورد

لي بجثي مع علامة متوسطة ، وتعليقات ساخرة لأنني كنت قد فضّلت «كانت» على هيوم . وقد دعاني الى بيته ليحدثني مطوّلاً عن بجثي ، وهناك قال لي ان البحث يتميز بمزايا كبيرة ولكنه لا يوحى بالود ، والاسلوب غامض وعميق بصورة مزيفة بالنسبة لما يمكن ان يقال نفسي الفلسفة . ثم أخذ ينحت من أثلة جميع زملائه ، ولا سيما برانشفيك ، ثم استعرض الاساتذة القدامى . إن الفلاسفة القدامى ساذجون . وسينوزا شيطان رجيم ، وكانت كذّاب . يبقى هيوم . واعترضت بأن هيوم لا يحلّ أية مشكلة من المشاكل العملية ، فهزّ كتفيه وقال بلا اكتراث : — ان الشيء العملي لا يطرح مشاكل ! كلا .. ولا ينبغي أن نرى في الفلسفة إلا تسلية ، ويحق للناس ان يفضلوا عليها أشياء أخرى . فسألته :

— هل هذا يعني ان الامر لا يتعدى أن يكون من المواضعات ؟ فقال لي بغیظ واضح هذه المرة :

— كلا يا آنسة ! انك حقاً تبالغين ! أنا أعلم ان التشكك ليس اليوم موضحة منتشرة ، ولكن اذهبي فأبجثي عن نظرية أكثر تفاؤلاً من نظريتي !

ورافقتني حتى الباب ، ثم قال لي بلهجة اشمئزاز :

— حسناً ! تشرفنا ! لا بد ان تنجحي في « الاغريغاسيون » . وعادت اليّ الكآبة ، فحاولت أن أثور عليها . ولكن ستيفا كانت تُعدّ جهازها وترتّب بيتها ، فلا أكاد أراها . وكانت أختي كالحجة الوجه ، وليزا يائسة ، وكليرو بعيداً وبراديل شبيهاً لنفسه دائماً ، وكان « ماليه » قد سقط في دبلومه . وحاولت أن أهتم بالآنسة رولان ، وبرفيقات وغيرها ، فلم أفلح . وذات يوم ، قمت طوال بعد الظهر ، عبر أروقة متحف اللوفر ، برحلة كبيرة من أشوريا الى مصر ومن مصر الى اليونان ، وحين خرجت كان المساء مبلاً . ورحت أجرجر

نفسي بلا فكرة ولا حب . وأحسستني أحقر نفسي . وكنت أفكر
بجاءك من بعيد ، كأني أفكر بكبرياء ضائعة . وعادت سوزان بواغ من
مراكش فاستقبلتني في بيت مشرق . كانت محبوبة وسعيدة ، وكنت
أحسدها . وكان أشد ما يثقل عليّ أن أحسستي وقد تقلصت ونقصت .
« يخيل اليّ اني خسرت كثيراً ، والاسوأ من ذلك اني لم أكن متأثرة
بذلك . انني ساكنة جامدة ، مدفوعة بالمشاغل وبأحلام اللحظة . ليس
فيّ شيء ملتزماً بشيء ، ولست متعلقة بفكرة ولا بعاطفة من هذا
المكان الضيق القاسي الذي ربطني طويلاً بأشياء كثيرة . انني أهتم بكل
شيء » بتندر « آه ! انني متعلقة الى حد اني لا أشعر بقلق وجودي .
وكنت متعلقة بأمل أن ذلك كان مؤقتاً ، فاذا انتهت من المباراة بعد
أربعة أشهر فبوسعي أن أعود الى العناية بحياتي ، وسأواصل كتابة روايتي
ولكني وددت لو يأتي عون من الخارج : رغبة في عاطفة جديدة ،
في مغامرة ، في أي شيء آخر ! »

كانت شاعرية الخانات قد بهتت وباحت . ومع ذلك فقد كنت لا
أطبق البقاء في البيت بعد نهار أفضيه في السوربون أو في المكتبة الوطنية
فأين أذهب ؟ وعدت أذرع من جديد شوارع مونبارناس ، مرة مع
ليزا ، ومرة مع ستيفا وفرنان . وكانت أختي قد صادقت رفيقة لها
في المدرسة ، فتاة في السابعة عشرة ، مرنة وجريئة ، وكانت أمها
تدير حانوتاً للحلويات ، وكانوا يدعونها « جيجه » وكانت تخرج بكل
حرية . وكنت ألقاها غالباً في « الدوم » . وعزمتنا ذات مساء على ان
نقصد ملهى « الغابة » الذي فتح قبالة « الجوكي » ولكن المال كان ينقصنا
وقالت جيجه :

— لا بأس ! انتظرينا هناك .. فسوف نتدبر أمرنا !

ودخلت وحدي الى الملهى واتخذت مكاناً لي على المشرب . وكانت
بوبيت وجيجه جالستين على أحد مقاعد الشارع تتناون وتقولان بصوت

مرتفع : « من يظن أنه لا ينقصنا الا عشرون فرنكاً ! » ومرّ رجل
ولا أدري ما الذي روتاه له ، ولكن الذي أدريه أنها ما لبثتا أن تسلقتا
على المقعد الى مقربة مني . لقد كانت جيجه بارعة في خداع الرجال :
وفي الملهي ، دعانا البعض للشرب والرقص . وكانت هناك قزمة تغني
وتسرد الأقوال المأجنة القبيحة وهي ترفع ثوبها ، وتكشف عن ساقها
وتروي كيف كان عشيقها يعرضها . وكان ذلك منعشاً على نحوٍ ما .
وذات مساء آخر ، التقيت على مشرب « الجوكي » ببعض معارفي
القدماء الذين جعلت أتذكر معهم مباحج الصيف الماضي . وكان
هناك طالب سويسري معتاد على المكتبة الوطنية ، فأخذ يغالني على
عجل ، فشربت وتسلّيت . وفي الليل ، بعد ذلك سألتني طيب شاب
كان يراقب طاولتنا عما اذا كنت أقصد ذلك المكان لأقوم بدراسة
للأخلاق . وحين ذهبت أختي ، عند منتصف الليل ، هنأني على
رصانتها ، ولكنه أخذ على جيجه أنها ما تزال صغيرة لتتردد على المراقص.
وحوالي الساعة الواحدة عرض علينا ان يوصلنا الى بيوتنا في سيارة أجرة ،
فرافقنا جيجه أولاً الى بيتها ، ثم تسلّى بما كنت أعانيه من ضيق في
الطريق اذ كنت وحدي معه . وغرّني اهتمامه بي . وهكذا كان
يكفيني لقاء ، أو حادث غير منتظر ليردّ لي هدوء مزاجي . غير أن
السرور الذي كانت تخلّفه في نفسي هذه المغامرات الصغيرة لا يشرح
كوني قد سقطت مجدداً تحت اغراء الحانات والملاهي . وأدهشني ذلك :
« جاز ، نساء ، رقص ، كلام قدر ، خمر ، مداعبات : كيف لي
ألا أغتاز من ذلك ، ولكني مع ذلك أقبل هنا ما لا أقبله في أي
مكان آخر ، وأمزح مع الرجال ؟ كيف أستطيع ان أحب هذه
الأشياء ذلك الحب الشديد الذي يأتيني من بعيد ويملك عليّ أمري ؟ ما
الذي أبحث عنه في هذه الأمكنة ذات السحر المريب ؟ »
وبعد أيام ، تناولت الشاي مع الآنسة رولان التي كنت معها

بضجر كبير . وحين فارقتها ذهبت الى ملهى « الاوروبى » فجلست بأربعة فرنكات في مكان بالبلكون كنت أجد فيه الشبان والفتيات يتعاقبون ويتبادلون القبل ، وكانت هناك فتيات معطرات تأخذهن النشوة حين يستمعن الى المغني ، ورجال يتبادلون المزاح الثقيل . ولكني أنا أيضاً أنفعل وأضحك وأحسني مسرورة . لماذا ؟ وردت طويلاً جادة « بارييس » ، فكنت أرى المومسات والقوادين لا بنظرة نفور ، بل بنظرة غيرة وحسد . ودُهشت مجدداً : « ان في رغبة شيطانية - حاضرة منذ زمن - للضجة والصراع والوحشية والغوص في الدوامة . فإذا ينقضي اليوم ، أنا أيضاً ، لكي أصبح مدمنة على المورفين والخمر ، ولا أدري ماذا أيضاً ؟ ربما لم أكن بحاجة الى أكثر من فرصة ، أو الى مزيد من الجوع الى ما لن أعرفه ابداً ... »

وكان الرعب يأخذني أحياناً من هذا « الفساد » وهذه « الغرائز المنحطة » التي كنت أكتشفها في . وما عسى أن يفكر براديل الذي كان يتهمني من قبل بأني كنت أعلّق على الحياة أكثر مما ينبغي من النبل ؟ لقد كنت آخذ على نفسي النفاق والرياء ، ولكني لم أكن أفكر بأن أنكر نفسي « اني أريد الحياة ، الحياة كلها . وأشعر اني فضولية نهمة ، نهمة الى أن أحترق بأعنف من أية فتاة أخرى ، مهما كان اللهب الذي يحرقني ! »

وكنت على قاب قوسين من أن أعترف لنفسي بالحقيقة : لقد ضجرت من كوني فكراً محضاً . وليس مردّ ذلك أن الشهوة كانت تعذبني ، كما كان الأمر على عتبة البلوغ ، ولكني كنت أهدس بأن عنف الجسد وفجأته كان يمكن ان ينقذاني من التفاهة الأثرية التي كنت أجفّ فيها . ولم يكن وارداً أن أحقق تجربة الجسد ، فان آرائي كانت تمنعني من ذلك ، وكذلك عاطفتي لجاك . وكنت أزداد كرهاً للكاثوليكية ، وكنت أرى ليزا وزازا تتخبطان ضدّ هذا « الدين

المعذب « ، فأسرّ لكوني قد أفلت منه . والواقع اني ظلت ملطخة به ، فان المحرمات الجنسية كانت ما تزال تحيا الى حدّ أن أزعّم أن باستطاعتي أن أصبح مدمنة مورفين أو خمر ، ولكن لم أكن أفكر بالخلاعة أو الدعارة . - ولقد احتججت على أخلاقية غوته كما بدت لي من كتبه ومن الكتاب الذي ألفه عنه لديغ : « تؤذيني تلك المرتبة المخصصة بكل هدوء لحياة الحسّ ، بلا تمزّق ولا قلق . إن أردأ الفسق يهزني اذا كان يشبه فسق جيد الذي كان يبحث عن غذاء لفكره أو دفاع . أما غراميات غوته فقد كانت تؤذيني . » فاما ان يتحد الحب الجسدي مع الحبّ المحض ، وفي هذه الحالة بمضي كل شيء من تلقاء نفسه ، وإما أن يكون سقوطاً مفاجئاً ، ولم أكن أملك أن أتردّي فيه.

٥

لا شك في أنني فتاة تتأثر شديد التأثير بتبدّل الفصول . فعند أول أنفاس الربيع ذلك العام انتعشت وتمددت وتنسمت بلذة رائحة القطران الحارّ . ولم أتكاسل ، فقد كانت المباراة تقرب ، وعليّ كثير من الاعمال التي لا بدّ من انجازها . ولكن التعب كان يفرض عليّ فترات راحة كنت أفيد منها لأتنزّه مع أختي على ضفاف المارن وعدت أجد اللذة في محادثة براديل تحت أشجار الكستناء في اللكسمبورغ . واشتريت قبعة صغيرة حمراء أثارت ضحك ستيفا وفرنان ، واصطحبت أبي وأمي الى « الأوروبي » واشترى لنا أبي مثلجات في مقهى « وبلر » ، وكانت أمي تصحبني غالباً الى السينما . وحين عادت زازا من بايون ذهبنا الى اللوفر لزيارة القاعات الجديدة للرسم الفرنسي ، ولم أكن أحب « مونيّه » وكنت معجبة برينوار الى حدّ ، غير أنني كنت شديدة الاعجاب بمانيه ، ولا سيما سيزان لأنني كنت ألمس في لوحاته « نزول

الفكر الى القلب المحسوس . وكانت زازا تقاسمني ذوقى . وقد حضرت حفلة زفاف أختها من غير ملل كبير . وفي عطلة الفصح ، قضيت كل أيامي في المكتبة الوطنية ، والتقيت هناك كليرو الذي كنت أجده متحذلقاً بعض الشيء ، ولكنه كان مع ذلك يثير اهتمامي .. أياكون هذا الرجل القصير الجاف الأسود قد عانى حقاً من «سلطة الجسد المفجعة» ؟ كان مؤكداً على أي حال أن هذا الموضوع يشغله ، وقد تحدث أكثر من مرة عن مقال مورياك . أي قدر من الشهوانية يمكن لزوجين مسيحيين ان يسمحا به لنفسهما ؟ وللخطيين ؟ وقد طرح هذا السؤال مرة على زازا التي غضبت وأجابته:

— هذه مشكلات تعني الفتيات البائرات ورجال الدين ! وبعد أيام روى لي أنه اجتاز هو نفسه تجربة مؤلمة . فقد عقـد في أوائل السنة ، على أخت أحد رفاقه ، وكانت معجبة به إلى حد بعيد ، وكانت ذات طبيعة عاطفية ، ولولا أنه حدث من ذلك الاندفاع ، لما كان الا الله يعلم إلى اين عساه يقودهما ! وكان قد أوضح لها ان عليها ان تحتفظ بنفسهما إلى ليلة العرس ، وانه ، في انتظار ذلك ، لا يُسمح لهما بغير قبلات بريئة . وأصرّت هي على ان تعطيه فمها ، وأصرّ هو على رفضه ، وانتهى بها الأمر إلى كرهه وإلى فسخ خطبتها معه . وكانت هذه الهزيمة تستولي عليه في الظاهر . فأخذ يتفلسف حول الزواج والحب والنساء باندفاع غريب . وقد رأيت هذه القصة مضحكة، وذكّرني بقصة سوزان بواغ ، ولكن غرتي انه قد أسرها لي . وحين انتهت عطلة الفصح ، وجدتي فرحة وسط رفاقي في حدائق مدرسة النورمال المزدهرة . وكنت أعرفهم كلهم تقريباً . ولكن عصبية سارتر ونيزان وهيربو بقيت مغلقة دوني باحكام . وكانوا لا يتعاطون مع أحد ، ولا يحضرون إلا بعض المحاضرات المختارة ويجلسون مبتعدين عن الآخرين . وكانت لهم سمعة سيئة ، وكان يقال أنهم كانوا بحاجة

إلى الودّ تجاه الأشياء ، وكانوا ينتمون إلى عصابة مؤلفة في أكثريتها من تلاميذ قدامى لألين ومعروفة بتوحّشها : فقد كان أعضاؤها يلقون قنابل مائية على طلاب الثورمال البارزين الذين كانوا يعودون ليلاً وهم يرتدون السموكنج . وكان نيزان متزوجاً وكان قد سافر كثيراً ، وكان يلبس بنطلون غولف وكنت ألس وراء نظارتيه نظرة مخيفة . ولم تكن هيئة سارتر سيئة ، ولكن كان يقال إنه أردأ الثلاثة وكانوا يتهمونـه بالشرب . وكان هربو وحده يبدو لي جديراً بأن يعاشر . وكان يتجاهلني إذا كان بصحبة سارتر ونيزان . أما إذا لقيته وحده ، فكنا نتبادل بعض الكلمات .

وكان قد قدّم في كانون الماضي حديثاً في أثناء درس برانشفيك ، وفي أثناء المناقشة التي تلت سلّى جميع الناس . وقد سحرني بصوته الساخر وتقطيعته المستهزئة . وكان نظري يستريح برضى على وجهه المورد الذي كانت تضيئه عينان زرقاوان طفوليتان . وكان شعره الأشقر غضاً كأنه العشب . وكان قد قدم إلى المكتبة الوطنية ذات صباح، فرأيت فيه شيئاً قروباً بالرغم من أناقة معطفه الأزرق وشاله الفاتح وبدلته الجميلة . وجاءتني فكرة الصعود إلى مطعم المكتبة الداخلي لأتناول الغداء ، على خلاف عادتي ، فأفسح لي مكاناً على طاولته بصورة طبيعية جداً كما لو اننا كنا على موعد . وكنا قد تحدثنا عن هيوم وكانت ، وكنت قد التقيت به خارج غرفة « لابورت » الذي كان يقول له بصوت تقدير : « إلى اللقاء ياسيد هربو » ، ففكرت بأسى انه سيد متزوج بعيد لن أهمه في شيء .

ورأيتـه بعد ظهر أحد الأيام يهبط شارع سوفلو يصحبه سارتر ونيزان ، وكان يعطي ذراعـه لامرأة ترتدي ثوباً رمادياً : فأحسنتي منفيّة . وكان وحده بين الثلاثة يحضر دروس برانشفيك . وقبل عطلة الفصح بقليل ، كان قد جلس بالقرب مني وحدثني عن كوكتو ،

فوجدته طريفاً وسرني ان اجد ، في السوربون ، من يحبّ كوكتو ،
وكان هيربو يجعلني ، بطريقة ما ، أفكر بجاك ، فقد كان هو أيضاً
يستبدل عبارة ببسمة ويبدو انه كان يعيش في عالم آخر غير عالم
الكتب . وكان بعد ذلك ، كلما دخل المكتبة الوطنية ، يحيني بلطف ،
فأتحرق شوقاً لأن أقول له شيئاً ذكياً ، ولكنني لا أجد شيئاً مع
الأسف .

وحين استؤنفت محاضرات برانشفيك بعد العطلة ، عاد يجلس
بالقرب مني . وأهداني « رسماً للمتخرج المتوسط » ورسوماً أخرى
وقصائد ، وصارخني فجأة بأنه كان فريداً ، فقلت له :

— وانا أيضاً ...

فتحصني بجزر وقال :

— انت ؟ ولكنني كنت أحسب انك كاثوليكية ومؤمنة بتوما

الاكويبي .

فاحتججت على ذلك ، وهنّأني على اتفاقنا ، ثم راح يمتدح أساتذتنا
السابقين : سيلا ، وباريس ، وستالندال ، والسيياد ، ولا أذكر كل
ما رواه لي ولكنه كان يسليني أكثر فأكثر . وكان يبدو عليه انه واثق
من نفسه تماماً وانه لا يتناول الامور على محمل الجدّ ، وهذا المزيج
من الرائع والساخر هو الذي سحرني . وحين ودّعني وهو يعدني
بمحادثات طويلة قادمة طرت من الفرح ، وكتبت في المساء : « إن له
نوعاً من الذكاء يستولي على قلبي . » وأحسست أنني كنت على استعداد
آنذاك لأن أتخلّي من أجله عن كلير وبراديل وماليه وجميع الآخرين
معاً . لا شك في انه كان يملك جاذبية التجديد ، وكنت أعلم اني كنت
أغترّ بسرعة . على انني دهشت لهذا الافتتان العنيف وكتبت أقول :
« لقاء مع اندريه هيربو ام مع نفسي ؟ أيهما كان أشدّ تأثيراً
عليّ ؟ لماذا أشعر بالانفعال كما لو ان شيئاً ما قد حدث لي ؟ »

لقد حدث لي شيء ما ، هو الذي قرّر لي حياتي كلها بطريقة غير مباشرة : ولكنني لم أعرف ذلك إلا فيما بعد .
ومنذ ذلك الحين ، جعل هيربو يتردّد بلا انقطاع على المكتبة الوطنية ، وكنت احتفظ له بالمقعد إلى جانبي . وكنا نتناول الغداء في مطعم قريب ، ولم تكن وسائلنا تسمح لي بأن آكل أكثر من « صحن النهار » ، غير انه كان يتكرم عليّ دائماً بالفاكهة . وقد دعاني ذات يوم إلى مطعم معتبر فتناولت فيه طعاماً بدا لي فخماً . وكنا ننزه في حدائق « الباليه رويال » ، فنجلس على حافة الحوض ونأمل الريح تتطاير الماء ، فيصيني منه رذاذ . وكنت اقترح عليه العودة إلى المكتبة لاستئناف العمل ، فيقول هيربو :

— لنذهب أولاً فنتناول القهوة . فبدونها لا نستطيعين العمل بهدوء ، وتمنعيني من القراءة .

ويصحبني إلى « بيكاردي » وبعد ان ارشفت آخر نقطة أنهض فيقول لي بشغف :

— وأسفاه ! يا للخسارة !

وكان هيربو ابن معلّم في جوار تولوز ، وكان قد قصد باريس ليعدّ شهادة التعليم ، فتعرّف على سارتر ونيزان وحدثني عنهما طويلاً : وكان معجباً بنيزان لتميّزه اللامبالي . ولكنه كان أشدّ ارتباطاً بسارتر الذي كان يصفه بأنه انسان هام جداً . أما زملاؤنا الآخرون ، فكان يحقّرتهم جملة وتفصيلاً ، وكان يجد كليرو مدعيّاً غليظ الظل ولم يكن يحبّه قط .

واقترب مني كليرو ذات يوم ، وفي يده كتاب ، فسألني بصوت محقّق :

— ما رأيك يا آنسة بوفوار بما يقوله « بروشار » من ان إله ارسطو يشعر باللذة ؟

ونظر اليه هيربو بضيق ، ثم قال باستعلاء :
« - اني ارجو له ذلك ! »

وكنا في الايام الأولى نتحدث خصوصاً عن العالم الصغير الذي كان مشتركاً بيننا : رفاقنا وأساتذتنا والامتحانات . وكان يسرد لي عناوين الموضوعات المطروحة للمسابقة : « من هو الاديب الذي تفضله من أدباء المنهاج ، ولماذا ؟ » - « الروح والجسم : اوجه الشبه والاختلاف ، المزايا والنقائص . » والواقع انه لم تكن له بالسوربون والمكتبة الوطنية الا علاقات بعيدة ، فان حياته كانت في مكان آخر . وقد حدثني عنها قليلاً . حدثني عن زوجته التي كانت تجسّد في نظره جميع مفارقات الانوثة ، وعن روما التي قضى فيها شهر العسل ، وعن « الفوروم » الذي اثر فيه حتى ذرف الدمع ، وعن نظامه الأخلاقي ، وعن الكتاب الذي كان يود ان يؤلفه . وكان يتحمّس لسباق الدراجات أو لسريّ بوليسي . وكان يبدوخني بحكاياته وبتشبيهاته غير المنتظرة . وكان في حديثه الوان مختلفة من المبالغات والجفاف ، ومن الغنائية والبداعة ، ومن السذاجة والادّعاء بأن ما يقوله لم يكن فيه شيء تافه . على أنّ أكثر ما كان يجذب فيه ، انما هي ضحكته : فكأنما سقط ، من غير انتظار على كوكب ليس هو كوكبه فأخذ يكتشف طرافته العجيبة : وحين كانت ضحكته تنفجر ، كان كل شيء يبدو لي جديداً ، أخاذاً ، عذباً .

لم يكن هيربو يشبه أصدقائي الآخرين ، فان هؤلاء كانوا يملكون وجوهاً بلغ من تعقلها وطبعها انهم أصبحوا بسببها غير ماديين . والحق ان سحنة جاك لم يكن فيها شيء سارفيمي ، ولكن طبقة من البورجوازية كانت تخفي لديه شهوانية غزيرة . أما وجه هيربو ، فقد كان من المستحيل تلخيصه في رمز ، فلقد كان الفكّ المتقدم ، والبسمة الكبيرة الرطبة ، والحدقتان الزرقاوان تحيط بهما قرنيّة مصقولة والبشرة والعظم والجلد ، كل ذلك كان يفرض نفسه ويكتفي بذاته . وإلى

ذلك ، كان لهيرو بوجسم . وكان يحدثني ، بين الأشجار المخضوضرة ، عن مبلغ كرهه للموت ، ويقول انه لن يرضى ابدأ بالمرض ولا بالشيخوخة . وما أشد ما كان يعتز إذ يُحس في عروقه تدفق دمائه ! وإذ كنت أسير إلى جانبه في الحدائق ، كنت أعلم انه لم يكن بقربي ملاك ، بل ابن من أبناء البشر . وكنت تعبة من الملائكية وكان يسعدني أن يعاملني كمخلوقة كما كانت تعاملني ستيفا وحدها . ذلك ان وده لم يكن يتجه إلى روحي ، ولم يكن يحصي مزاياي ، وانما كان تلقائياً مجاناً يتبناني كاملة . كان الآخرون يحدثوني في احترام ، أو على الأقل في رصانة ، وعن بعد . أما هيربو فكان يضحك في وجهي ، ويضع يده على ذراعي ، ويهددني باصبعه وهو يدعوني « يا صديقتي المسكينة ! » وكان يطلق حول شخصي مجموعة من الافكار الصغيرة الوديسة أو الساحرة ، وكلها غير منتظرة .

ولم يكن يبهرني من وجهة النظر الفلسفية وقد سجلت في شيء من عدم الاتزان :

« يعجبني منه ملكته الخاصة في أن تكون له نظريات شخصية حول كل شيء . ولعل مرد ذلك الى انه لا يعرف كثيراً من الفلسفة . انه يروفي كثيراً . » والحق ان العمق الفلسفي كان ينقصه . ولكن ما كان يهمني أكثر من ذلك انه كان يفتح لي دروباً كنت أتحرق شوقاً لسلوكلها من غير ان أوتى الجرأة . كان معظم أصدقائي مؤمنين ، وكنت أسعى لأن أجسد تسويات بين وجهات نظرهم ووجهة نظري ، فاني لم أكن اجروء على الابتعاد عنهم أكثر مما ينبغي . أما هيربو ، فقد كان يمنحني الرغبة في ان أصفّي هذا الماضي الذي كان يفصلني عنه . كان ينفر من الزهد المسيحي ، وكان يتجاهل القلق الميتافيزيقي . كان ضد الدين وضد الاكلبروس وضد القومية وضد العسكرية . وكان يكره جميع النظم الصوفية . ولقد أعطيته بحثي عن « الشخصية » ليقراه ، وكنت أعتز به

بالغ الاعتزاز ، فاستخف به واكتشف فيه عفونةً من الكاثوليكية والرومانتيكية حتني على ان أتطهرَ منها بأقرب وقت . فوافقت على ذلك وأنا مغتظة . وكنت قد مللت « التعتقدات الكاثوليكية » والدروب الروحية المقلدة ، وأكاذيب الامور الساحرة . وكان بودي الآن ان ألمس الأرض . وهذا هو السبب في اني إذ التقيت هيربو شعرت بانني قد وجدت نفسي : كان يدلني على مستقبلي . إنه لم يكن مفكراً تقليدياً ، ولا جرذ مكتبة ، ولا ركن حانة ، وانما كان مثله يدلل على ان بإمكان المرء ان يبتني لنفسه ، خارج الأطارات القديمة ، حياة متكبرة ، بهيجة وعاقلة : وتلك هي الحياة التي كنت أتمنى مثلها .

٦

كانت هذه الصداقة النضرة تنعش مباحج الربيع . وكنت أقول لنفسي : إن في العام ربيعاً واحداً ، وإن في الحياة شباباً واحداً ، فيجب ألا اضيع شيئاً من فصول شبابي الربيعية . وكنت على وشك ان انجز تحرير دبلومي ، أقرأ كتباً عن « كانت » ولكن معظم العمل كان قد أنجز ، وكنت أحسني واثقةً من النجاح ، وهذا النجاح الذي كنت أتعجله كان يُسهم في أن يُسكرني .

ورحت أفضي مع أخي امسيات ضاحكة في ملاهي «بوينو» و «الارنب النشيط» و « كهف البوليه» حيث كانت أختي تشتغل في رسم بعض الصور . واستمعت إلى حفلة موسيقية مع زازا في قاعة « بلايل» ، وزرت مع ريسمين معرضاً لاوتريلو ... وكنت أجلس في حديقة اللكسمبورغ ، تحت أشعة الشمس ، وأتابع بنظري مساء مياه السين السوداء ، وأنا مرهفة للأضواء والطور ولخفقات قلبي حتى تكاد

السعادة تخنقني .

وفي نهاية نيسان ، التقيت في ساحة سان ميشال اختي وجيجه ،
فدخلنا حانة جديدة من حانات الحي تدعى « السفينة السكرى » فشربنا
الكوكتيل واستمعنا إلى اسطوانات جاز ، توجهنا إلى مونبارناس . وفي
« الجوكي » أخذت وجوه مألوفة تبسم لي ، وعاد الساكسفون يشق
قلبي . ورأيت ريكيه فتحدثنا على عادتنا عن الصداقة والحب ، فأضجرتني
وما أبعد المسافة بينه وبين هيربو ! وأخرج رسالة من جييه فأريت عليها
خط جاك . وقال لي :

— إن جاك يتغير .. إنه يشيخ .. وهو لن يأتي إلى باريس إلا في
منتصف آب .

ثم أضاف باندهاق :

— بعد عشر سنوات ، سيقوم بأشياء عجيبة !

فلم أتحرك ، وخيل إليّ اني أصبت بشللٍ في القلب :

على اني افقت في اليوم التالي والدموع في عيني : « لماذا يكتب
جاك للآخرين ، ولا يكتب إليّ قط ؟ » وذهبت إلى مكتبة سانت
جانفياف ، ولكنني عدلت عن العمل ، وقرأت « الاوديسة » : « لأضع
البشرية كلها بيني وبين ألمي الخاص . » ولكن العلاج لم يكن ناجعاً . فأين
تراني أصبحت مع جاك ؟ منذ عامين ، أصبت بخيبة من برودة لقاته ،
فذهبت انتزّه في الشوارع وأطلب لنفسى ضدّه «حياة تخصني » ..
وهأنذا أملك هذه الحياة . ولكن هل اراني أنسى بطل شبابي ، أخوا
مولن الاسطوري المرصود « لأشياء عجيبة » وربما كان مطبوعاً ،
من يدري ، بالعبقريّة ؟ كلا ! لقد كان الماضي يمسكني : ولقد تمثنت
طويلاً ، ومنذ زمن بعيد ، ان أحمله كله معي في المستقبل !

وإذن فقد عدت أتحسّس وأتلمّس بين الحسرات انتظارات مبهمة .
ودفعت ذات مساء باب « الستريكس » ، فدعاني ريكيه إلى طاولته :

وكان على المشرب اولغا ، صديقة ريوكور ، تتحدث مع سمراء ترتدي فراء مفضضة . وبدت لي جميلة وعلمت « انها ماغدة » ، وقد تساءلت :
- أليس عندكم أخبار من جاك ؟ أو لم يسأل عني ؟ إن هذا الشخص قد هرب منذ عام وهو لا يسأل حتى عن أخباري ! آه ، ليس لي حظ مع ذلك الجمل ! وسجلت كلماتها ، ولكنني لم أكد أنفعل على التو . ورحت اتحدث مع ريكيه وعصبته بهدوء حتى الساعة الواحدة صباحاً .

وأصابني الانهيار حين اويت إلى فراشي ، وكانت ليلتي مريعة • وقضيت طوال اليوم التالي في اللكسمبورغ وأنا أفكر . ولم أستشعر اي غيرة . لقد انتهت تلك العلاقة ، وهي لم تدم طويلاً ، وقد نقلت على جاك فتعجل إنهاءها . ولم يكن للحب الذي كنت أتمناه بيننا اية علاقة بهذه القصة . وعادت لي ذكرى : كان جاك قد أعارني كتاباً لبيرجان جوف خطّ تحت احدى عباراته خطأً : « كنت أتق بهذا الصديق ، ولكنني كنت أعانق آخر » وفكرت : « فليكن يا جاك . اني أرثي للآخر » ، وكان يشجع هذه الكبرياء وهو يقول لي إنه لم يكن يحترم النساء ، واني انما كنت بنظره شيئاً آخر غير امرأة . واذن ، فما تبرير هذا الأسى في قلبي ؟ ولماذا كنت اردد ، والدمع في عيني ، عبارة أوتيلو : « يا للخسارة يا جو ! آه ، يا جو ! يا للخسارة ! » ذلك اني اكتشفت شيئاً مريعاً : إن تلك القصة التي هي حياتي تصبح قصة مزيفة ما مضيت في روايتها لنفسي .

فما أشد ما كنت عمياء ، وما أفظع ما تأملت من ذلك ! لقد كنت اعزو ضجر جاك ومлле وبأسه إلى نوع من العطش للمستحيل لا أدري له كنهاً . ولا بدّ ان اجويتي المجردة كانت تبدو له بليدة ، وما أشدّ ما كنت بعيدة عنه حين كنت أظننا متقاربين ! ومع ذلك فقد كانت

هناك علامات : محادثات مع اصدقاء تدور حول أشياء تضايقه . . . واستيقظت ذكرى ثانية : لقد لمحت يوماً امرأة سمراء أنيقة تجلس على مقربة منه في السيارة . ولكنني ضاعفت ثقتي به آنذاك ! وهكذا أصرت على ان أخدع نفسي ، فحلمت وحدي بتلك الصداقة ثلاثة أعوام ، وهأنذا الآن حريصة عليها بسبب الماضي ، ولم يكن الماضي غير خداع . وكان كل شيء ينهار . وأخذتني رعشة في أن أهلم جميع الجسور ، فأحب شاباً آخر أو أمضي إلى آخر الدنيا . ثم أخذت أوبخ نفسي : إن جاك ليس هو المزيّف ، بل ان حلمي هو المزيّف . فماذا تراني أستطيع أن آخذ عليه ؟ إنه لم ينصب من نفسه يوماً بطلاً ولا قديساً بل هو غالباً ما قال عن نفسه أشياء سيئة . ولقد كانت عبارة جوف إنذاراً ، وكان قد حاول ان يحدثني عن « ماغدة » : فلم ايسر له مصارحتي بذلك . والحق اني كنت منذ وقت طويل استشعر الحقيقة ، بل أعرفها . فما الذي كانت هذه الحقيقة تصدمه في إن لم يكن احكامي الكاثوليكية المسبقة ؟ وهدأت قليلاً . لقد كنت على خطأ بأن أطلب من الحياة ان تنسجم مع مثل أعلى موضوع سلفاً . فقد كان عليّ أنا نفسي ان أكون علي مستوى ما كانت تحمله لي . لقد سبق لي ان فضّلت دائماً الواقع على السراب .. وأنهيت تفكيري بالاعتزاز بانني اصطدمت بحادث صلب ولكنني نجحت في التغلب عليه .

وصباح اليوم التالي ، وردت من « ماريناك » رسالة تنبئ بأن جدّي كان مريضاً جداً حتى انه كان على وشك الموت . وكنت احبه كثيراً ، ولكنه كان كبير السن ، وكان موته يبدو لي طبيعياً ولم يكن هذا ليحزنني . وكانت ابنة عمي مادلين في باريس في تلك الفترة ، فدعوته لتناول المرطبات في احد مقاهي الشانزليزيه ، وأخذت تروي لي قصصاً لم أكن أستمع اليها لأنني كنت أفكر في جاك باشمتراز . لقد

كانت علاقته بماغدة تنطبق انطباقاً أميناً مع الفكرة التي كانت دائماً تثير
نفوري : ابن الاسرة الذي يتدرب على الحياة مع عشيقته من طبقة عادية ،
و حين يعزم على أن يصبح انساناً رصيناً يهجرها - كان هذا تافهاً
وحقيراً . ونمت واستيقظت والغصّة في حلقي من فرط الاحتقار . « إن
المرء هو على مستوى التنازلات التي يقوم بها لنفسه . » : لقد ردّدت هذه
العبارة لجان سارمان في أثناء دروس دار المعلمين ، وبينما كنت أتناول
الغداء مع براديل في مطعم بشارع سان ميشال . وكان براديل يتحدث
عنه ، ويذهب إلى أنه لم يكن معتدلاً إلى الحد الذي كان يزعمه أصدقائه
ولكنه كان يحترق جميع المزايدات ، ويمتنع عن التعبير عن آرائه
وعواطفه إذا كانت تتجاوز اليقين الذي كان يملكه عنها . ثم استعرضنا
الأشخاص الذين كنا نحترمهم ، وغادرته لأتتره وحدي في غابة
بولونيا .

وتنشقت رائحة العشب المقصوص ورحت أمشي مبهورة بازدهار
الأشجار المثمرة ، ثم جلست على حافة نهر ورحت اقرأ هوميروس
وأتساءل : أي شقاء يسعه ان يقاوم جمال العالم ؟ إن جاك ليس أكبر
أهمية من شجرة من أشجار هذه الحديقة .

كنت ثرثارة ، وكنت أحب ان اعلن عن كل ما كان يجري لي ،
وكنت أتمنى بعد ذلك ان يتخذ أحد ما وجهة نظر نزيهة حول هذه
القصة . وكنت أعلم ان هيربو يسخر بها ، وأما زازا وبراديل فقد كان
احترامي لهما أكبر من أن أعرض جاك لحكمهما . وعلى عكس ذلك ،
كان كلبرو لا يخيفني بعد ولا بدّ ان يقدر الامور على ضوء تلك
الأخلاقية المسيحية التي كنت لا ازال انحني أمامها بالرغم مني : وقد
عرضت له قضيتي . فاستمع اليّ بشراهة وتنفّس : ما أشد عناد
الفتيات ! لقد صارح خطيبته بألوان من الضعف تعرّض لها ، فبدلاً من
ان تعجب بصراحته بدت مشمّزة منه . وافترضت انها كانت تفضل

اعترافاً أمجد ، والاّ فالسكوت . ولكن لم تكن هذه هي القضية . أما فيما يخصني ، فقد انتقد قسوتي ، ومعنى ذلك انه كان يبرئ جاك ، وعزمت على ان اوافقه في رأيه . ونسيت أن علاقة جاك قد صدمتني بتفاهتها البورجوازية ، فأخذت على نفسي اني شجبتها بالاستناد إلى مبادئ مجردة . والحق اني كنت أتخبط في نفق ، بين الظلال . لقد رفعت ضد طيف جاك وضد الماضي الميت مثلاً أعلى كففت عن الايمان به . ولكن باسم اي شيء أحكم ، إذا طرحته ؟ لقد دفعت كبريائي لأحمي حبي : فلماذا أطلب من جاك أن يكون مختلفاً عن الآخرين ؟ ولو أنه كان يشبه الجميع ، بينما كنت أعرف أنه كان دون الكثيرين ، في عدة نقاط ، فلماذا كنت أفضله ؟ لقد انتهت الرحمة إلى عدم الاكراه .

هذا الاختلاط في نفسي ، تعمق وكثف بعد عشاء حضرته عند أهل جاك . فلقد قالت لي عمتي في ذلك الرواق الذي قضيت فيه لحظات ثقيلة وعذبة ، انه قد كتب لها يقول : « أبلغي سيمون تحياتي حين تربيتها » فاني لم أكن معها لطيفاً ، ولكني لست لطيفاً مع أحد . والحق ان ذلك لن يُدهشها في . » وهكذا ، لم أكن بالنسبة اليه الاشخصاً كسائر الاشخاص ! وإن ما زاد في قلقي أنه طلب من أمه ان تبعث اليه في العام القادم بأخيه الصغير : إنه اذن ينوي ان يمضي في حياته تلك ؟ الحق اني كنت فتاة غير قابلة للشفاء ! وكنت أعرض أصابعي لأنني خلقت وحدي ماضينا ، واني أستمر في بناء مستقبلنا وحدي أيضاً .

وعدلت عن القيام بالافتراضات ، وقلت لنفسي : فليكن ما يكون ! بل لقد ذهبت إلى التفكير بأنه لعل من الصالح ان أنهي هذه القصة القديمة ، وان ابدأ من جديد شيئاً آخر تماماً .

ولكنني لم أكن ارغب بعد في مثل هذا الجديد ، وان كان يغربني ، ومهما يكن من أمر ، فقد قررت ان بامكاني تماماً لكي اعيش واكتب

وأكون سعيدة ، ان أستغني عن جاك .

٧

وردتنا يوم الأحد برقية تعلن موت جدي ، ولم يكن هناك شك في ان خيوط ماضي بدأت تنحل . ولقد خرجت مع زازا إلى غابة بولونيا وكنت على يقين من أني احاول ان اسلي قلباً عاطلاً . وبعد ظهر الاثنين قصدت للكسمبورغ ، وجلست تحت أشعة الشمس أقرأ كتاب « حياتي » لايزادورا دانكان واحلم بحياتي الخاصة . إنها لن تكون صاخبة ، ولا حتى لامعة . غير اني كنت أنشد الحب وكتابة كتب جيدة وأن ارزق بعض الاطفال « وأصدقاء يمكن أن اهديهم كتبتي ويمكن ان يعلموا أولادي الفكر والشعر . » وكنت أعلتق على الزوج أهمية صغيرة . ذلك اني كنت أعيره ملامح جاك فأسارع إلى أن أسدّ بالصدقة نقائص لم أعد أخفيها عن نفسي . وفي هذا المستقبل الذي بدأت أشعر بقربه ، كان الأدب هو البند الأهم . وقد كنت على حق في الا اكتب وأنا صغيرة كتاباً يائساً : اما الآن فاني اصور الحياة بمأساتها وجمالها معاً .

وبينا أنا افكر على هذا النحو بمصيري . لمحت هيربو الذي كان يمشي بمحاذاة الحوض وبصحبه سارتر : فرآني وتجاهلني . ويا لسر المذكرات الخاصة واكاذيبها ! اني لم أسجل هذا الحادث في مذكراتي بالرغم من انه قد شقّ عليّ كثيراً . فلقد آلمني ان ينكر هيربو صداقتنا ، وشعرت بذلك الشعور من النفي الذي كنت اكرهه فيما بيننا .

وفي مايرنيك ، كانت الاسرة كلها قد تجمعت . ولم أحسّ بالانفعال لرؤية رفات جدي ، ولعل ذلك بسبب تلك الضجة التي كانت تنبعث من البيت . ولقد سبق لي ، إذ كنت في الثالثة عشرة ، ان بكيت حين تنبأت بان يوماً سيأتي فلا أشعر فيه اني سأكون في منزلي حين ازور

مايرنيك . وقد وقع هذا الآن . فان القصر يخص عمتي وابناء عمي ،
وإذا قدمت اليه بعد الآن فسأتي كمدعوة ، ولا شك في اني لن آتي
بعد أبداً .. إن طفولتي ومراهقتي وقدم البقر يضرب باب الخان ، إن
ذلك كله قد أصبح خلفي ، بعيداً عني . وأنا الآن مستعدة لشيء آخر ،
وها أن الحشرات تتلاشى ، في عنف ذلك الانتظار .

وعدت إلى باريس بثياب الحداد وبالقبعة السوداء . وكانت جميع
أشجار الكستناء مزدهرة ، وبدأ الزيت يسيح تحت قدمي ، وكنت أشعر
عبر ثوبي بأشعة الشمس العذبة تحرقني . وكان معرض كبير قد أقيم في
ساحة الانفاليد فقصدته مع اختي وجيجه للترهه والتسلية ، فالتقينا فيه
بزميل مدرسة اصطحبنا إلى غرفته لنسمع بعض الاسطوانات ونشرب
كأساً . والحق أنها كانت ساعات زاخرة اعادت إليّ الفرحة بالحياة .

٨

والتقيت بكليرو ، مرة أخرى ، في المكتبة الوطنية ، فقدم لي
التعازي وسألني ، بعينين بارقتين ، عن حالة قلبي . وكان هذا خطي
فقد تكلمت أكثر مما ينبغي . ومع ذلك فقد انزعجت . وقد أعطاني
مخطوطة مضروبة على الآلة الكاتبة ، وهي رواية قصيرة ، يتحدث فيها
عن منازعاته مع خطيبته ، وحين قرأتها جعلت أتساءل : كيف يمكن
لشباب مثقف ، ويقال إنه ذكي ، أن يستطيع إضاعة وقته لكي يروي
بعبارات لا لون لها مثل هذه الحكايات الرديئة؟ ولم أخف عنه اني كنت
اراه قليل الموهبة في الأدب . فلم يبد عليه انه استاء مني . ولما كان
متين الصداقة بيراديل الذي كان ابي وأمي يجباه كثيراً ، فقد قدم معه
ذات مساء لتناول العشاء عندنا ، فراق كثيراً لأبي . وبدا مفتوناً بجمال
اختي ، وشاء أن يظهر لها انه ليس ثقيل الظل ، فانغمر في حديث أزعجنا

كثيراً بثقله .

ورأيت هيربو مرة أخرى بعد أسبوع من عودتي ، في ممر من ممرات السوربون . وكان جالساً إلى جانب سارتر عند احدى النوافذ . فمد لي يده في حركة ودية عريضة ، ونظر بفضول إلى ثوبي الاسود . وفي قاعة المحاضرات ، جلست على مقربة من ليزا ، وجلسا هما على مقعد خلفنا . وفي اليوم التالي جاء إلى المكتبة الوطنية وأعلمني ان غيابي قد أقلقه :

- لقد افترضت انك كنت في الريف ، ثم رأيتك أمس بثوب الحداد .

فسرتني أنه فكّر في . وزادني رضى حين أشار إلى لقائنا في اللكسمبورغ ، وكان يود ان يعرفني على سارتر ، ولكنه خشي أن يعكر عليّ جو التفكير الذي رأني غارقة فيه . ثم أعطاني رسماً كلّفه سارتر أن يقدمه لي هدية ، وهو يمثل « لينتتر في الحمام مع فتيات الموناد » . وفي الاسابيع الثلاثة التي سبقت مباراة « الاغريغاسيون » كان يأتي كل يوم إلى المكتبة الوطنية ليصحبني قبل اغلاقها ، حتى ولو لم يشتغل فيها ، وكنا نذهب فنشرب قدحاً هنا أو هناك . وكان الامتحان يقلقه قليلاً ، ومع ذلك فكنا نترك « كانت » والرواقين لتتحدث فترة من الزمن ، وكان هيربو معجباً بثلاثة أشخاص أو اربعة ، وكان يحتقر جميع الآخرين وكانت قسوته تفرحني ، وقد سمعته بشغف يحطّم بلائشيت وايس ، فتركت له كليرو . ولم يهاجم براديل بالرغم من انه لم يقدره ، ولكنه حين كان يراني في السوربون أو في المكتبة الوطنية أتحدث مع رفيق أو زميل ، كان يبقى بعيداً عني باحتقار . وكان يأخذ عليّ لطاقي مع الجميع . وذات يوم ، أقبل عليّ الهنغاري مرتين في المكتبة الوطنية يزعجني ! بأسئلته عن دقائق اللغة الفرنسية .. فقال لي هيربو :

- جميع هؤلاء الاشخاص الذين ينقضون عليك .. إن هذا لعجيب

وهذا الهنغاري الذي أقبل مرتين ليخطفك ! وكليرو ، وجميع صديقاتك !
انك تضيعين وقتك مع أشخاص لا يستحقون .. فإمّا انك عالمة نفسية
والآ فلا تستحقين الغفران !

ولم يكن يكره زازا بالرغم من انه يجدها أرصن مما ينبغي . ولكني
حين حدثته عن ستيفا قال موبتخاً :

— لقد غمزتني بعينها !

وكانت النساء المثيرات لا يرقن له : لأنهن يخرجن من دورهن
كنساء . وقال لي في يوم آخر :

— انك فريسة عصابة . واني لأتساءل ايّ مكان يبقى لي في عالمك ؟
فطمأنته انه مكان كبير ، وكان يعرف ذلك تماماً :

وكنت ازداد به إعجاباً ، ومما كان يلدّ لي اني كنت ، عبّره ، أروق
لنفسي . لقد أخذني الآخرون على محمل الجد ، أما هو فكنت اسليه .
وكان يقول لي ، إذ نخرج من المكتبة :

— ما أسرع ما تمشين ! اني اعبد هذا ، فكاننا نذهب إلى مكان ما .
وقال لي مرة أخرى :

— إن لك صوتاً رقيقاً غريباً ... يسلينا كثيراً ، انا وسارتر !
واكتشفت أنّ لي مشية وصوتاً ، وكان هذا أمراً جديداً . وأخذت
أهتم بملبسي وزيتي ما وسعني ذلك ، فكافأ جهودي بتهنته :
— ان هذه التسريحة الجديدة تناسبك تماماً . وكذلك هذه الياقة
البيضاء .

وقال لي ذات أصيل ، وكنا نتمشى في حدائق « باليه رويال » :
— إن علاقانا غريبة حقاً ، بالنسبة لي على الاقل : فأنا لم أعقد قبل
الآن صداقة نسائية .
فقلت له :

— لعل مرجع ذلك اني لست اثوية جداً ؟

— أنت ؟

وضحك ضحكة أثارت غروري :

— كلا ! بل لأنك تستقبلين كل شيء بسهولة ، فيشعر المرء معك سريعاً بالاطمئنان .

وفي عهد صداقتنا الاول ، كان يدعوني « يا آنسة » بلهجة شديدة الود . وقد قال لي أخيراً :

— انك تشبهين القندس . والقنادس تذهب زرافات ولها فكر بناء . وكانت بيننا مشاركات جمّة ، وكنا نتفاهم بانصاف الكلمات ، غير ان الأشياء لم تكن تؤثر فينا تأثيراً مماثلاً . وكان هيربو يعرف مدينة « اوزرش » ، وكان قد قضى فيها بضعة أيام مع زوجته ، وكان يجب « الليموزان » حباً كبيراً ، ولكنني كنت ادهش لصوته البليغ حين كان يتحدث عن الغابات والاراضي ، فيضيع في أحلام تاريخية . وكانت حداثق « الباليه رويال » في نظره معمورة بالاطياف الكبيرة ، أما أنا فكان الماضي عندي يثلجني . وعلى العكس ، كنت احسب ان له قلباً جافاً بسبب لهجته المتجردة ولامبالاته ، ولكنه أثر بي حين قال لي إنه كان يجب « مولن الكبير » و « الطاحونة على الفلو » .. وكنا نتحدث يوماً عن ألين فورنيه فتمتم بصوت منفعل :

— إن هناك كائنات جديدة بان تحسد :

وبعد صمت قصير تابع يقول :

— الواقع اني مفكر أكثر منك . ومع ذلك ، فان الحساسية التي كانت في نفسي ، والتي لم اردھا ، تشبه حساسيتك تماماً .

فقلت له انه كان غالباً ما يبدو لي مثملاً ان يوجد المرء بكل بساطة :

— ان هناك لحظات رائعة اعيشها احياناً .

فهز رأسه وقال :

— ارجو ذلك ، فانت تستحقين هذا يا آنسة . أما أنا ، فليست

عندي لحظات رائعة ، وأنا شخص مسكين ، ولكن ما أفعله يدعو إلى
الاعجاب !

ولكنه ما لبث ، بابتسامة ، ان انكر فخامة كلماته الاخيرة : فالي
اي حد تراه كان يؤمن بها ؟ كان يقول لي أحياناً :
- يجب ألا تحكمني عليّ .

فلم أكن اميز ان كان يوجه لي رجاء أم يعطيني امراً . فكنت
أهادنه عن رضى . وكان يحدثني عن الكتب التي سوف يكتبها : فربما
كانت تدعو حقاً إلى الاعجاب . وكان هناك شيء واحد يضايقني فيه هو
انه كان يعول على النجاح الاجتماعي لرضي فرديته . وكنت أبعد ما
أكون عن مثل هذا المطمع . فأنا لم أكن أطمع بالمال ولا بالرتب ولا
بالشهرة . ولكن الواقع اني كنت احتفظ بفكرة شبه دينية عما كنت
اسميه « قَدَرِي » . أما هيريو فكان يهتم بالوجه الذي يخلقه لنفسه في
عيون الآخرين ، وكان يواجه كتبه القادمة على انها عناصر من شخصيته .
وفي هذا المجال ، لم أكن لأراجع قط عن عنادي ، فاني لم أكن أفهم
أن يتنازل المرء عن حياته بتصويت جمهور قريب .

ولم نكن نتحدث قط عن مشكلاتنا الشخصية . غير اني ما لبثت يوماً
ان رويت له بخطوط عريضة قصتي مع جاك ، فحشني على أن أتزوجه
وأضاف :

- وان لم يكن هو فسواه ... إن على المرأة أن تتزوج .

فلاحظت بدهشة ان رأيه في هذه القضية لا يكاد يختلف عن رأي
أبي . وكان يرى ان الشاب الذي يبقى بكرّاً بعد أن يجاوز الثامنة عشرة
هو رجل مصاب بداء عصبي . ولكنه كان يدعي ان على المرأة ألا
تستسلم إلا ليلة العرس . أما أنا ، فلم أكن أقرّ ان يكون هناك مقياسان
وكيلان . وكنت قد كفت عن لوم جاك ، ولكنني كنت في الوقت نفسه
امتح النساء ان ينصرفوا كالرجال تصرفاً حراً بأجسادهن وكنت أحب كثيراً

رواية لميشال ارلان بعنوان « اللبادة الخضراء » وهي تروي أن سوء تفاهم كان قد أبعد البطلة ايريس ستورم عن حبيب شبابها « نايبه » ، ولم تكن تنساه قط بالرغم من انها كانت تنام مع كثيرين من الرجال . وأخيراً فضلت ان تقتل نفسها باصطدام مفتعل بسيارتها على أن تتزع حبيبها من زوجة يحبها وتحبه . وكنت معجبة بايريس : بوحدتها وعدم اكترائها وشخصيتها الرفيعة . وقد أعرت هيربو الكتاب فقال لي وهو يعيده إلي :

– اني لا احب النساء السهلات !

ثم ابتسم لي وأضاف :

– بقدر ما احب ان تروق لي المرأة ، يستحيل علي ان احترم

امرأة امتلكتها !

فأخذني الغيظ وقلت :

– إن امرأة مثل ايريس ستورم لا تمتلك . وليس ثمة امرأة تقبل

مواصلة الرجال دون أن تُعاقب على ذلك .

وكرر لي ان مجتمعنا لا يحترم إلا النساء المتزوجات . أما أنا ، فلم يكن يهمني ان أكون محترمة . كان الحياة مع جاك ، والزواج به امرأ واحداً . ولكن يبدو لي الآن ان من الافضل ، إذا كان بالامكان ، فصل الحب عن الزواج . ولقد رأيت ذات يوم في اللكسمبورغ نيزان مع زوجته وهي تدفع بعربة أولاد ، وتمنيت من كل قلبي ألا ترسم هذه الصورة في مستقبلي . فقد كنت أرى مزعجاً أن تسلب القيود المادية رجلاً من امرأته أو امرأة من زوجها : فالصلة الوحيدة التي تربط اشخاصاً متحابين ينبغي ان تكون الحب وحده .

وهكذا لم أكن اتفاهم مع هيربو دون تحفظ . فقد كانت تبرمني خفة مطامعه واحترامه لبعض المواصفات واحياناً حسه الجمالي : وكنت اقول لنفسي اننا لو كنا نحن الاثنین حريين ، لما كنت ارتضي ان اشد حياتي إلى حياته ، فقد كنت انظر إلى الحب كالالتزام كامل : وهذا يعني

اني لم اكن احبه . ومع ذلك فان العاطفة التي كنت اكنها له تذكرني
تذكيراً غريباً بالعاطفة التي أوحاها لي جاك . فمذ اللحظة التي كنت
أتركه فيها ، كنت انتظر اللقاء التالي . وكل ما كان يحدث لي ، وما كان
يخطر في رأسي ، كنت أحفظه لأرويه له . وحين كنا نفرغ من الحديث
ونعمل جنباً إلى جنب ، كان قلبي ينقبض ، لأننا كنا نميل آنذاك نحو
الرحيل : ولم أكن أدري قط متى سأراه مرة أخرى ، وكان عدم
اليقين هذا يحزني . وكنت أستشعر في ضيق أحياناً ضعف صداقتنا ،
فكان هيربو يقول لي بلطف :

— انك اليوم كثيبة جداً ...

ثم ينصرف إلى محاولة إزالة كآبتي . وكنت أشجع نفسي على ان
أعيش كل يوم بيومه بلا أمل ولا خوف : هذه القصة التي لم تكن
تهني الا الفرح ، كل يوم بيومه .

ولقد انتصر الفرح . ولقد رحمت ذات يوم ، وانا اراجع الدروس
في غرفتي ، بعد ظهر يوم قاتظ ، اتذكر ساعات شبيهة كنت أعد فيها
للبيكالوريا : لقد كنت أشعر بالأمن نفسه وبالنشاط ذاته ، وكـم ذا
اغتنيت منذ عامي السادس عشر !

وأرسلت رسالة إلى براديل لاؤكد موعداً ضربته له ، وانتهت كلمتي
بقولي :

« لنكن سعداء ! » وبعد عامين ذكرني بذلك ، وكنت قد طلبت
منه ان يحذرنـي من السعادة ، فتأثرت لتنبهه ووعيه . ولكن الكلمة كانت
قد تغيرت معناها ، فليس الأمر بعد تنازلاً أو خموداً : ذلك ان سعادتـي
كفتت عن أن تكون متوقفة على جاك . وعزمت على امر : في العام
القادم لن أبقى في البيت ، حتى ولو لم أنجح . أما إذا نجحت فلن آخذ
وظيفة ، ولن أغادر باريس : ففي الحالين سأسكن وحدي وسأعيش
من الدروس التي سوف أعطيها . وقد كانت جدتي ، منذ موت جدي ،

تقبل طلاباً داخلين في بيتها . ولسوف استأجر احدى غرفها . مما يضمن لي استقلالاً كاملاً من غير ان أجفّل أهلي . ولقد وافقوا على ذلك . إن بوسعي الآن ان أكسب مالاً وان أخرج وأستقبل واكتب واكون حرة : إن الحياة تفتح حقاً هذه المرة .

٩

وكنت أسوق اختي نحو هذا المستقبل . وقد كنا نجلس على ضفاف السين ، إذ يهبط الليل ، فنأخذ نروي احلام الغد المنتظرة حتى نكاد نفقد أنفسنا : كنا نتحدث عن كتبتي ولوحاتها ورحلاتنا والعالم . وكانت ترتجف فوق الماء المنسرب أعمدة وظلال ، وكنا نلقي على أعيننا غلالاتنا السوداء لنجعل الديكور أشد اغراء . وكنا غالباً ما نشرك جاك في مشاريعنا : ولم نكن نتحدث عنه بعد على انه حبيب عمري ، ولكن على انه ابن العمّة العجيب الذي كان بطل شبابنا .

وكانت ليزا تقول لي :

— أما أنا ، فلن أكون هنا في العام القادم .

وكانت تجهد في انجاز دبلومها ، وكانت قد طلبت وظيفة في سايجون . ولا شك في ان براديل كان يحزر سرها ، فكان يتجنب اللقاء بها . وكانت تتمم بابتسامة رقيقة :

— آه ! كم أنا شقية !

وكنا نلتقي في السوربون وفي المكتبة الوطنية ، ونشرب الليمون في اللكسمبورغ ، أو نأكل البرتقال في غرفتها المزدهرة بشوك وردي أبيض ، وبينما كنا نتحدث ذات يوم مع كليرو في ساحة السوربون ، سألنا بصوته الممتلئ :

— ما الذي تفضّلنه في نفوسكن ؟

فأجبتته وأنا أكذب :

— انساناً آخر !

وأجابت ليزا :

— أما أنا ، فباب الخروج :

وقالت لي في مناسبة أخرى :

— إن ما يُحمد لديك هو أنك لا ترفضين شيئاً أبداً ، أنك تتركين جميع الابواب مفتوحة . أما أنا ، فاني ابدأ خارجة ، واني أحمل معي كل شيء . ولماذا تراني دخلت يوماً إلى عندك ؟ ام أنك انت التي أتيت وخطر لك ان تنتظري ؟ صحيح ان بوسعنا ان نفكر ، حين يكون المالك غائباً . انه سيعود بين لحظة وأخرى ، ولكن الناس لا يفكرون بهذا . »

وكان يتفق لها أن تكون جميلة ، في المساء ، إذ ترتدي مبادها ، ولكن التعب واليأس كانا يجففان وجهها .

ولم يكن براديل ينطق باسمها قط . وعلى العكس ، كان غالباً ما يحدثني عن زازا ، وقد دعاني يوماً إلى حضور اجتماع يتناظر فيه غاريك وغيهينو وأضاف يقول :

— اصطحبي صديقتك :

وتناولت زازا العشاء في بيتها وصحبتني إلى قاعة الاجتماع في شارع « ديفور » . وكان ماكسانس يرأس الجلسة . ولقد ذكرت محاضرة غاريك التي ألقاها منذ ثلاث سنوات حين كان يبدو لي نصف إله وحين كان جاك يشدّ على الأيدي في عالم لم أكن أستطيع دخوله : أما اليوم فاني أشدّ على أيدٍ كثيرة . وما زلت اتذوق صوت غاريك الحارّ الحّيّ : أما اليوم فقد بدت لي كلماته بليدة مع الأسف .

وحين بدأ غيهينو الكلام ، ارتفعت أصوات تويد جريدة « العمل الفرنسي » وراحت تصفرّ له ، وأصبح من المستحيل اسكات هذه

الأصوات . وانتهى الأمر بان خرج غاريك وغيهينو ليتناولوا معاً قديماً
من الخمر في مقهى مجاور وتفرق الجمهور .
وبالرغم من المطر ، سرنا أنا وزازا وبراديل مشياً على الأقدام في
شارعي سان جرمان والشانزليزيه . وكان صديقي اوفر ضحكاً مما اعتادا ،
وتحالفاً ضدّي . ودعنتي زازا « السيدة التي لا تلتزم الاخلاق » - وكان
هذا هو لقب ايريس ستورم في « اللبادة الخضراء » - وأضاف براديل
إلى ذلك :

- انك ضمير متوحّد .

وقد تسلّيت من هجومها المشترك .

وبالرغم من ان تلك الامسية كانت فاشلة . فقد شكرتني عليها زازا
بصوت متأثر ، فلقد فهمت فجأة وبصورة حاسمة انها لن تقبل ابدأ
ما يطلبه منها وسطها من تقليص للقلب والفكر . وتقدمنا أنا وبراديل
للامتحان الشفهي من دبلومنا وأقبلت زازا تحضره ، ولقد احتفلنا بنجاحنا
في الامتحان بأن تناولنا نحن الثلاثة الشاي في مقهى « الايفلين » . ونظمت
ما سمّاه هيربو « رحلة غاب بولونيا الكبرى » . وفي ذلك المساء الدافئ
ركبنا في بحيرة الغابة قارباً أنا وزازا وليزا واختي وجيجه وكليرو وشقيق
زازا الثاني . وتحدّثنا في السباق وضحكنا وغنينا كثيراً . وكانت زازا
ترتدي ثوباً من الحرير الوردي وقبعة صغيرة من قش الارز ، وكانت
عينها السوداءوان تبرقان ولم يسبق لي أن رأيتها على مثل ذلك الجمال .
ولقيت مرة أخرى في بيت براديل المرح الذي كان قد نضج به قلبي في
مستهل صداقتنا . وركبت مع براديل وزازا في يوم آخر قارباً في البحيرة
فلاحظت ودّهما ودهشت لأن يظهرها من التعلّق بي ذلك المساء هذا
القدر الكبير : فقد كانا يوجّهان لي النظرات والابتسامات والكلمات الدافئة
التي لم يكونا يجروان بعد على تبادلها . وفي اليوم التالي اصطحبت زازا
في السيارة . فحدّثتني بتقوى عن براديل . وبعد بضعة لحظات قالت لي

ان فكرة الزواج تزيدها اشمئزازاً يوماً بعد يوم، فهي لن تخضع للزواج بانسان متوسط ، ولكنها لم تكن تعتبر نفسها جديدة بأن يجها إنسان ممتاز حقاً . وأخفقت مرة أخرى في ادراك سبب كآبتها . والحقيقة اني كنت شاردة بعض الشيء بالرغم من صداقتي لها . وكانت مباراة الاغريغاسيون ستفتح في الغد ، وكنت قد ودعت هيربو .. أما متى سنلتقي من جديد ؟... وقد لمحته في أثناء الامتحان ، وكان ينوي ان يغادر باريس ، وان يستعد للامتحان الشفهي مع سارتر ونيزان لدى عودته . وهكذا انتهت لقاءاتنا في السوربون ، وكم سوف أتحسّر عليها !

غير اني كنت ذات مزاج مرح في اليوم التالي أثناء الرحلة التي قامت بها « جماعة غابة بولونيا » إلى « فونتانبلو » . وكان براديل وزازا يشعان . وبدا الجدل على كليرو وحده ، وكان يغازل أختي ولكنها لا تستجيب له . والواقع انه كان يعمد إلى ذلك بطريقة غريبة . وكان يدعونا لتناول قدح من الخمر في مقهى كبير ، ثم يصرخ قائلاً :

— ثلاثة شاي .

فتقول أختي بويت :

— كلا ، فأنا أفضل قدحاً من الليمون .

— ولكن الشاي اكثر انعاشاً !

— بل أنا أفضل الليمون .

فيقول غاضباً :

— اذن ثلاثة ليمون !

— ولكن خذ شايأ !

— لا أحب أن اتفرّد .

وكان لا يني يخلق لنفسه الهزائم التي كانت تقذفه في شعور الكراهية ، وكان يبعث إلى أختي بن وقت وآخر رسالة مستعجلة يعتذر فيها بسبب

انه كان سيء المزاج ، ويَعِدُّ بأن يصبح رفيقاً فرحاً ، وبأن يحاول
أغتناء تلقائيه . فاذا كان اللقاء التالي ، رأيناه يتدفق تدفقاً يثلجنا فيسترد
وجهه تقلصه .

وقال لي هيربو بصوته العذب حين دخلنا قاعة مكتبة السوربون
للامتحان :

— حظاً سعيداً يا قندس !

ووضعت على مقربة منِّي زجاجة مملأى بالقهوة وعلبة من الحلويات ،
وأعلن صوت السيد لالاند : « الحرية وعدم لزوم الوجود » ، وراحت
الأعين تنظر إلى السقف ، وبدأت الاقلام تتحرك ، وملاّت الصفحات
وأنا أشعر بأن الامر يجري على ما يرام .

وعند الساعة الثانية بعد الظهر ، أقبل براديل وزازا لاصطحابي . وبعد
ان شربنا قحداً من الليمون في مقهى « الفلور » الذي لم يكن آنذاك
الا مقهى صغيراً من مقاهي الحي ، تنزهنا طويلاً في الكسمبورغ ،
وجرى بيني وبين براديل نقاش مرّ عذب . وكنا نختلف دائماً في بعض
وجهات النظر . فقد كان يرى انه لم يكن ثمة مسافة بين السعادة والشقاء ،
بين الايمان والكفر ، بين اية عاطفة وغيابها . أما أنا فكنت اوّمن بالعكس
اعماناً متعصباً . وبالرغم من أن هيربو كان يأخذ عليّ مناقشتي لأي انسان ،
فقد كنت أصنّف الناس إلى فئتين : فكنت استشعر لبعضهم تعلقاً
غريباً ، وللاكثرية الاخرى لامبالاة محتقرة . أما براديل ، فكان يضع
جميع الناس في سلّة واحدة . ومنذ عامين ، اشتد كل منا إصراراً على
موقفه . وكان قد كتب لي مساء أمس رسالة يتحدث فيها عن خلافنا
فقال :

— إن أشياء كثيرة تفصل بيننا ، أشياء أكثر من التي اتصورها
وتتصورينها دون شك . وأنا لا أحمّل ان يكون ودك لي ضيقاً إلى هذا
الحدّ . فكيف يمكن للانسان العيش دون أن يأخذ جميع الناس في شبكة

واحدة للحب ؟ الحق انك فاقدة الصبر فيما يخص هذه الامور :
وانهى رسالته بلطافة :

« بالرغم من عصيتك التي تزعجني على انها فقدان وعي والسي
تختلف تماماً عن عصيتي ، فاني أكنّ لك صداقة كبيرة تستعصي على
الشرح ... »

وبعد ظهر ذلك اليوم ، عاد يعظني في ضرورة الاشفاق على البشر
وكانت زازا تؤيده بصورة خفية لأنها كانت تراعي تعاليم الانجيل : لا
تحكموا على الناس . أما أنا فكنت أعتقد ان الانسان ليس بوسعه ان يحب
من غير ان يكره : كنت احبّ زازا ، وكنت اكره امها .
وفارقنا براديل من غير ان نتراجع ، هو أو أنا ، مقدار ذرة .
وبقيت مع زازا حتى ساعة العشاء. فقالت لي انها للمرة الاولى لم تشعر
بانها كانت محايدة بيني وبين براديل ، وان ذلك قد أثر فيها كثيراً . ثم
أضافت في اندفاع :

— لا أظن ان هناك شاباً أفضل من براديل .

وفي اليوم التالي ، حين خرجت من الامتحان الأخير ، كانا ينتظراني
في ساحة السوربون وهما يتحدثان بحوية . واي عزاء احسست به لانتهاء
المباراة !

وفي المساء صحبني أبي إلى احد المسارح ، وتناولنا العشاء في احد
المطاعم . ثم نمت حتى الظهر . وبعد الغداء توجهت إلى بيت زازا ،
وكانت ترتدي ثوباً جديداً من الغلالة الزرقاء ذا رسوم سوداء وبيضاء :
فما أروع ما تفتحت منذ أوائل الصيف ! وحين هبطنا شارع الشانزليريه
عبرت لي عن دهشتها من هذا الانتعاش الجديد الذي باتت تحسه . لقد
حسبت منذ سنتين ، حين قطعت علاقتها بأندريه انها لن تفعل شيئاً بعد
ذلك الا أن تجرّ نفسها في الحياة . ولكن هي ذي الآن تجد نفسها في
مثل الفرحة التي عرفتتها في أيام طفولتها . انها تستعيد حبها للكتب

والافكار ولتفكيرها بالذات ، وهي على الاخص تجابه المستقبل بثقة
لا تدري لها شرحاً .

وفي ذلك اليوم نفسه حين خرجنا ، حوالى منتصف الليل من دار
سينما « المزارعين » أخذ براديل يحدثني عن الاحترام الذي يكنه لزازا ،
كانت في رأيه لا تتكلم قط الا بما تعرفه معرفة عميقة ، وما تحسسه
باخلاص ، ولهذا كانت غالباً ما تصمت : ولكن كل كلمة من كلماتها
كان لها وزنها . وكان يعجبه أيضاً ان تظل محتفظة برباطة جأشها في
الظروف الصعبة التي كانت تجتازها . وطلب مني ان أدعوها من جديد
لتنزهه معنا . ودخلت البيت وقلبي يظفر فرحاً . لقد جعلت اذكرك كيف
كان براديل يصغي إليّ بانتباه ، في الشتاء الماضي ، حين كنت أنقل له
بعض أخبار زازا ، وكانت هي غالباً ما تشير اليه في رسائلها ببعض
كلمات ودية . لقد خلق احدهما للآخر ، وكانا متحابين . وهكذا
كانت احدى أعزّ امنياتي بسبيل التحقيق : ان زازا ستعيش سعيدة .

وأخبرتني امي صباح اليوم التالي اني بينما كنت مساء الامس في
السينما ، مرّ هيربو بالبيت . فأحزنتني ذلك لا سيما وانه لم يواعدني امس
على اللقاء حين غادر قاعة الامتحان وهو غير راضٍ عن المسابقة التي
كتبها . وكنت أجتزّ خيبتني حين نزلت ظهراً لأشترى بعض الحلوى
فلقيته في أسفل السلم ، ودعاني إلى تناول الغداء . وتوجهنا كعادتنا إلى
مطعم « زهرة الزنبق » ، وحديثي عن الترحيب الذي لقيه من أبي وأمي
وذكر لي ان أبي عقد معه حديثاً طويلاً هاجم فيه النزعة العسكرية ،
فردّ عليه بجديث أطول . وكان عازماً على أن يذهب في اليوم التالي
للقاء زوجته في « بانويل دولورن » ، حتى إذا عاد بعد عشرة أيام ،
فسينصرف إلى إعداد الامتحان الشفهي مع سارتر ونيزان اللذين كانا
يدعوانني بترحاب لكي أنضمّ اليهما .

وكان سارتر يودّ ان يتعرف عليّ : فعرض عليّ لقاء يتمّ في مساء

قريب . ولكن هيربو طلب مني الا أوافيه إلى هذا اللقاء ، بدعوى ان سارتر سيتتهز الفرصة ليستولي عليّ ... وقال لي هيربو بلهجة ودية :
- لا أريد أن يمسيّ احدٌ اعزّ مشاعري !
وقررنا أن تلقى أختي سارتر في الموعد والمكان المحددين ، وان تقول له اني ذهبت فجأة إلى الريف وتخرج معه بدلاً مني .
وهكذا ، فسوف ارى هيربو مجدداً عما قريب ، وها أنّ عصبته ترحّب بي : وكدت أطير من الفرح . وانصرفت بلامبالاة إلى إعداد المنهاج الشفهي ، ورحت اقرأ كتباً مسلّية وأشرد وأضيع وقتي . وفي الأمسية التي ذهبت فيها بوبيت للقاء سارتر ، كنت استعرض بفرح أحداث العام المنصرم واحداث شبابي كلّه ، وأخذت أفكر بانفعال في المستقبل :

« عجيب هذا اليقين بأنّ ذلك الغنى الذي احسّه في نفسي سيقطف ثمّته ، وان الكلمات التي اقولها ستلقى آذاناً صاغية ، وان هذه الحياة ستكون ينبوعاً يترده الآخرون : يقين رسالة أحملها ... »
وأخذتني الحماسة ، كما أخذتني من قبل تلك الشطحات الصوفية ، ولكنني هذه المرة لم أكن لاغادر الارض . لقد كانت مملكتي مستقرة نهائياً في هذا العالم .

وحين عادت أختي هنأتني بأنني ظللت في البيت . فقد قبض سارتر كذبتنا بمجاملة واضحة ، فاصطحبها الى السينما وأظهر لها ودّاً وملاطفة ولكنّه لم يعقد أي حديث معها . وقالت لي أختي :

- ان هيربو يختلق من رأسه كل ما يرويه عن سارتر !
وكانت أختي تعرف هيربو قليلاً ، وتجده انساناً مسلماً .
وانتهزت فرصة بطالتي لأحيي بعض الصداقات التي كادت تبلى ، فزرت الآنسة لامبير التي أخافها هدوئي ، وسوزان بواغ التي كانت السعادة الزوجية تبلدها ، واستشعرت الضجر مع ريسمان . وكانت ستيفا

قد اختفت منذ شهرين اذ أقامت في « مونروج » حيث استأجر فرنان مرسماً له . وأحسب انها يعيشان معاً ، وانها انقطعت عن رؤيتي لتخفي عني سوء مسلكها . وحين ظهرت من جديد . كان في أصبعها خاتم . وقد أتت تزورني في الساعة الثامنة صباحاً ، فتناولنا الغداء في مطعم « دومينيك » وهو مطعم روسي افتتح في مونبارناس منذ بضعة أسابيع وقضينا النهار كله ننتزه ونحدث ، وفي المساء تناولت العشاء في المرسوم الذي كان قد غطّي بالطنافس الاوكرانية ، وكان فرنان يرسم من الصباح الى المساء ، وكان قد حقق تقدماً كبيراً . وبعده بضعة أيام أقاما حفلة كبيرة بمناسبة زواجهما حضرها روس وأوكرانيون واسبانيون كلهم من الرسامين أو النحاتين أو الموسيقين ، وشربنا ورقصنا وغنينا وتنكرنا . ولكن ستيفا كانت على أهبة السفر مع فرنان الى مدريد حيث نيوان الاستقرار ، وكانت معدّات هذا الرحيل تستغرقها مع الهموم البيئية . وكانت صداقتنا التي ستكتسب فيما بعد نضارة جديدة - تتغذى خصوصاً بالذكريات .

وظللت أخرج غالباً مع براديل وزازا ، ولكني بدأت أشعر اني كنت دخيلة : فقد كانا متفاهمين كل التفاهم ! ولم تكن زازا تصرّح بعد بآمالها ، ولكنها كانت تستمد منها الشجاعة على ان تقاوم هجمات أمها . وكانت السيدة ماييل تدبر لها زواجاً وكانت لا تني تلاحقها في ذلك :

- ما الذي تأخذينه على هذا الشاب ؟

- لا شيء يا أمي ، ولكني لا أحبه !

- إن المرأة يا صغيرتي لا تحبّ ، وانما الرجل هو الذي يحبّ .

ثم تغضب وتضيف :

- ما دمت لا تأخذين شيئاً عليه ، فلماذا ترفضين الزواج به ؟ لقد

دبّرت أختك أمرها مع رجل أقلّ منها ذكاء !

وكانت زازا تروي لي هذه المناقشات بقدر من المشقة يفوق قدر
السخرية ، لأنها لم تكن تستخف باستياء أمها منها . وكانت تقول لي :
- لقد بلغ بي التعب من المقاومة بحيث اني كنت استسلم لو كان
ذلك منذ شهرين أو ثلاثة .

وكانت نجد الشاب الراغب فيها لا يخلو من لطف ، ولكنها لم تكن
تستطيع التصور بأن يكون صديق براديل أو صديقي ، بحيث أنه لن
يكون قائماً في مكانه المناسب حين نجتمع فيما بيننا . ولم تكن هي تريد
القبول بزواج تحترمه أقل مما تحترم الآخرين .

ولعل السيدة مايل قد أدركت الاسباب الحقيقية لذلك العناد . فحين
كنت أدقّ باهم كانت تستقبلي بوجه مثلج ، وما لبثت أن عارضت
التقاء براديل بزازا . وكنا قد فكرنا بالقيام بترهة تجذيف أخرى ،
ولكني تلقيت عشية اليوم الموعد رسالة مستعجلة من زازا قالت فيها :
« جرى بيني وبين أمي حديث أصبح مستحيلاً عليّ بعده أن أشارك
معكم في التجذيف يوم الخميس . ان أمي تغادر باريس صباح الغد ،
وقد كان بوسعي لو أنها ظلت هنا أن أناقشها وأقاومها . أما ان أنتهز
الحرية التي تركها لي لكي أفعل شيئاً لا يروق لها تماماً ، فأنا لست
جديرة بذلك . وأنه ليشقّ عليّ كثيراً أن أتخلّى عن أمسية الخميس التي
كنت آمل أن أجد فيها مثل تلك اللحظات الرائعة التي قضيتها معك ومع
براديل في غابة بولونيا . إن الأشياء التي قالتها لي أمي قد تركتني في
حالة مريعة حتى اني أوشكت أن أقصد لمدة ثلاثة أشهر ديراً من الأديرة
يتاح لي فيه ان أعيش بسلام . وأنا ما زلت أفكر بتنفيذ ذلك ، فاني
في اضطراب عظيم ... »

وحزن براديل لذلك ، فكتب لي يقول :

« بلغي الآنسة مايل عن أعمق شعوري بالصدقة . وأعتقد أن بوسعنا
أن نلتقي في وضح النهار ، وعن طريق المصادفة ، دون ان تخلف

وعدها ... »

والتقيا في المكتبة الوطنية حيث عدت الى العمل . وتناولت معها الغداء ثم خرجا يتنزهان وحدهما . والتقيا مرتين أو ثلاثاً أخرى ، وصارحتني زازا ، في أواخر تموز ، انها كانا متحابين ، وانها عازمان على الزواج حين ينهي براديل الاغريغاسيون ويقوم بالخدمة العسكرية . ولكن زازا كانت تخشى معارضة أمها ، وقد آهمتها بالتشاؤم ، وبأنها ليست بعد طفلة وان السيدة ماييل تتمنى لها السعادة في آخر الأمر ، ولا بد من ان تحترم اختيارها . وما عساها يكون اعتراضها ؟ لقد كان براديل من أسرة ممتازة ، وكان كاثوليكياً ممارساً ، وواضح ان مستقبله لامع ولا شك في ان الاغريغاسيون ستؤمن له مركزاً محترماً : فان زوج ليلى لم يكن هو الآخر يتقلب على الذهب .

وهزت زازا رأسها وقالت :

— القضية ليست هنا . ففي وسطنا لا تتم الزيجات على هذا النحو ! فلقد تعرّف براديل على زازا بواسطتي ، وهذه علامة سيئة . ثم ان فكرة امكانية الزواج المؤجل ستقلق السيدة ماييل ، ولكن المهم كما رددت زازا هو أن « ذلك لا يفعل في وسطنا » وكانت قد عزمّت على انتظار العودة الى المدرسة لتحدث أمها . على انها تنوي ان تكاتب براديل في أثناء العطلة : وقد تلاحظ السيدة ماييل ذلك ، فإذا عساه يحدث ؟ وبالرغم من قلق زازا ، فانها شعرت بالأمل يغمرها حين وصلت الى لوباردون . وقد كتبت تقول لي :

« إن عندي يقيناً يتيح لي ان أنتظر بثقة وأن أتحمّل كثيراً مسن المتاعب والمعاكسات عند اللزوم . إن الحياة لرائعة . »

حين عاد هيربو الى باريس ، في مطلع تموز ، أرسل لي كلمة يدعوني فيها الى قضاء الأمسية معه . ولم يكن أهلي يوافقون على أن أخرج مع رجل متزوج ، ولكني كنت من شدة اقترابي من الافلات منهم بحيث أنهم تراجعوا عن التدخل في شؤون حياتي . وهكذا خرجت مع هيربو فشاهدنا « المسافر » وتناولنا العشاء عند « ليب » . وأبلغني ان « الاصدقاء الصغار » سينتظرونني صباح الاثنين في المدينة الجامعية وانهم يعتمدون علي في فهم ليبتتر .

و حين دخلت غرفة سارتر ذعرت بعض الشيء لاضطراب الكتب وتناثر الاوراق وأعقاب السكاير في كل مكان والدخان الكثيف المنتشر . واستقبلني سارتر بترحيب ، وكان يدخن الغليون . أما نيزان فكان صموتاً ، وكانت لفافة ملتصقة في زاوية بسمته المنحرفة ، وكان يرقبني عبر نظارتيه السميكتين وكأنه يفكر طويلاً . وقضيت النهار بطوله ، وأنا متحجرة من الحجل ، أعلّق على « الخطاب الميتافيزيقي » . وفي المساء صحبتني هيربو الى البيت .

وعدت بعد ذلك عدة مرات ، وكان الثلج يذوب عني . وكان ليبتتر يضحكنا واتفقنا ذات لحظة أننا كنا نعرفه معرفة كافية . وأخذ سارتر يشرح لنا « العقد الاجتماعي » وكانت له حوله آراء خاصة . والحق انه كان يعرف أكثر منا جميعاً مختلف المؤلفين ومختلف بنود المنهاج ، فكنا نكتفي بالاستماع اليه . وكنت أحاول أحياناً أن أناقش : فأتشاطر وأعانده ، فيقول هيربو جذلاً :

— انها أريية !

بينما يتأمل نيزان أظافره باستغراق . ولكن سارتر كان دائماً ينتصر علي . وكان يستحيل علي أن أغضب : فقد كان يبذل كل ما في

وسعه ليجعلنا نستفيد من علمه . وقد كتبت في مذكراتي : « إنسه
مدرّب فكري عجيب » وقد شُدهت بتدقيقه وفيضه لأن هذه الجلسات
لم تكن تفيده شيئاً ، وقد كان ينفق نفسه طوال ساعات بلا حساب .
وكنا نعمل خاصة في الصباح . أما بعد الظهر فقد كنا نأخذ لأنفسنا
بعد الغداء في مطعم المدينة الجامعية فرصة راحة طويلة . وكانت زوجة
نيزان ، وهي امرأة سمراء ذات جمال أخاذ ، تنضم إلينا غالباً ، فتزور
المعرض القائم في ساحة « باب أورليان » أو نلعب البليارد الياباني .. وكنا
نترامك في سيارة نيزان الصغيرة ونطوف باريس متوقفين هنا أو هناك
لنشرب قدحاً في مقهى . وفي أثناء هذه الزهات كان سارتر وهيربو
يغنيان بأعلى صوتها ألحاناً يرتجلانها . وكان لسارتر صوت جميل .
وكان يحفظ كثيراً من الاغاني ، ولا سيما أغاني الجاز الشائعة ، وكانت
مواهبه التمثيلية مشهورة في المدرسة كلها : وكان هو الذي يمثل في
المسرحية السنوية دور « المسيو لانسون » فينجح نجاحاً كبيراً . فاذا ما
تعب ، وضع أسطوانة على الفونوغراف . وكانت جدران غرفته تغني
كل يوم برسوم جديدة للحيوانات الميتافيزيقية . وكان نيزان يتخصص
في رسوم لينتز فيرسمه راهباً أو مرتدياً قبعة أو يحمل على قفاه آثار
ركلة من قدم سينوزا ...

وكنا نترك أحياناً المدينة الجامعية للتلقي في مكتب نيزان الذي كان
يسكن في منزل أهل زوجته . وكان معلقاً على جدران غرفته صورة
كبيرة للينين وصورة فينوس لبوتيشلي ، وكنت معجبة بالاثاث الحديث
والمكتبة المنظمة . وكان نيزان في طليعة الثلاثي ، وكان يتردد على
الايوساط الأدبية ، وكان قد تسجّل في الحزب الشيوعي . وقد كشف
لنا عن الأدب الايرلندي والروائيين الاميركيين الجدد . وكان مطلعاً
على الموضة الاخيرة ، وحتى موضة الغد . وكان يُعدّ مقالاً هجائياً
ضد الفلسفة الرسمية ودراسة عن « الحكمة الماركسية » وكان قلماً

يضحك ، ولكن غالباً ما يبتسم ، بقسوة . وكان حديثه يسحرني ،
ولكنني كنت أجد بعض الصعوبة في التحدث اليه بسبب لهجته الساخرة .
وكيف تراني تأقلمت بهذه السرعة ؟ كان هيربو قد حرص على ألا
يصدمني ، ولكن « الاصدقاء الصغار » الثلاثة لم يكونوا ليتكلموا قطّ
حين يجتمعون . وكانت لغتهم هجومية ، وفكرتهم حاسمة ، وعدلتهم
لا استئناف لها . وكانوا يسخرون من النظام البورجوازي ، أما أنا فقد
ظللت مخدوعة ببعض النزعات البورجوازية . وكانوا يهاجمون بلا شفقة
جميع المثاليات ويستهزئون بالروحانيات ، والارواح النبيلة وجميع
الارواح ، والحالات الروحية والحياة الداخلية ونزعات العجيب والاسرار
والنخبة الخ ... وفي جميع المناسبات ، كانوا يظهرين في أحاديثهم
وتصرفاتهم وسخرياتهم ان البشر ليسوا ارواحاً وانما هم أجساد فريسة
الحاجة ، ملقاة في مغامرة قاسية . ولو عرفتهم قبل ذلك بعام لأرعبوني
غير أنني كنت قد سرت شوطاً منذ العودة الى المدرسة ، واتفق لي
كثيراً ان شعرت بجوع الى لحم أقل تجويفاً من اللحم الذي كنت أعتدي
به . وسرعان ما فهمت ان العالم الذي يدعوني اليه أصدقائي الجدد اذا
ما بدا لي جافاً قاسياً ، فلأنهم لم يكونوا يخفون شيئاً ، أنهم لم يكونوا
يطلبون مني الا أن أحقق ما كنت أريده دائماً : أن أواجه الواقع
بصراحة . ولم أحتج الى وقت طويل لأعزم على ذلك .

١١

قال لي هيربو :
— يسعدني أن تتفاهمي جيداً مع الرفاق الصغار ، ولكن ...
فقلت :
— فهمت ما تقصد ... الحقيقة انك انت أنت ...

فابتسم :

— انك لن تصبجي أبداً « رفيقاً صغيراً » فانما أنت قدس ...
وقال لي انه غيور في الصداقة كما في الحب ، ويطلب أن يُعامل
بتغرّص وتحيّز . وكان يحافظ على حقوقه بقوة . وفي المرة الأولى التي
جرى فيها الحديث عن خروجي مع الجماعة ، هزّ رأسه قائلاً :
— كلا ! انني هذا المساء ذاهب الى السينما مع الآنسة دوبوفوار .
فقال نيزان بلهجة ساخرة :

— حسناً ، حسناً ...

وقال سارتر بلامبالاة :

— فليكن !

وكان هيربو ذلك اليوم كثير المزاح لأنه كان يضحى ان يسقط في
الامتحان ، ولأسباب غامضة أخرى تمت الى زوجته بصلة . وبعد ان
شاهدنا أحد الافلام ، قصدنا مقهى صغيراً ، ولكن حديثنا كان يفتقر
الى الحيوية . وسألني هيربو بشيء من القلق والدلال :

— هل أنت ضجرة ؟

ولم أكن ضجرة وأكن همومه كانت تُبعِدني عنه قليلاً . غير أنه
استردّ قربه مني في اليوم الذي قضيته معه بحجة مساعدته في ترجمة
« الاخلاق الى نيكوماك » . وكان قد استأجر غرفة في فندق صغير
كنا نشتغل فيها . ولكن أرسطو كان يبعث فينا الملل ، فلا نعمل
كثيراً . وقد قرأ لي هيربو مقتطفات من « أناباز » لسان جون بيرس
الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً . ثم أخذ يحدثني عن الفروق التي تجعله
مختلفاً عن سارتر ونيزان . كان هو يهب نفسه بلا تحفظات ، لمباهج
هذه الدنيا : الآثار الفنية ، الطبيعة ، الرحلات ، الدسائس والملاذات .
وقال لي :

— أما هما ، فبريدان دائماً أن يفهما ، ولا سيما سارتر !

وأضاف بلهجة ذعر معجب :

— إن سارتر يفكر الوقت كله الا حين ينام !

ورضي أن يقضي سارتر معنا أمسية ١٤ تموز . فبعد أن تناولنا العشاء في مطعم الزاسي ، جلسنا على العشب في المدينة الجامعية ، ورحنا نتفرج على الأسهم النارية التي كانت تطلق في السماء . ثم أقلنا سارتر وكان كرمه أسطورياً ، وراح يسقينا في حانة « فالستات » بمونبارناس ألواناً من الكوكتيل حتى الساعة الثانية صباحاً . وكانا يتنافسان في اللطف ويرويان لي مجموعة من القصص فأشعر بأني أطيّر فرحاً . والحق أن أختي كانت على خطأ : فقد وجدت سارتر أدعى الى التسلية من هيربوه على اننا اتفقنا نحن الثلاثة على أن هيربوه ظل يحتفظ بالمكان الأول من صداقتنا . وكان يأخذ ذراعي في الطريق دون ما تخرج . وفي الايام التالية أظهر لي من التعاق ما لم أعرفه فيه ، وكان يقول لي :

— الحق اني أحبك كثيراً يا قندس !

واتفق يوماً ان دعاني نيزان الى تناول العشاء عنده مع سارتر ، ولم يكن هيربوه حراً ليشاركنا ذلك ، فقد سألتني بلهجة لا تخلو من فرض سلطة :

— ستفكرين بي هذا المساء ، اليس كذلك ؟

وكنت أتأثر لكل لهجة من لهجات صوته . وكنت أتحدث معه بعد ظهر أحد الايام في باحة المكتبة الوطنية ، فأقبل علينا براديل ، واستقبلته بلطف . فودعني هيربوه غاضباً وتركني مزروعة هناك . وظللت أتأكل طوال الوقت . ولقيته في المساء ، لكوني قد حزنت لما حدث ، وسمعتة يقول لي يجذل :

— يا للقندس المسكين ! لقد كنت رديئاً ، اليس كذلك ؟

فصحبتة الى « الستريكس » الذي كان يسحره ورحت أروي له بعض قصصي فقال لي ضاحكاً :

- إنك لظاهرة عجيبة !

وحدثني عن نفسه وعن طفولته القروية وعن أيامه الأولى في باريس وعن زواجه . ولم يسبق لنا أن تحدثنا بمثل تلك اللهجة الصميمية . ولكننا كنا قلقين في انتظار معرفة نتيجة الامتحان التحريري في اليوم التالي . وأخبرني أنه ، اذا سقط ، فسيقصد فوراً « بانويل دو لورن » وأنه في العام القادم ، على أي حال ، سيتسلم وظيفة في الريف أو في الخارج . ووعدني بان يذهب لرؤيتي في اليموزين خلال هذا الصيف ولكنني كنت أشعر بأن شيئاً ما ينتهي بيننا .

وفي اليوم التالي ، توجهت الى السوربون خافقة القلب ، والتقيت بسارتر على الباب فأخبرني اني نجحت وكذلك هو ونيزان . أما هيربو فقد سقط . وقد غادر باريس في المساء نفسه من غير أن أراه ثانية . وقد كتب رسالة مستعجلة لسارتر يخبره فيها خبر سفره ويقول : « أحمل للقدس كل تمنياتي بالسعادة . » ولكنه ظهر بعد أسبوع وليوم واحد فقط . وقد دعاني الى « بالزار » وسألني هناك :

- ماذا تأخذين ؟

ثم أضاف :

- في أيامي ، كنت تأخذين الليمون !

فقلت له :

- انها دائماً أيامك !

فابتسم وقال :

- هذا ما أردت ان أسمعك تقولينه .

ولكننا كنا واثقين نحن الاثنين من اني كنت أكذب .

حين بشرني سارتر على باب السوربون بأني نجحت في امتحان « الاغريغاسيون » أضاف يقول : « ابتداء من الآن ، سأتعهد أمرك بنفسي » . وكان يميل الى الصداقات النسائية . وحين لمحته للمرة الأولى في « السوربون » كان يرتدي قبعة ويتحدث بلهجة حية مع فتاة طويلة خفيفة كنت أجدّها قبيحة جداً ، وسرعان ما تخلّى عنها ، وارتبط بفتاة أخرى أجمل منها ، ولكنها كانت توقعه في الارتباك ، فما لبث أن اختصم معها . وحين حدثه « هيربو » عني ، ابدى رغبته في معرفتي وها هو ذا الآن مسرور جداً بأن يتمكن من الاستئثار بي . أما أنا ، فيخيل اليّ أن جميع الأوقات التي لم أقضها معه كانت أوقاتاً ضائعة . وفي الايام الخمسة عشر التي استغرقها الاستعداد للامتحان الشفهي لم نفرق الا للنوم . وكنا نقصد السوربون لنقدم الامتحان ونستمع الى دروس زملائنا . وكنا نخرج مع « نيزان » وزوجته ، ونشرب الخمر في « بالزار » مع « أرون » و « بوليتزر » الذي كان قد تسجل في الحزب الشيوعي . وكنا غالباً ما ننتزه معاً . وكان سارتر يشتري لي ، عند أرصفة السين ، الكتب التي كان يفضلها ، ويصحبني مساء لمشاهدة الافلام « الكوبوي » التي كنت أحبها ، ونجلس على أرصفة المقاهي لتتحدث ساعات طويلة .

وكان هيربو قد وصفه لي بقوله : « انه لا ينقطع عن التفكير » ولكن هذا لم يكن يعني أنه يفرز في كل لحظة اقوالاً ونظريات . فقد كان يكره التحذلق كرهاً شديداً ، ولكن ذهنه كان متيقظاً أبداً . كان يجهل الحذر والنعاس والفرار والمدنة والحذر والاحترام . وكان يهتم لكل شيء ولا يعتبر أي شيء مبتوتاً بأمره . وكان اذا ما واجه شيئاً ينظر اليه بصراحة بدلاً من ان يتجنبه لصالح خرافة أو كلمة أو انفعال

أو فكرة مسبقة ، ولا يتركه قبل أن يستوفي أسبابه ومسبباته ومختلف معانيه . ولم يكن يتساءل عما كان يجب التفكير به ، أو ما كان التفكير به نافذاً أو ذكياً ، وإنما كان يهجم ما كان يفكر به في الواقع وكان يثير دائماً اهتمام الأشخاص الذين لم يكونوا ينفرون من الجدة ، لأنه لم يكن يقع في « الطابعية » لعدم تكلفه الابتكار . وكان ذهنه العنيد الساذج يلتقط الأشياء في ذروة حيويتها . وما كان أضيق عالمي الصغير ازاء هذه الدنيا الغنية ! ولقد استشعرت مثل هذه المذلة ، فيما بعد ، حين رأيت بعض المجانين الذين كانوا يبحثون في برعم زهرة عن عالم معتقد من المؤامرات المظلمة !

وكنا نتحدث عن أشياء كثيرة ، وخصوصاً عن موضوع كان أكثر ما يثير اهتمامي : أنا نفسي . لقد كان الآخرون ، حين يحاولون شرحي ، يلحقونني بعالمهم ، ومن أجل هذا كانوا يغيظونني ، أما سارتر فقد كان يحاول على العكس ان يوضعني في نظامي بالذات ، فكان يفهمني على ضوء قيمي ومشاريعي . وقد استمع الي بغير حماسة حين رويت له قصتي مع جاك . لقد كان عسيراً على امرأة ربيت على شاكليتي ان تتجنب الزواج : ولكن سارتر لم يكن يرى في الزواج شيئاً عظيماً . ومهما يكن من أمر فقد كان عليّ أن أحتفظ في نفسي بكل ما كان موضع الاحترام في نفسي : حبي للحرية وللحياة وفضولي وارادة الكتابة وهو لم يكتب بتشجيعي في هذا المشروع فحسب ، بل ان يساعدني فيه . وكان يكبرني بعامين - أفاد منها كثيراً - فكان أعمق مني علماً بكل شيء . ولكن تفوقه الحقيقي الذي كان يبرز لعيني انما كان يكمن في هذه الحماسية الهادئة المترنة التي كانت تدفعه نحو تلك الكتب التي كان ينوي تأليفها . لقد كنت أحسني شاذة لاني لم أكن أتصور أن أعيش من غير أن أكتب . أما هو فلا يعيش الا ليكتب . وبكل تأكيد لم يكن معولاً على ان يعيش حياة مكتب ، فقد كان

يكره الروتين والتدرج والاعمال والبيوت والحقوق والواجبات وكل شيء
رصين في الحياة . وهو لا يكاد يهضم فكرة أن تكون له مهنة وزملاء
ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض ولن يكون أبداً رب أسرة حتى ولا
رجلاً متزوجاً . لقد كان يحلم في ذلك العهد الرومانتيكي وفي أعوامه
الثلاثة والعشرين بالرحلات الكبيرة : فيواخي الجمالين في مرفأ القسطنطينية
ويشمل مع الناس في المقاهي الرخيصة ، ويطوف العالم فلا يلقى من
يحافظ معه على سره . أنه لن يزرع جذوره في أي أرض ، ولن
يربك نفسه بأي شيء يمتلكه : وليس ذلك لكي يظل على استعداد ،
من غير جدوى ، بل من أجل ان يظل شاهداً على كل شيء . ان
جميع تجاربه يجب أن تفيد كتبه ، وقد كان يبعد بلا هوادة كل تجربة
قد تنقص من قيمة هذه الكتب . وقد تناقشنا هنا طويلاً . فقد كنت
معجبة ، نظرياً على الاقل ، بحرق القوانين الموضوعية والحيات الخطرة
والبشر الضائعين والاسراف في شرب الكحول وتناول المخدرات وتعاطي
الحب . وكان سارتر يذهب الى ان كل اسراف هو عمل مجرم حين
يكون للانسان شيء يقوله . وقد كان الاثر الفني ، الاثر الادبي غاية
مطلقة في نظره ، وكان هذا الاثر يحمل في ذاته سبب وجوده ، وسبب
وجود خالقه بل وحتى سبب وجود الكون كله ، ولو لم يقل هذه
العبارة الاخيرة ، وان كنت أظن أنه مقتنع بها . وكانت المجادلات
الميتافيزيقية تدعوه الى هز كتفيه استخفافاً . وكان يهتم بالقضايا السياسية
والاجتماعية ، ولكن عمله هو كان ان يكتب ، وكل شيء آخر يأتي
في الدرجة الثانية . والحق أنه كان في تلك الفترة فوضوياً أكثر منه
ثورياً . وكان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئاً محتمراً ، ولكنه لم
يكن يحتمر أن يحتمره . وكان ما يدعوه « جمالية المعارضة » يلائم كل
الملاءمة حياة البلهاء والقدرين ، بل يوجبها : فلو لم يكن هناك ما
يحتاج الى المكافحة ما كان الأدب شيئاً عظيماً .

وقد وجدت صلة نسب قوية بين موقفه وموقفني . فانه لم يكن في
مطامحه أي تكلف للظهور ، وانما كان يبحث عن السعادة في الادب .
لقد كانت الكتب تدخل في هذا العالم العارض الى حد يرثى له ضرورة
تعود فتدفع على مؤلفها ، فينبغي له ان يقول بعض الاشياء واذ ذاك
يصبح مبرراً كل التبرير . وكان على قدر كاف من الصبا ليتأثر
بشأن مصيره حين كان يسمع نغم « ساكسفون » بعد أن يكون قد
شرب ثلاثة أقذاح من المارتيني . ولكنه كان يقبل أن يغفل اسمه لو
لزم الأمر : المهم ان تنتصر أفكاره ، لا أن تنتصر أعماله الخاصة .
ولم يكن قط ليقول لنفسه انه كان « أهدأ » وان له « قيمة » ،
بخلاف ما كان يحدث لي . ولكنه كان يعتقد أن حقائق هامة قد
انكشفت له ، وان مهمته أن يفرضها في العالم . وقد أطلعني على مذكرات
ومحادثات ، وحتى بعض الفروض المدرسية ، التي كان يؤكد فيها بعناد
مجموعة من الافكار كان انسجامها وجدتها يدهشان أصدقاءه . وكان
قد عرض هذه الافكار بصورة منظمة بمناسبة تحقيق قامت به مجلة
« لينوفيل ليتيرير » ، فبرزت منها فلسفة برمتها لم تكن لها أية علاقة
بتلك التي كانوا يدرسوننا اياها في السوربون :

« انه لا كبر تناقض في الفكر الا يستطيع الانسان الذي تتلخص
مهمته في ان يخلق الضروري ، أن يرتفع هو نفسه الى مستوى الكائن
شأنه في ذلك شأن العرافين الذين يتنبأون بالمستقبل لسواهم ، لا لأنفسهم ،
ومن أجل هذا أرى في أعماق الكائن الانساني ، كما في أعماق الطبيعة ،
الحزن والضجر . وليس مرد ذلك أن الانسان لا يفكر بنفسه ككائن ،
فالواقع أنه يبذل في ذلك قصارى جهده ، ومن هنا منشأ فكرتي
« الخير » و « الشر » ، فكرتي الانسان المفكر بالانسان . وانها لفكرتان
عابثتان . وعابثة ايضاً هي فكرة الحتمية التي تحاول محاولة تبعث على
الفضول أن تحقق تركيب الوجود والكائن . اننا أحرار الى أي حد

تريده ... ولكننا مع ذلك عاجزون . أما ما يبقى بعد ذلك ، من ارادة القدرة والعمل والحياة فليس الا ابيولوجيات عابثة . فليس هناك في أي مكان ارادة القدرة ، لان كل شيء أضعف مما ينبغي ، وجميع الاشياء تميل الى الموت . والمغامرة هي على الاخص خدعة ، أقصد ذلك الايمان بمصادفات تتحد بالضرورة . ان المغامر انسان حتمي غير منطقي يفرض في نفسه أنه حر . »

وينهي سارتر آراءه مقارناً جيله بالجيل الذي سبقه : « اننا أكثر شقاء ولكننا أجدر بالعطف والحب . »

وقد أضحكني هذه العبارة الاخيرة . ولكني أدركت وأنا أتحدث الى سارتر غنى ما كان يسميه « نظرية العرض » التي كانت تحوي بنور آرائه عن الكائن والوجود والضرورة والحرية . واصبح بديهياً عندي انه سيكتب يوماً كتاباً فلسفياً ذا شأن . غير أنه لم يكن يعتبر مهمته يسيرة ، لانه لم يكن ينوي تأليف كتاب نظري وفق الاصول التقليدية . لقد كان يحب سبينوزا وستاندال على قدر المساواة ويرفض فصل الفلسفة عن الادب . ولم يكن العرض في نظره فكرة مجردة ، بل كان بعداً حقيقياً من أبعاد العالم : فمن الواجب اللجوء الى جميع مصادر الفن ليشعر القلب الانساني بهذا « الضعف » الذي كان يلحظه في الانسان والاشياء . ولقد كانت هذه المحاولة في ذلك العهد شاذة جداً ، اذ كان من المستحيل استلهاهم أي طراز أو أي نموذج . وبقدر ما أدهشني فكر سارتر بنضجه ، آذاني شذوذ المحاولات التي كان يعبر بها عنه ، وكان ياجأ الى الخرافة والاسطورة ليقدم فكرته بحقيقتها الفريدة . ولم يكن يأخذ القلق لذلك ، فان أي نجاح لم يكن على أية حال كافياً ليكون أساسياً لثقتة في المستقبل . كان يعرف ما الذي يريد ان يعمله وكانت الحياة أمامه ، وسوف ينتهي به الأمر الى القيام به . ولم أكن أشك في ذلك قط : لقد كانت صحته ومزاجه الرضي يصمدان امام

جميع المحن : ولا ريب في أن يقينه كان يغطي عزمًا جذرياً لا بد أن يوتي ثماره ذات يوم بطريقة ما .

كانت هذه هي المرة الاولى التي أشعر فيها بأن انساناً يستولي علي فكرياً . وقد كنت أقيس نفسي بسارتر كل يوم ، فأجد اني لا وزن لي ازاءه في المناقشات . وقد عرضت له ذات صباح في حديقة اللكسمبورغ ، بالقرب من نبع « مديسيس » ، هذه الاخلاقية المتعددة التي صنعتها لنفسي لابرر الاشخاص الذين كنت أحبهم ولكني لم أكن أريد أن أشبههم ، فاذا هو يحطمها شر تحطيم . وقد كنت حريصة علي هذه النظرية لانها كانت تتيح لي ان أتخذ قلبي حكماً للخير والشر . وقد جادلته وأنا أتخبط طوال ثلاث ساعات ، وكان علي بعد ذلك ان أعترف بهزيمتي ، ثم اني لاحظت في أثناء النقاش ان كثيراً من آرائي لم تكن تعتمد الا على نزعات متغرضة أو على تضليل أو على عناد ، وان حججتي كانت عرجاء ، وان أفكارني كانت مضطربة . وقد سجلت في مذكراتي « لست بعد على يقين مما أفكر به ، بل لست على يقين أنني كنت أفكر حقاً ! » وأصبحت أشد ميلاً لأن أتعلم مني لأن أبرز . علي أنه كان حادثاً جدياً ، بعد تلك السنوات من الوحدة القتالة ، ان أكتشف اني لم أكن « الفريدة » ولا « الأولى » : وانما كنت واحدة بين الاخريات غير واثقة من قدراتها الحقيقية . بيد ان همتي لم تثبط . صحيح ان المستقبل بدا لي فجأة أشق مما كنت أتصور ، ولكنه كان كذلك أوفر واقعية وأكثر ضماناً . فقد رأيت حقلاً محددًا يفتح أمامي بمشكلاته ومهامه ومواده وآلاته ووسائل مقاومته ويحل محل إمكانيات لا شكل لها . وكففت عن أن أتساءل : ماذا أفعل ؟ كان أمامي أن أفعل كل شيء ، كل ما تمنيت في الماضي أن أفعله : أن أكافح الخطأ وأن أجد الحقيقة وأقولها وأضيء بها الدنيا ، بل وقد أساعد علي تغييرها . وكنت بحاجة الى الوقت والجهد

لأني ولو جزءاً من الوعود التي قطعتها على نفسي : ولكن ذلك لم يكن
لرعبني . فلئن كنت لم أربح شيئاً ، فان كل شيء يظل مع ذلك
ممكناً .

ثم ان حظاً كبيراً يوهب الآن لي : اني لم أكن وحدي فجأة
تجاه المستقبل . وقد كان الرجال الذين عرفتهم حتى الآن وتعلقت بهم
- كجاك وهيربو - من غير نوعي : متحللين غير مستقرين وكأن
قدراً مشؤوماً يلاحقهم ، وكان من المستحيل ان أنعاطي معهم دون
تحفظ . أما سارتر فكان يستجيب أتم الاستجابة لرغبات أعوامي الخمسة
عشر : كان الانسان الصنو الذي أجد فيه جميع رغباتي وقد بلغت
حالة التوهج . وسوف أتمكن معه من ان أقاسمه كل شيء دائماً .
وحين تركت سارتر في مطلع شهر آب ، كنت أعلم انه لن يخرج
من حياتي بعد أبداً .
ولكن قبل ان تأخذ حياتي هذه شكلها النهائي ، كان عليّ أن أوضح
علاقاتي بجاك .

١٣

ماذا عساي استشعره حين أجدني وجهاً لوجه مع ماضيّ ؟ لقد
كنت أتساءل عن ذلك بقلق حين عدت في منتصف شهر أيلول من
« مارينيك » فقرعت جرس باب أسرة « ليغيون » . وخرج جاك من
غرفة المكتب فشدّ على يدي وابتسم لي ثم أضعني الى البيت .
وجلست على الاريغة الحمراء ورحت أصغي اليه وهو يتحدثني عن
خدمته العسكرية وعن أفريقيا وعن ضجره . وكنت مسرورة ، بيد
اني لم أكن قطّ منفعلة ، وقلت له :

— ما أيسر أن نلتقي من جديد !

فأمرّ يده في شعره وأجاب :

— لقد آن لنا ذلك !

وعدت أرى حركاته وأسمع نبرات صوته المعهودة ، وأحسّتي أعرفه أكثر مما ينبغي وقد كتبت مساء على دفّرتي « اني لن أتزوجه ابداً فأنا لم أعد أحبه » . والحق ان هذه التصفية القاسية لم تُرْ دهشتي : « ان من البدهي اني في اللحظات التي كنت أحبه فيها أشدّ الحب ، كان هناك فيما بيننا خلاف عميق لن أتغلب عليه الا اذا عدت عن ماهيتي ، أو اني كنت آنذاك أثور على الحب . » ولقد كذبت على نفسي اذ كنت اتصنّع انتظار هذه المقارنة لأرسم لمستقبلي طريقه ، فلقد كان الأمر منتهياً منذ أسابيع وأسابيع .

وكانت باريس ما تزال خالية ، ولقد رأيت جاك كثيراً في تلك الفترة ، فروى لي قصته مع ماغدة بأسلوب قصصي . وحدثته من جهتي ، عن صداقاتي الجديدة ، فلم يبد عليه انه يقدرها . أتراه قد أخذته الغيرة ؟ وماذا كنت بالنسبة له ؟ وماذا كان ينتظر مني ؟ اني لا أستطيع أن أعرف ذلك لا سيما وأنه كان يقوم بيننا دائماً أشخاص آخرون اذ كنا نجتمع في بيته أو في الستريكس : كنا نخرج مع ريكيه ومع أولغا . وتألّت قليلاً . لقد سبق لي ، اذ كنا متباعدين ، ان ملأت جاك بحبي ، أما اذا سألتني الآن عن هذا الحب ، فان يديّ فارغتان منه . ولم يسألني عن شيء ، ولكنه كان يذكر مستقبله أحياناً بلهجة تشوبها قدرية غامضة .

ودعوته ذات مساء مع ريكيه وأولغا وأختي لتدشين منزلي الجديد . وكان أبي قد أنفق على تأثيثه وكان يروق لي كثيراً . وساعدتني أختي على أن أملاً الطاولة بزجاجات الكونياك والاقداح والصحون والحلويات الصغيرة . وقد وصلت أولغا متأخرة ، وكانت وحدها ، وهذا ما

خيِّب أملنا . ومع ذلك ، فبعد كأسين أو ثلاث انتعشت المحادثة ،
ورحنا نتساءل عن جاك وعن مستقبله . فقالت أولغا :

— ان كل شيء يتوقف على زوجته !

وأضافت بعد أن تنهَّدت :

— ومع الاسف ، لا أعتقد أنها خلقت له !

فسألتها :

— من هي هذه التي تتحدثين عنها ؟

—إنها أوديل ريوكور . ألم تكوني تعرفين أنه سيتزوج أخت لوسيان ؟

فقلت مذعورة :

— كلا ..

فأخذت تروي لي التفاصيل :

كان جاك ، بعد عودته من الجزائر ، قد أمضى ثلاثة أسابيع
في أملاك أسرة ريوكور ، فوقعت الصغيرة في حبه وصارحت أهلها
برغبته في أن تتخذه لها زوجاً ، فوافق جاك على ذلك . وكان
لا يكاد يعرفها ، ولولا مهرها الكبير لما كانت لها ، في رأي أولغا ،
أية ميزة خاصة . وأدركت لماذا لم اكن التقي بجاك وحدنا : فإنه لم
يكن يجرؤ على الكلام ولا على الصمت . وإذا كان قد تغيب ذلك
المساء عن الحضور ، فلكي يترك الفرصة لأولغا لكي تطلعني على
الحقيقة . ولقد تظاهرت باللامبالاة ، ولكنني ما كدت أختلي . باختي
حتى رحنا نعبّر عن ألمنا وتبرمنا . ورحنا نسبر وقتاً طويلاً في
شوارع باريس ونحن نشعر بالحزن أن يتحوّل بطل حياتنا إلى
بورجوازي دقيق الحساب .

وحين عدت لأرى جاك ، حدثني ببعض الارتباك عن خطيبته
وعن اهتمامه بتبعاته الجديدة . وتلقيت منه ذات مساء رسالة
عجبية يقول لي فيها انه هو الذي فتح لي الطريق ، وها هو ذا

الآن متخلف تتقاذفه الرياح ، من غير أن يستطيع اللحاق بي :
« أضيفي إلى ذلك ان الريح إذا رافقت التعب تحمل دائماً على
الكاء » ، ولقد أثرت بي هذه العبارة تأثيراً شديداً ، ولكنني لم
أجِب عليها ، لأنه لم يكن ثمة ما أجيب به . إنها على أي حال
قصة قد انتهت .

وماذا كان معنى هذه القصة بالنسبة لجاك ؟ وهو نفسه من كان ؟
لقد كنت مخطئة حين حسبت ان زواجه يكشف لي حقيقته ، وانه بعد
أزمة من الرومانتيكية الطفولية سيصبح بهدوء ذلك البورجوازي
الذي كانه .

ولقد رأيته مراراً مع زوجته بعد ذلك ، وكانت علاقتهما تراوح
بين العذوبة والمرارة . وكادت علاقتي به تنقطع ، ولكنني ما لبثت أن
رأيته كثيراً في حانات مونبارناس ، وحيداً ، كالح الوجه ، داعم
العينين ، يبدو عليه بوضوح انه ممتلئ خمراً .

وقد رزق جاك خمسة أولاد أو ستة ، ثم رمى نفسه في مشروع
خطر ، بأن نقل أثاث مصنعه إلى مخزن زميل له ، وهدم مصنع
ليغيون ليقيم محله بناية كبيرة للأجار ، وأكن بعد هدم البيت لم يستطع
أن يجمع المال الكافي لإقامة البناء الكبير ، واختصم مع والد
زوجته ومع أمه ، وكان كلاهما قد رفض الدخول في هذه المغامرة .
أما هو فقد أنفق جميع ما كان معه ثم رهن المصنع وما لبث أن باعه .
واشتغل بضعة أشهر في مخزن زميله ولكن لم يمض عليه وقت قصير حتى
طُرد من العمل .

وحتى لو سلك جاك مسلك الحكمة ونجح في مجازفته ،
فقد كان هناك مجال للتساؤل : لماذا أراد أن يصفّي
المصنع ..؟

ففي السنوات التي تلت معرض ١٩٢٥ ، انتشرت الفنون الترينية

انتشاراً كبيراً ، فتحمّس جاك للتجميل الحديث وفكّر بأن الزجاجيات تكشف عن امكانيات ضخمة ، وكان هذا صحيحاً بصورة تجريدية ، ولكنه لم يكن كذلك عند التطبيق . فقد كان لابدّ في الاثاث والزجاجيات والاقمشة والورق الملون من الاختراع لأن الزبائن البورجوازيين كانوا بحاجة إلى التجديد ، ولكن جاك كان قد اكتفى من قبل بارتضاء بعض رهبان الريف ذوي الاذواق المتخلّفة ، فكان عليه إما أن يهدم نفسه أو أن يخلّد إلى الابد بشاعة زجاجيات ليغيون التقليدية ، وكانت البشاعة تنفّره ، ولهذا آثر أن يقذف نفسه في أشغال لم تكن تمت إلى الفن بصلة .

وعاش جاك فترة من الزمن بلا مال ولا عمل ، متعلقاً بذيل زوجته التي كان ابوها يقدم لها إعانة مالية . ولكن الامور بينهما كانت إلى سوء . لقد كان جاك وهو الكسول البليد المسرف السكير الكاذب - زوجاً يستحق الاحتقار . وقد انتهى الأمر باوديل إلى طلب الانفصال وإلى طرده من البيت .

وكان قد مضى عليّ عشرون سنة لم أره فيها حين التقيت به مصادفة في شارع سان جرمان . وكان آنذاك في الخامسة والاربعين ، ولكنه كان يبدو في الستين : كان شعره قد ابيض تماماً واحتقنت عيناه ، وكان الاسراف في ادمان الخمر قد أحاله إلى نصف أعمى . ولم يبق له نظر ولا ابتسامة ولا بشرة ، حتى أن وجهه وقد تقلّص إلى العظام أصبح يشبه في ملامحه كلها وجه جده فلاندا . وكان يكسب خمسة وعشرين الف فرنك في الشهر في عمل كتابي غامض في احدى محطات شاطئ السين . وكان يرتدي ثياب المتشردين ، وكان ينام في الاكواخ ، وكان يشرب الخمر ما وسعه ذلك ولا يكاد يأكل الطعام . ولم يمض عليه وقت طويل حتى فقد عمله ووجد نفسه من غير مورد على الاطلاق ، وكان إذا لجأ إلى أمه أو أخيه ليطلب منها ما

يأكله ، كانا يوبّخانه ، ولم يكن يعينه إلاّ اخته وبعض أصدقائه .
ولكن مساعدته لم تكن أمراً يسيراً ، إذ انه لم يكن يبذل أي جهد
ليساعد نفسه ، وكان مهترئاً حتى العظم .
ومات جاك في السادسة والاربعين من فرط ضعفه الجسمي .

*

قال لي جاك حين التقينا بعد عشرين سنة من فراقنا ، وهو يشدّ على
يدي بجمرة :

- آه ! لماذا لم أتزوجك ؟ يا للخسارة ! ولكن أمتي كانت تردد
على مسمعي بلا انقطاع : إن الزواج بين الاقارب ملعون !
وإذن ، فقد فكّر بأن يتزوجني ! ولكن متى غير رأيي ، ولماذا
على الضبط ؟ ولماذا سارع إلى ذلك الزواج العاقل في تلك السن
المبكرة ، بدل ان يمضي في حياة العزوبة ؟ اني لم أفلح في ادراك
سبب ذلك ، ولعله هو نفسه لم يكن يدرك السبب لفرط ما غشي عقله
الضباب . ثم اني لم أحاول ان أسأله عن سبب سقوطه لأن همّة الاول
كاد أن ينسيني إياه . وكان في الايام التي يرتدي فيها قميصاً نظيفاً
ويكون قد اكل حتى الشبع يحدثني بفخر عن أجداد اسرة ليغيون ،
ويتحدث بلهجة البورجوازي الكبير . وكان يتنق لي ان أقول لنفسي
إنه لو نجح لما كان خيراً من الآخرين ، ولكن هذه القسوة كانت
في غير محلّها ، فانه لم يستطع هذا السقوط الذريع بداعي المصادفة .
فهو لم يكتف بسقوط وسط ، وقد كان بالامكان مؤاخذه على أمور
كثيرة ، ولكنه على أي حال لم يكن قط مسكيناً ، وكان قد تدرج
إلى مكان منحطّ جداً حتى انه كان مأخوذاً من غير ريب بـ « جنون
التهديم » الذي كنت أعزوه إلى شبابه . ولا شك في انه قد تزوج
ليتخفّف من المسؤوليات ، وقد حسب انه يولّد في نفسه ، إذا
ضحى بملذاته وحرите ، انساناً جديداً مقتنعاً كل الاقتناع بواجباته

وحقوقه ، مخلوقاً لمكتبه وبيته . ولكن التطوع لا يجدي : فقد بقي هو نفسه ، عاجزاً عن أن يتجسّد في جلد بورجوازي وعن أن يتحرّر منه في وقت واحد . فاذا هو يلجأ إلى الحانات ليهرب فيها من صفته كزوج وكربّ اسرة . وفي الوقت ذاته كان يحاول أن يرتفع في سلّم القيم البورجوازية ، ولكن بدون عمل صابر مستمرّ . كان يحاول ذلك بقفزة واحدة ، ولقد قام بها ولكن بسوء حكمة وتصرف حتى ان رغبته الخفية كانت تبدو في ان بودّه ان يحطم ضلوعه . ولا شك في ان هذا المصير كان مرتبطاً بقلب الصبي الصغير المهجور المذعور الذي كان في السابعة من عمره يتجول كالسيد المطلق بين أمجاد مصنع ليغنون وغباره ، ولئن كان في شبابه محشّناً دائماً على أن « يعيش كجميع الناس » فلأنه كان يشكّ في أن يستطيع ان يعيش هو كذلك .

١٤

بينما كان مستقبلي يتقرّر ، كانت زازا ، من جهتها ، تصارع من أجل سعادتها . وقد كانت رسالتها الأولى تشعّ أملاً . أما الثانية فكانت أقلّ تفاؤلاً . وقد كتبت لي بعد أن هنّأتني بنجاحي في « الاغريغاسيون » تقول :

« انه لشاق عليّ جداً في هذه الفترة أن أكون بعيدة عنك . فكم أنا بحاجة إلى ان احديثك حديثاً متقطعاً لادقة فيه ولا تفكير حول حياتي منذ ثلاثة أسابيع . لقد عشت ، حتى يوم الجمعة الماضي ، قلقاً فظيماً وصعوبات جمّة ، تخلّلتها بعض لحظات من الفرح . وفي ذلك اليوم تلقيت من براديل رسالة طويلة بعض الشيء ، قيلت فيها أمور أكثر ، وأتاحت لي كلمات أكثر ان أتعلّق بشواهد لا تُدحض من أجل ان أناضل ضدّ شكّ لا أفلح في التخلص منه تماماً . انسي

أقبل ، بدون مشقة نسبياً ، صعوبات ثقيلة ، واستحالة التحدث عن هذا مع أمي ، في اللحظة الحاضرة ، وامكانية انقضاء وقت طويل قبل أن تتضح علاقتي مع « ب » (وهذا في الواقع لا أهمية له ما دام الحاضر يملأني ويكفيني) ولكن أشقّ ما ينتابني هذه الشكوك وتلك الذبذبات والوان الفراغ تلك التي تحملني على التساؤل أحياناً عما إذا لم يكن كل ما حدث حلاً . وحين تعود الفرحة في امتلائها ، أستشعر الخجل من اني كنت من الجبن بحيث لم أعد أوّمن بها . والحق انه يصعب عليّ ان اوفق بين « ب » في حالته الحاضرة وبينه منذ ثلاثة أسابيع ، واني اربط ربطاً رديئاً بين رسائله وبين لقاءات تمت بيننا حديثاً وكنا لانزال فيها متباعدين غامضين : ويخيل إليّ أحياناً ان الأمر لا يعدو أن يكون لعبة ، وان كل شيء سيسقط فجأة في الواقع ، في الصمت الذي عرفته منذ ثلاثة أسابيع . فكيف لي أن افعل لكي أراه من غير أن تأخذني الرغبة بأن أفرّ ، هذا الفتى الذي كتبت له أشياء كثيرة ، وبسهولة كبيرة ، والذي لا اجرؤ أمامه على أن افتح فمي الآن لفرط ما يخيفني من حضوره . آه ! ما الذي اكتبه لك الآن ولا احسن التعبير عنه ! إن شيئاً واحداً يستحق ان يُقال لك ، وهو ان هناك لحظات رائعة تسقط فيها جميع هذه الشكوك وهذه المصاعب مني كأنها أشياء فارغة من المعنى ، لحظات رائعة لا أشعر فيها بغير فرح لا يعكّره شيء ، فرح يعلو على جميع هذه الالوان من البؤس ويملأني كلياً . ويكفي ان أفكر بأن هذا الفرح موجود حتى انفعل حتى إلى حد ان تنهمر دموعي ، وحين اذكر ان هذا الفرح هو من أجلي وانه موجود بسببي أشعر بأن قلبي يتوقف عن الخفق توقفاً مؤلماً تحت ثقل سعادة عظيمة . هأنذا يا سيمون كما أصبحت . اني لا أملك الشجاعة هذا المساء لاحدثك عن الحياة التي أسوقها . إن الفرح الكبير الذي يشعّ من الداخل يمنح بعض الأشياء الصغيرة ثمناً بالغاً في هذه الايام . ولكن ما يتعبني

حقاً ان اراني مضطرة ، رغم كثافة الحياة الداخلية التي أعيشها ورغم حاجتي الشديدة إلى الوحدة ، نزهاتي هنا وهناك والنس والبهو .. إن اللحظة الوحيدة الهامة من لحظات اليوم هي لحظة وصول البريد .. وأنا لم أحبك قط ، يا عزيزتي سيمون ، كما احبك الآن واني قريبة منك بكل مشاعر فؤادي .»

ولقد أجبته برسالة مطولة حاولت فيها أن أشدّ ازرها ، فكتبت لي في الاسبوع التالي تقول :

« لقد بدأت أصبح سعيدة سعادة هادئة يا عزيزتي ، يا عزيزتي سيمون ، وما أروع هذا ! إنني الآن على يقين بأن ليس هناك ما يمكن ان يخطفني ، يقين عذب انتصر على المصاعب وعلى جميع ثوراتي . حين تلقيت رسالتك ... لم أكن قد خرجت بعد من الضيق . ولم تكن لي ثقة بنفسني تكفي لكي احسن قراءة الرسائل اللطيفة جداً والصامتة جداً التي كان براديل يكتبها لي ، حتى اني كتبت له ، بدافع من حركة تشاؤمية حمقاء ، رسالة وصفها ، من غير مبالغة ، بأنها « متوحشة بعض الشيء » . أما رسالتك فقد أتت تردّ لي الروح ... ولقد بقيت معك ، منذ وصول رسالتك ، صامتة ، ومعك انت قرأت الرسالة التي تلقيتها يوم السبت من براديل والتي أتت تنجز فرحي وتجعله خفيفاً نضراً بحيث يرافقه منذ ثلاثة أيام جذل طفل في الثامنة . لقد خشيت ان تفسد رسالتي الظالمة الالاق من جديد ، ولكنه ردّ عليها ردّاً متفهماً ذكياً بحيث عاد كل شيء ، على خلاف ما كنت انتظر ، يسيراً ومدهشاً . انني لا أعتقد ان بالامكان توييخ الناس بطريقة لطيفة ، ومحاكمتهم وتبرئتهم واقناعهم - في مزيد من المرح والجذل- بأن كل شيء يسير ، وان كل شيء جميل ، وانه يجب الايمان بذلك .»

ولكن ما لبثت صعوبات أخرى ، أدعى إلى الخوف ، ان برزت .

فقد تلقيت في أواخر آب رسالة أحزنتني :

« لا ينبغي لك ان تعتبي عليّ لهذا السكوت الذي تجاوز حدّه ...
أنت تعرفين ما هي الحياة في لوباردون .. لقد كان عليّ ان ارى اناساً
كثيرين ، وان أقصد إلى « لورد » للبقاء خمسة أيام، وقد عدنا
منها يوم الأحد ، وسوف نستقل غداً القطار ، أنا وبييل ، لنلتحق
باسرة « برافيل » في مقاطعة « ارياج » . وتعرفين ان بوسعي ان استغني
عن جميع هذه التسلّيات ، فمن المريع جداً ان يتسلّى المرء حين لا
يشعر بأية حاجة للتسلية . ثم إني بأشد الحاجة إلى الهدوء ، لا سيما
وان الحياة تكون شاقّة بعض الوقت ، من غير أن تفقد روعتها .
لقد راودتني وساوس أوشكت ان تسمّم فرحتي ، فدفعتنني إلى أن
احدث أُمي التي كان موقفها المتسائل القلق المحاذر يجلب لي ألماً شديداً .
ولكن ، لما لم يكن في استطاعتي أن أصارحها إلاّ بنصف الحقيقة ، فان
نتيجة اعترافي كانت اني لن أستطيع بعدُ ان اكتب لبراديل وان أُمي
طلبت ان أنقطع عن لقائه ، حتى إشعار آخر . وقد كان هذا قاسياً ،
بل مريعاً . واني إذ أفكر بما كانت تعنيه لي تلك الرسائل التي أجبرتُ
الآن على العدول عنها ، وحين أتخيّل هذه السنة الطويلة التي كنت
انتظر منها شيئاً كثيراً وأتصوّر انها ستكون خالية من تلك اللقاءات التي
لا بد أن تكون رائعة ، فانّ غصّة خانقة تأخذ بمنجرتي ، ويتقبض
قلبي حتى أحسّ منه بالألم . لا بدّ ان نعيش مفترقتين تماماً - فيا
للفظاعة ! واني استسلم ، فيما يخصني ، أما فيما يخصه فانّ الأمر يشقّ
عليّ كثيراً . إن التفكير بأنه قد يتألم بسببي يثرنني : لقد تعودت منذ
وقت طويل على الألم حتى أصبحت أعتبره شيئاً طبيعياً . أما ان ارتضيه
له ، هو الذي لا يستحقّه قط ، هو الذي اودّ لو اراه ابداً متفتحاً
للسعادة كما كان يوم جلس بيني وبينك على مقعد في غابة بولونيا ...
آه ما أمرّ هذا ! إنّ من تلقّيت مثلي هذا الشيء العظيم الذي أحسّه

قِيّ نقيّاً صافياً ، يستطيع أن يتحمّل كل شيء . فان أهمّ ما في سعادتني ليس مرهوناً للظروف الخارجية : ومن أجل ان يُدرك أو يُمسّ ، لا بدّ من صعوبة تصدر مباشرة عنه أو عني . ولكن هذا ليس مما نخشى بعد ، لأن الانفلاق العميق هو من الاكتمال بحيث انه هو أيضاً يتكلم حين يصغي إليّ ، واني أنا أيضاً اتكلم حين أصغي اليه ، وليس باستطاعتنا الآن بعد أن انفصل واقعياً برغم الانفصال الظاهر . وما نفتأ فرحتي تسيطر على جميع الافكار القاسية فتزداد ارتفاعاً وتنتشر فوق جميع الأشياء ... بالأمس ، بعد أن كتبت لبراديل الرسالة التي شقّ عليّ كثيراً ان اكتبها ، تلقيت منه كلمة تفيض بذلك الحب العجيب للحياة الذي كان عنده ، حتى ذلك التاريخ ، أقلّ حساسية مما كان عندك . والفرق انه لم يكن تماماً تلك الأغنية الملحدة في صدر السيدة العزيزة التي لا تمها الأخلاق . لقد كان يحدثني ، بصدد خطبة اخته ، عما تفجره عبارة « التمجيد الصافي للعالم » من حماسة « لحياة تصادق عدوبة جميع الأشياء الأرضية » . فما أقسى ان أنقطع الآن ، يا سيمون ، عن تلقّي صفحات رائعة كالتّي تلقيتها أمس . يجب ان نؤمن حقاً بقيمة الألم ، ولست بالطبع جديرة بأن أتمنى حمل الصليب مع المسيح لأرتضي ذلك من غير ان احتج أو أتمتم . ولكن لنندع ذلك . إن الحياة رائعة رغم كل شيء ، وسوف اكون عاقبة بصورة مريعة إذا لم أشعر الآن اني أفيض عرفاناً بالجميل . اترى هناك كثير من الكائنات في العالم يملكون ما تملكين انت وما أملك أنا أو يعرفون شيئاً قريباً من ذلك ؟ وهل ترانا ندفع أغلى مما ينبغي حين نتحمّل من أجل هذه الثروة الثمينة أيّ شيء ، وكل ما يبدو ضرورياً وطوال الوقت الذي يتطلبه ؟ إن ليلي وزوجها هما عندنا في هذه الفترة ، واعتقد انها منذ ثلاثة أسابيع لم يتحدثا في غير موضوع مسكنهما وما سيكلفه تأثيثه . انها لطيفان ، وأنا لا آخذ عليهما شيئاً . ولكن اية

تعزية لي الآن في أن اوقن بأنه لن يكون بين حياتها وحياتي أي شيء مشترك ، وان أشعر بأنني انا التي لا أملك شيئاً خارجياً أغني عنهما ألف مرة ، واني ازاء هؤلاء الاشخاص الذين هم بالنسبة إليّ اغرابٌ أكثر من حصي الطريق ، من بعض النواحي على الاقل ، لن أكون ابداً وحيدة ؟ »

واقترحت حلاًّ بدا لي انه يفرض نفسه : لقد كانت السيدة مايبيل قلقة من علاقات زازا الحائرة بيراديل . فلم يكن عليه إلا أن يتقدم منها بطلب يد ابنتها بالشكليات المعهودة . ولكنني تلقيت ، جواباً على هذا الاقتراح ، الرسالة التالية :

« حين عدت أمس من مقاطعة « الارياج » حيث قضيت عشرة أيام مرهقة على أي حال ، وجدت هنا رسالتك التي كنت أنتظرها . ومنذ ان قرأتها لا أفعل شيئاً الا أن أجيب عليها ، والا أن اتحدث اليك على مهل بالرغم من المشاغل والتعب وكل شيء خارجي . إن الشيء الخارجى مريع . وفي الأيام العشرة التي قضيتها في ضيافة آل برافيل ، كانت بيبييل في غرفتي ، فلم أكن وحدي دقيقة واحدة . وكنت ممن العجز عن احتمال أية نظرة بوجهها احدٌ إليّ بينما كنت أكتب بعض الرسائل بحيث وجب عليّ ان أنتظر ان تنام بيبييل لأنهمض إلى الكتابة بين الثانية والخامسة أو السادسة صباحاً . وكان علينا في النهار أن نقوم بنزهات طويلة وان استجيب بكل عناية لاستقبال الناس الذين كانوا يلقوننا : وان الصفحات الأخيرة التي تلقّاها « ب » مني تكشف عن تعبي الفظيع . ولقد قرأت رسالته الأخيرة في حالة من الارهاق يخيل لي الآن اني لم أفهم معها بعض المقاطع . وربما خلف الجواب الذي ارسلته له بعض الألم في نفسه ، فأنا لم احسن التعبير عما كنت اودّ ان اقله له ، وهذا كله يحزنني قليلاً ، ولئن لم اعترف لنفسى حتى الآن بأية ميزة ، فاني أشعر اني اكتسب هذه الايام بعض الميزات لشدة حاجتي إلى الارادة من

أجل مقاومة رغبتني في أن أكتب له كل ما أفكر به وكل هذه الاشياء
 البليغة المقنعة التي أحتج بها ، في أعماق قلبي ، على طلبات الصفح
 التي يوجهها لي بصورة لاواعية . وأنا لا أودّ يا سيمون ان اكتب
 لـ « ب » من خلالك ، فهذا نفاق اسوأ في نظري من عصيان القرارات
 التي ليس لي ان أناقشها بعد . ولكن تعاودني مقاطع من رسائله الأخيرة
 لم أجب عليها إجابة كافية ، وهي ما تفتأ تمزقني . « لا بدّ ان بعض
 رسائلي قد جلبت لك الخيبة . » « لا بدّ ان يكون الصدق الذي حدثتك
 به قد حمل لك الارهاق وبعض الحزن . » وعبارات اخرى تأثرت لها
 كثيراً . فأنت يا سيمون التي تعرفين الفرح الذي أنا مدينة به لـ « ب » ،
 وان كل كلمة من الكلمات التي قالها او كتبها لي لم يكن من شأنها الا
 ان تعمق وتؤكد اعجابي وحببي له ، انت التي كنت ترين من كنت ومن
 انا الآن ، ما كان ينقصني وما أعطاني اياه . : أوه ! حاولي يا سيمون
 ان تفهميه قليلاً اني مدينة له بكل الجمال الذي تفيض به الآن حياتي ،
 وانه ليس فيه شيء الا وهو عندي عزيز أثير ، وان من الجنون ان
 يعتذر عما يقول أو عن الرسائل التي أدرك جمالها وعذوبتها العميقة أكثر
 فأكثر كلما عاودت قراءتها . قولي له يا سيمون ، انت التي تعرفيني
 كلياً والتي تابعت في هذه السنة جميع خفقات قلبي ، انه ليس في العالم
 كله كائن سواه قد وهبني أو يستطيع ان يهبني السعادة خالصة والفرحة
 الكبرى التي اراني غير جديرة بها .

« وإذا اتيح للمسمى الذي تقترحينه يا سيمون ان يتحقق ، فان جميع
 الامور ستكون أيسر في هذا الشتاء . واعتقد ان براديل لا يقوم بهذه
 الخطوة لاسباب وجيهة في نظره ونظري . ففي هذه الحالة ، قد لا
 تطلب امي مني الانقطاع النهائي عن رؤيته ، ولكنها أفهمتني ان صعوبات
 وقوداً كثيرة ستتنصب أمامي تجاه هذه العلاقة ، مما أرعبني من امكانية
 صراع متجدد دائماً . فانتهي بي الامر إلى تفضيل الحل الاسوأ . »

ولقد أشعرتني جوابه على الرسالة الحزينة التي كتبتها له بما عساها تكون تلك التضحية بالنسبة إليه . وسوف أحاول ان أسوي الأمور وان اقتنع أمي ، عن طريق الخضوع والصبر ، بأن تفسح لي ، لنا ، من مجال الأمل ، وان تعدل عن ارسالي إلى الخارج . وليس هذا كله بالسهل يا سيمون ، بل هو شديد القسوة ، وانه ليحزني من أجله هو . لقد حدثني مرتين عن القدرية . وأنا أفهم ما يعني قوله بهذه الطريقة الجانية ، وسوف أقوم ، من أجله ، بكل ما في وسعي لكي أحسن وضعنا . وسوف أحتمل ما ينتج عن ذلك بصبر ، بل سأجد لوناً من الفرح أن أتألم من أجله ، بل سأجد اني مهما بلغ الثمن الذي أدفعه ، فانه لن يكون أغلى من السعادة التي حققها لي ولا من الفرح الذي لن يؤثر عليه اي شيء عارض ... لقد نزلت إلى هنا ، وأنا شديدة الحاجة لان أكون وحيدة ، فوجدت فضلاً عن صهري خمسة من اخوته وأخواته . واني انام مع الاخت الكبرى ومع الاختين التوأمن في هذه الغرفة التي كنت فيها معك ومع ستيفا . وقد كتبت لك هذه الاسطر بأقل من ثلاثة ارباع الساعة قبل ان أصحب اسرتي إلى سوق الضاحية ، وغداً ستقضي اسرة « دو مولين » نهارها هنا ، وبعد غد تصل جنيف دو برفيل وفي مساء اليوم نفسه تقام حفلة راقصة في بيت اسرة «مولو» ، ولكنني أظل حرة من غير ان يتنبه إلى ذلك أحد . فان جميع هذه الاشياء لا حساب لي عندها . ذلك ان حياتي هي أن أبتسم خفيةً للصوت الذي لا يني يدوي في أعماقي ، وهي ان التجئ إليه نهائياً ... »

وحنقت على براديل : لماذا يرفض الحل الذي اقترحتة ؟ وكتبت له في ذلك ، فأجابني بأن اخته قد خطبت ، وان أخاه الأكبر مسافر إلى « التوغو » فاذا أبلغ أمه بأنه هو أيضاً يفكر في تركها ، فانه سيوجه إليها ضربة قاضية .

وحين عاد براديل إلى باريس في أواخر أيلول سألته قائلة :

— وزازا ؟ ألا ترى أنها تستنفد قواها في هذا الصراع الذي تعيش

فيه ؟

فأجاب بأن زازا تقرّه على موقفه ، وعبثاً حاولت ان اقنعه بطلب يدها فلم يستجب ...

وبدت لي زازا على غاية من الارهاق . وكانت قد هزلت وفقدت الوان وجهها . وكان الصداع ينتابها باستمرار ، وكانت السيدة براديل تسمح لها بصورة مؤقتة بأن ترى براديل ، ولكنها كانت عازمة على ارسالها إلى برلين في كانون الأول لقضاء سنة فيها : وكانت زازا تواجه هذا النفي برعب وذعر شديدين .

واقترحت اقتراحاً جديداً ، وهو أن يتفاهم براديل ، بالخفية عن امه ، مع السيدة مايل . فهزّت زازا رأسها استخفافاً : إن أمها لن تنظلي عليها هذه الاساليب ، فهي تعرفها ولا ترى فيها الا خداعاً . وقد كانت تعتقد بأن براديل غير عازم على الزواج من زازا ، والآن لوافق على ان يقوم بالخطوات الرسمية : والأم لا يتحطم قلبها حين يخطب ابنها فتاة ، وانما هذه قضية غير مقنعة . والواقع اني كنت من رأيها ، في هذه النقطة . ومهما يكن من أمر ، فان الزواج لن يتم قبل عامين ، وان موقف السيدة براديل لا يبدو لي فاجعاً .. وكانت زازا تقول لي :

— لا أريد أن تتألم بسببي .

وكان نبلها يغيظني ، وكانت تفهم غضبي وتفهم وساوس براديل وتفهم تبصّر أمها . كانت تفهم جميع هؤلاء الاشخاص الذين لم يكونوا متفاهمين فيما بينهم والذين كان عدم تفاهمهم يعود عليه وحدها بالأضرار . وكان براديل يقول بانزعاج :

— إن انتظار عام لا يعني شرب ماء البحر !

وبدلاً من أن تشجع هذه الحكمة زازا ، كانت تضع ثقتها في اتون

المحنة . فانها من أجل ان تقبل فراقاً طويلاً كهذا من غير ضيق شديد ، تحتاج إلى أن تملك ذلك اليقين الذي أوامأت اليه مراراً في رسائلها والذي كانت تفقده في الحقيقة . وكان تنبؤي يجد هنا تبريره : إن براديل لم يكن ذلك الشخص الذي يسهل حبه . لا سيما بالنسبة لقلب عنيف كقلب زازا . فقد كان يشكو منها ، بصدق يكاد يمت إلى النرجسية ، أن عاطفتها غير حارة ، ولم تكن تستطيع الامتناع عن أن تستنتج من ذلك انه كان يحبها حباً مائعاً . ولم يكن مسلكه ليجلب لها الطمأنينة . فقد كان له تجاه اسرته الوان مسرفة من التعلق والاحترام الدقيقين ، ولم يكن يبدو انه يهتمّ بالآتأذى زازا من ذلك .

ولم يكونا ، حتى ذلك التاريخ ، قد تقابلا الا لمدة قصيرة . وكانت هي تنتظر بفارغ صبر ذلك الموعد الذي ضرباه للقاء بعد ظهر أحد الايام ، حين تلقت في صباح ذلك اليوم نفسه رسالة مستعجلة يبلغها براديل فيها وفاة خال له ويذكر انه لا يرى ذلك الحداد ينسجم مع الفرحه التي كان يعد نفسه بها من ذلك اللقاء ، ولهذا فانه يعتذر عن رؤيتها ذلك اليوم .

وفي اليوم التالي اقبلت زازا تشرب في منزلي كأساً . وكان بصحبتها اختي وستيفا : فلم تفلح في أن تنزع من شفيتها بسمة واحدة . وارسلت لي في المساء كلمة :

« اني لا أكتب هذه الكلمة لاعتذر عن اني كنت كثية بالرغم من استقبالك المشجع وخمرك اللذيذ . فلا بدّ انك فهمت اني كنت ما ازال تحت تأثير رسالة براديل المستعجلة ، تلك الرسالة التي اتت في غير محلها تماماً . فلو أن براديل استطاع ان يحدس بالعاطفة التي كنت اعلقها على هذا اللقاء ، لما أجله على ما أعتقد . ولكن من حسن الحظ انه لم يحدس بذلك ، فأنا احب كثيراً ما قد عمله ، وانه لم يشقّ عليّ ان ارى أيّ مبلغ يمكن ان تبلغه خييتي حين أبقى وحدي تماماً لأقاوم الافكار المرّة

والانذارات السوداء التي كانت امي ترى من الضروري ان توجهها لي . على ان ألم شيء هو الا أستطيع الاتصال به : فانا لم اجرؤ على أن أبعث له بكلمة إلى بيته . وستكونين جد لطيفة إذا ارسلت له كلمة مستعجلة تعبرين فيها عما سبق له وعرفه من اني ابدأ إلى قربه في السراء والضراء وان بوسعه ان يكاتبني إلى البيت متى اراد . وسوف يحسن صنعا إذا لم يمنع عن ذلك ، لأنه إذا لم يكن ممكناً ان اراه وشيكاً فسأكون بأشد الحاجة إلى كلمة منه على الاقل . والحق انه ليس له ان يخشى الآن جذلي . فاذا كنت أتحدث اليه حتى عن أنفسنا ، فيكون ذلك برصانة وخطورة كافيتين . ولنفرض أن حضوره يحجّرني ، فانه يبقى في الحياة كثير من الاشياء الحزينة التي يمكن ان نتحدث عنها ونحن في حالة الحداد . هذا إذا لم نتحدث عن كتاب « غبار » . لقد تناولت هذا الكتاب مرة أخرى مساء أمس ، فلم يكن انفعالي لقراءته دون انفعالي في أول العطلة . أجل ! ان «جودي» رائعة وساحرة ، ولكنها تبقى برغم ذلك غير ناجزة ، وتبقى خصوصاً شديدة البؤس ، وأنا أقران ينقذها من قسوة الحياة تعلقها بحياتها الخاصة وبالاشياء المخلوقة ، ولكن فرحتها لن تتماسك امام وجه الموت ، وليس حلاً كافياً ان يعيش المرء كما لو ان ذلك غير موجود نهائياً . واني اذ تركتها استشعرت الخجل بان ارثي لنفسي لحظة ، أنا التي أشعر بأن جميع الصعوبات والأحزان التي يمكن ان تخفيها احياناً ، فرحة من الصعب تذوقها ، فرحة لا يقدر عليها ضعفي ، ولكن ليس هناك على الاقل أي كائن في العالم ضروري لها ، إذ هي لا تتوقف حتى عليّ توقفاً كاملاً . ان هذه الفرحة لا تقلل من شأن شيء : وليس على الذين احبهم ان يقلقوا ، فأنا لا أفر منهم وأشعر في هذه اللحظة بأني مشدودة إلى الارض وحتى إلى حياتي الخاصة كما لم اكن من قبل قط . »

وبالرغم من هذه الخاتمة المتفائلة ، وبالرغم من الرضى المتشجج الذي

كانت تعلقه على قرار براديل ، فان زازا لم تكن لتخفي مرارتها . فلكي تقابل « الأشياء المخلوقة » بفرح فوق الطبيعة « ليس احدٌ ضرورياً له على الاقل » فينبغي الا تأمل ان تستطيع نهائياً في هذا العالم أن تعتمد على أي كائن ، ولقد ارسلت خطاباً مستعجلاً لبراديل الذي سارع بالكتابة لها ، فكتبت تشكرني : « منذ السبت تحررت ، بفضلك ، من أشباح كثيرة كانت تعذبني . »

ولكن الأشباح لم تركها طويلاً في أمان ، ولقد كانت تجاهها وحيدة . بل ان قلقي على سعادتها كان يباعد فيما بيننا ، إذ اني كنت اعلن غضبي على براديل ، فتهمني بانني أنكر مزاياه . لقد اختارت الزهد والتخلي ، وكانت تشتد في موقفها حين كنت أحرّضها على الدفاع عن نفسها . والحق أن أمها كانت قد منعتني من دخول بيتها ، وكانت تحاول كل شيء لمنعها من الخروج منه . ومع ذلك فقد أتيح لي ان أتحدث اليها في منزلي حديثاً طويلاً عن حياتي الخاصة ، وقد كتبت لي في اليوم التالي كلمة تعبر لي فيها عن مدى السعادة التي حتمتها لها هذا اللقاء ، وازافت تقول : « ولكنني لبعض الاسباب العائلية التي يطول امر شرحها ، لن أستطيع ان اراك لفترة من الزمن ، فانظري قليلاً . »

وكان براديل ، من جهة أخرى ، قد أخبرها بأن أخاه قد أبحر ، وان انشغاله بتعزية أمه سيستغرقه كلياً طوال اسبوع . ولقد اصطنعت في هذه المرة أيضاً ، الشعور بأن من الطبيعي الا يتردد في التضحية بها ولكنني كنت واثقة من ان شكوكاً جديدة كانت تتأكلها : وطوال ثمانية أيام تأملت الا يرتفع اي صوت ليهزم « الانذارات السوداء » التي اصدرتها السيدة مايل .

وبعد عشرة ايام التقيت زازا مصادفة في حانة « بوكاردي » ، وكنت ذاهبة إلى المكتبة الوطنية وكانت هي تتابع حاجياتها من الحي ، فرافقتها . وقد أدهشني كثيراً ان اراها تفيض مرحاً . كانت قد فكرت طويلاً

خلال هذا الاسبوع الذي قضته وهي وحيدة ، فاذا بالامور تنتظم شيئاً فشيئاً في رأسها وفي قلبها . وحتى رحيلها إلى برلين لم يعد يفزعها ، فسوف تجد هناك أوقات فراغ ، وسوف تحاول ان تكتب الرواية التي كانت تفكر فيها منذ وقت طويل ، وستقرأ كثيراً : فهي لم تشعر قبل الآن بمثل ذلك العطش للقراءة . وكانت قد استكشفت من جديد روعة آثار « ستاندال » ، وكانت اسرتها تكرهه كرهاً شديداً حاسماً حتى انها لم تستطع حتى ذلك التاريخ ان تتغلب على هذا الحكم المسبق . ولكنها إذ قرأته مرة ثانية في تلك الايام ، فهمته تماماً وأحبته بلا خفاء. وشعرت بالحاجة لأن تراجع عدداً كبيراً من أحكامها : لقد كان عندها إحساس بأن تطوراً هاماً يتحقق الآن في نفسها . وقد حدثتني بجرارة وتدفق عجيبيين . وكان في تفاؤلها شيء مقتسر . غير اني فرحت لذلك : فلقد وجدت قوى جديدة وكان ينحيل إليّ انها كانت بسبيل ان تقرب مني كثيراً : وحين ودعتها ، كنت ممثلة بالأمل .

وبعد أربعة أيام ، تلقيت كلمة من السيدة ماييل تجزبرني فيها بأن زازا كانت مريضة جداً . كانت مصابة بجمي شديدة وكان يتتابها صداع مريع . وكان الطبيب قد أمر بنقلها إلى عيادة في « سانت كلود » ، وكانت بحاجة إلى وحدة وهدوء مطلقين ، ولم يكن يسمح لها بأية مقابلة، فاذا لم تسقط عنها الحرارة ، فستكون هالكة .

ورأيت براديل ، فروى لي ما كان يعرفه : ففي اليوم الذي تلا لقائي بزازا ، كانت السيدة براديل وحدها في البيت حين طرق الباب ، ففتحت ، فاذا هي أمسام فتاة أنيقة الملبس ولكنها لم تكن ترتدي قبعة : وكان هذا ، في ذلك العهد ، امرأ لا يليق . وسألته الفتاة :

— هل أنت امّ جان براديل ؟ وهل تستطيع ان احذثك ؟
وأعلنت عن اسمها ، فأدخلتها السيدة براديل . وتلفتت زازا فيما حولها ، وكان وجهها ممتعاً وخداها ملتھين ، وتساءلت :

– اليس جان هنا ؟ لماذا ؟ هل ذهب إلى السماء ؟
فدعرت السيدة براديل وقالت بأن جان سيعود عما قليل . وسألته
زازا :

– هل تحقريني يا سيدتي ؟
فأنكرت ذلك محتجة .

– لماذا اذن لا تريدان أن نتزوج ؟
فحاولت السيدة براديل جهدها أن تهدئها ، وكانت قد سكنت حين
عاد براديل بعد قليل ، ولكن جبينها ويديها كانت تلتهب . فقال لها
براديل :

– سأصحبك إلى البيت .

واستقلاً سيارة ، وبينما كانت تتجه بهما نحو شارع « بري » سألتها
بعتاب :

– ألا تريد أن تقبلني ؟ لماذا لم تقبلني تط ؟
فقبلها .

وآوتها السيدة ماييل إلى فراشها واستدعت الطبيب . وتحدثت مع
براديل : انها لم تكن تريد شقاء ابنتها ، ولم تكن تعارض ذلك الزواج ،
ولم تكن السيدة ماييل تعارضه هي أيضاً ، فهي لا تريد شقاء أحد ،
وكان كل شيء يميل إلى التسوية . ولكن درجة الحرارة كانت قد بلغت
لدى زازا الاربعين وكانت قد دخلت في طور الهذيان .

وظلت طوال اربعة ايام ، في عيادة سانت كلود ، تطلب أن يأتيها
بـ « كمانى ، وبراديل وسيمون وبالشمبانيا » ولم تسقط الحرارة . وسُمح
لأمها بأن تقضي الليلة الأخيرة إلى جانبها ، فعرفت زازا وأدركت انها
كانت تموت . فقالت لها .:

– لا تحزني يا امي الحبيبة : ان في كل اسرة نفاية . وانا النفاية
في اسرتي .

و حين رأيت زازا في كنيسة المستشفى ، كانت راقدة وسط الشموع
والازهار . وكانت ترتدي قميصاً طويلاً من الكتان الخشن . وكان
شعرها متناثراً خِصلاً جافةً حول وجه ممتقع بلغ من هزاله اني لم أكد
اعرف ملامحه . وكانت اليدان ذواتا الاظافر الطويلة الصفراء تبدوان ، وهما
متشابكتان فوق الصليب ، سهلتي التفتت كيدي مومياء قدمة جداً .
وكانت السيدة ماييل تبكي ، وقد قال لها السيد ماييل :

— اننا لم نكن إلا آلات بين يدي الرب .

وتحدثت الاطباء عن التهاب السحايا أو التهاب الدماغ او لست أدري
عن أي شيء بالتدقيق . أتراه كان مرضاً جاء بالعدوى أو بالمصادفة ؟
ام أن زازا قد سقطت تحت مزيد من الارهاق والتعب والضييق ؟
لقد ظهرت لي مراراً في الليل بعد ذلك ، ممتقعة الوجه ، تحت قبعة
وردية ، وكانت تنظر إليّ بعتاب . لقد كافحنا معاً ضد القَدَرِ الوَحِيلِ
الذي كان يترصدنا ، ولقد فكّرت طويلاً بأني اشتريت بموتها
حريتي ...